المغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ النِّساءِ

(المجلَّدُ الثَّالِث)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

تَفْسِيرُ
سُورَةِ النِّساءِ

سُورةُ النِّساءِ

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ النِّساء:[1]

فعن مَعْدَانَ بن أبي طَلحةَ اليَعمُريِّ، قال: إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه خطَب يومَ جمعةٍ، فذكَر نبيَّ اللهِ – ﷺ –، وذكَر أبا بكرٍ، ثم قال: إنِّي لا أَدعُ بعدي شيئًا أهمَّ من الكَلالةِ، ما راجعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – في شيءٍ ما راجعتُه في الكَلالةِ، وما أَغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيهِ! حتى طعَنَ بإصبَعِه في صَدْري، وقال: يا عُمرُ، ألَا تكفيك آيةُ الصَّيفِ التي في آخرِ سورةِ النساءِ؟! وإني إنْ أعِشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القرآنَ ومَن لا يقرأُ القرآنَ.[2]

– عن عبدِ الله بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله – ﷺ – وهو على المنبر–: ((اقرأْ عليَّ القرآنَ، فقلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك وعليك أُنْزِل؟! قال: إنِّي أَشتهي أن أسمعَه من غيري، قال: فقرأتُ عليه سورةَ النِّساء حتى بلغتُ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ

---

(1) قال ابنُ عاشور: (ووجه تَسميتها بإضافة إلى النِّساء أنَّها افتُتحت بأحكام صِلة الرَّحِم، ثم بأحكام تخصُّ النساء، وأنَّ فيها أحكامًا كثيرة من أحكام النِّساء: الأزواج، والبنات، وخُتِمت بأحكام تخصُّ النساء) ((تفسير ابن عاشور)) (211/4).
وأيضا لتكرر اسم النساء فيها مفردا ومضافا مرات عديدة، ومعلوم أن تكرار الاسم من دواعي التسمية به.
ينظر: ((تفسير ابن عثيمين– سورة النساء)) (8/1)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (197/1، 198).
(2) رواه مسلم (1617).

شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا [النساء: 41- 42]، رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى جنبي- وفي رواية: بيده- فرفعتُ رأسي، فنظرْتُ إليه فرأيتُ عينيهِ تسيلُ))(3)

- عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، عن رسولِ الله - ﷺ -، قال: ((مَن أخَذ السَّبْعَ الأُولَ من القرآن، فهو حَبرٌ)).(4)

- عن واثلةَ بن الأسقعِ رضِي الله عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((أُعطِيت مكانَ التوراة السَّبْعَ الطِّوالَ... الحديث)).(5)

---

(3) رواه البخاري (5055)، ومسلم (800) واللفظ له.

(4) رواه أحمد (82/6) (24575)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (165/7)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (407/3) (1377)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (72)، ورواه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (69)، الحاكم (752/1) بلفظ: فهو خير.

قال ابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (111/1): لا يصح، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (55/1): غريب، وقال الهيثمي: رجال البزَّار رجالُ الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة، ورواه بإسنادٍ آخَرَ رجالُه رجالُ الصحيح.

وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (5979).

(5) رواه أحمد (107/4) (17023)، والطبراني (75/22) (186)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (487/2) (2484).

قال البغويُّ في ((تفسيره)) (61/1)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (55/1):غريب، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (49/7): فيه عمرانُ القَطَّان، وبقيَّةُ رجاله ثقات.

وصحَّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه في ((السلسلة الصحيحة)) (1480).

– عن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: (إنَّ في النِّساء لخمسَ آياتٍ، ما يسرُّني بهنَّ الدُّنيا وما فيها، وقد علِمتُ أنَّ العلماء إذا مرُّوا بها يعرفونها: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا [النساء: 31]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء: 48]، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: 64]، وقوله: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 110].[6]

– عن حُذيفةَ بن اليمانِ، قال: ((صلَّيتُ مع النبيِّ – ﷺ – ذاتَ ليلةٍ، فافتتَح البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المئةِ، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا)).[7]

سورةُ النِّساء مدنيَّةٌ؛ حُكي في ذلِك الإجماعُ.[8]

---

(6) رواه سعيد بن منصور في ((سننه)) (4/1297)، والطبراني (9/250) (9069)، والحاكم (3194).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (7/14): رجاله رجال الصحيح.

(7) رواه مسلم (772).

(8) قال الفيروزابادي: (هذه السُّورة مدنيَّة بإجماع القُرَّاءِ) ((بصائر ذوي التمييز)) (1/169).

قال البقاعي: (سورة النساء مدنيَّة إجماعًا؛ كذا قال بعضهم) ((مصاعد النظر)) (2/86).

قال ابن عطية (٢/٤٥٩): «هذه الســـورة مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة، وهي قوله: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾.

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنها قالت: ((وما نزلتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلَّا وأنا عنده)).[9]

ولا خِلافَ أنَّ النبيَّ – ﷺ – إنَّما بَنَى بها بالمدينة.

من أبرزِ المقاصدِ التي تَضمَّنتها سورةُ النِّساء:

1- الاهتمامُ بالعقيدة وتوحيدِ الله سبحانه وتعالى وقضايا الإيمان، والردُّ على العقائد الباطلة، وإيضاح الحُجَّة على صِحَّة نبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتحذير من المنافقين.

2- العناية بالأُسرة، وتنظيم العلاقة بين الزوجينِ، وحقوق الأرحام، وبيان نظام الإِرْث، وتقسيم التَّرِكات.

3- الاهتمام بأُسُس بناء الدولة الإسلاميَّة، ومقوِّماتها، والجهاد في سبيل الله.

قال النقاش: وقيل: نزلت السورة عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة».

عن الضَّحّاك بن مُزاحِم –من طريق سلمة– قال: ما كان في القرآن ﴿يا أيها الناس﴾ نزل بمكة، وما كان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نزل بالمدينة.

علّق ابن عطية (٢/٤٥٩) بقوله: «قد قال بعض الناس: إنّ قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ حيث وقع إنما هو مكّيٌّ؛ فيشبه أن يكون صدر هذه السورة مكيًّا، وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مدنيٌّ وإن نزل في مكة، أو في سفر من أسفار النبي ﷺ.

وقال النحاس: هذه السورة مكية.

قال القاضي أبو محمد: ولا خلاف أنّ فيها ما نزل بالمدينة، وفي البخاري: آخر آية نزلت: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ [النساء:١٧٦] ذكرها في تفسير سورة براءة من رواية البراء بن عازب، وفي البخاري عن عائشة أنّها قالت: ما نزلت سورةُ النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ.

تعني: قد بنى بها».

(9) رواه البخاري (4993).

4- الاهتمامُ بحِفظ الدِّماء وأحكامها، وحِفظ الأموال، ورعاية حقوق اليتامى.

أبرزُ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ النساء:

1- تناولتْ سورةُ النساء الحديثَ عن المرأة، ففصَّلت الكثيرَ من أحكامها، وأوضحتْ كثيرًا من حقوقِها، وأطالتِ السورةُ الكلامَ في هذا الجانب.

2- نظَّمت السـورةُ الكثيرَ من العَلاقات القائمةِ بين الرجُل والمرأة؛ ومنها: موضـوع القِوامة، وإباحة النِّكاح والتعدُّد فيه للرجل، وحق المرأة في الكرامة الإنسـانية والمهر والميراث، وحُرمة عَضْـل النساء، وأحكام الرَّضَاع، كما حثَّتْ على الفضيلة، وزجرت عن إتيان الفاحشة، وتطرَّقت أيضًا إلى العَلاقة مع مِلْك اليمينِ، إلى غير ذلك.

3- تحدَّثت عن حقوق الأيتام والسُّفهاء، وكيف التعامُل مع أموالِهم.

4- فيما يتعلَّق بالأموالِ، تناولت السـورة موضـوعَ تحريمِ أكْل أموالِ النَّاسِ بالباطل، والتحذير مِن فِعل ذلك، والحثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وتوعُّد الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبُخل.

5- تطرَّقت السـورةُ إلى بيان الكثير من الأحكام الفقهيَّةِ مع بيان يُسْـرِ الشَّـريعةِ، وإرادة الله التخفيفَ عن عباده، ومراعاة ضَعْفهم، ومن هذه الأحكام: أحكامُ المواريث، وحُرمة صلاة السَّكران في حالة سُـكرِه، ووجوب الاغتسـال من الجَنَابة لمن أراد الصَّـلاة، ومشـروعية التيمُّم وأحكامه، كما

أَوضحتِ السورةُ بعضًا من أحكام الجناياتِ، والدِّيَات، مع بيان عِظَم دماء المؤمِن، وجزاء مَن يقتل مؤمنًا متعمِّدًا، وغير ذلك من الأحكام الفقهيَّة.

6- تحدَّثت السورةُ عن أهلِ الكتابِ، وبيَّنت بعضَ ما هُمْ عليه من الضَّلال، وما حلَّ عليهم من الغضب واللَّعن، وذَكَرت بعضَ تعنُّتِهم، ونَقْضهم للعهود، وكُفْرهم بالآيات، ومعاملتهم السيِّئة لأنبياء الله، التي وصلت إلى قتْل بعضِهم. ثم تناولَتْ دعوتَهم إلى الدِّين الحقِّ، ونهيَهم عن الغلوِّ في الدِّين، ومن ذلك غلوُّهم في المسيح عيسى ابن مريمَ، وقولهم بالتثليث.

7- تَطرَّقتْ إلى قضيةِ الحُكم في الإسلام، وإلى ما يَنبغي أنْ يقومَ عليه الحُكمُ في الدَّولة الإسلاميَّة، وهو العدلُ، ووجوبُ الطاعةِ لله والرسولِ وأُولي الأمر، وأنْ يكون المرجعُ في التنازع هو شَرْعَ الله، حتى جعلَتِ الإيمانَ مربوطًا بتحكيمِ الشَّرع، والرِّضا والتسليم له.

8- الحديثُ عن المنافقين، وفضْحُهم، وبيانُ الكثير من أعمالهم، وتصرُّفاتهم، ودَسائسهم، وعقوبتهم، ومكانهم في الآخرة، وأنَّهم في الدَّرْك الأسفل من النار.

9- ومن المواضيع التي تحدَّثت عنها السورةُ: الأمْرُ بالقتال في سبيل الله، ولإعلاء كلمته، ولنُصرة المستضعَفين من المؤمنينَ، موضِّحةً الأجرَ العظيمَ لِمَن يُقاتِل في سبيل الله، والفضل الجزيل للمجاهدين على القاعدين، ومبيِّنةً بعضَ الأحكام التي يحتاج لها المقاتلُ في سبيل الله؛ كالتعامُل مَع مَن يُلقِي السلام، وأحكام صلاة الخوف، والقَصْر للصَّلاة.

10- حضَّت السورةُ على عمَل الخير، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة؛ ومنها: العدل، وأداء الشَّهادة لله كما هي، ولو كانت على النَّفْسِ، أو الوالدينِ أو الأقربين، وألَّا يتَّبِعوا أهواءَهم فيَقعوا في الظُّلم، ومنها: أداءُ الأمانات، والحثُّ على الإحسانِ للخَلْق، ومراعاة الأقرَبينَ من الوالدينِ والأقاربِ والجيرانِ، وكذلك مراعاةُ المحتاجين من الفُقَراء والمساكينِ والضعفاءِ، والإحسانِ إليهم.

11- بيانُ العداوة الأزليَّة بين الشيطانِ وبينَ بني آدمَ، وكيف أنَّ الشيطانَ توعَّد بإضلالِ جزءٍ من العِبادِ.

12- الحثُّ على الإيمانِ بالله ورُسله وكُتُبِه واليومِ الآخِر، وتوحيد العبادة، وبيانُ خطورةِ الشِّركِ، والنَّهْي عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنينَ، والأمرُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ، والاعتصام به، والتمسُّك بدِينه.

13- ذَكَرتِ السورةُ طَرَفًا من خبرِ أنبياء الله تعالى.

سُورةُ النِّساءِ

الآية (1)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)

غريب الكلمات:

وَبَثَّ: أي: ونشَر، وأصلُ البثِّ: التفريقُ، وكذلك إثارةُ الشَّيءِ وإظهارُه.

تَسَاءَلُونَ: تطلُبون حقوقَكم، والسُّؤال يأتي بمعنى الطَّلب والالتماسِ، ويأتي بمعنى الاستفسارِ؛ يُقال: سأل يسألُ سؤالًا ومسألةً.

وَالْأَرْحَامَ: أي: القَرابَاتِ، واحِدَتُها رحِم، والرَّحِمُ: عَلاقة القرابَةِ، وأصل (رحم): الرِّقَّةُ والعطفُ والرَّأفة، ثم سُمِّيت رحِمُ الأنثى رَحِمًا مِن هذا؛ لأنَّ منها يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ.

رَقِيبًا: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلعًا، وأصل رقب: يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ.

تفسير الآية:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

أي: يا أيها الناس حققوا تقوى الله عزَّ وجلَّ، بامتثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه؛ وذلك لأنَّه ربُّكم، أي: خالِقُكم ومالِكُكم ومُدبِّركم.

ولَمَّا أمَر الله عزَّ وجلَّ بتقواه، وذكَر السبَّبَ الدَّاعيَ لهذه التَّقْوى، ذكَر سببًا آخرَ موجِبًا لها، فقال:

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ

أي: الذي أوجدَكم جميعًا- أيُّها الناس- من نَفْسٍ واحدةٍ، وهي آدَمُ عليه السَّلام.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [الأنعام: 98].

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

أي: وأَوجَدَ مِن آدَمَ عليه السَّلامُ امرأتَه حوَّاءَ عليها السَّلام.

كما قال سبحانه: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا [الأعراف: 189].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((استوصُوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلقتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُه كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصُوا بالنِّساءِ)).[10]

وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

أي: إنَّ اللهَ سبحانه قد نشَر من آدمَ وحواءَ عليهما السَّلام في أقطارِ الأرض أعدادًا كثيرةً من الرِّجال والنِّساء، فجميعُهم بنو أبٍ واحدٍ، وأمٍّ واحدةٍ.

كما قال سبحانه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20].

ثم ذكَر داعيًا آخرَ من دواعي تقواه جلَّ وعلا، فقال:

---

(10) رواه البخاري (3331) واللفظ له، ومسلم (1468).

وقال النوويُّ: (وفيه دليل لِمَا يقوله الفقهاء– أو بعضهم– أنَّ حواء خُلقت من ضِلع آدَم؛ قال الله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [النساء: 1]، وبيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّها خُلِقت من ضِلَع).

((شرح النووي على مسلم)) (57/10).

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ(11)

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ تساؤُلَكم به، وتعظيمَكم له سبحانه، من الموجِبِ الدَّاعي لتَقْواه؛ حتى إنَّكُم إذا أرَدْتُم قضاءَ حاجاتِكم، توسَّلْتُم بها بالسُّؤالِ باللهِ، فيقول مَن يريد ذلك لغيرِه: أسألُك باللهِ أن تفعلَ كذا؛ لِعلمه بما قام في قلب الغيرِ من تَعظيمِ الله الذي يَمنعه أنْ يردَّ مَن سأله بالله؛ فكما عَظَّمتُم الله تعالى بذلك، فلْتعظِّموه أيضًا بتقواه سبحانه.

وَالْأَرْحَامَ

أي: واحْذروا من أنْ تَقطعوا أرحامَكم، وتُفَرِّطوا في أداءِ حقِّهم، وكما تتوصَّلونَ بهذه الصِّلة فيما بينكم لِعِظَمِها من أجْل قضاءِ حاجةٍ، أو نَيْل مأرب، فآتوها حقَّها.

عن جَرير بن عبد الله رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ – ﷺ – في صَدرِ النهارِ، قال: فجاءَه قومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ أو العَباءِ، مُتقلِّدي السيوفِ، عامَّتُهم من مُضَرَ، بل كلُّهم من مُضَرَ، فتمعَّر وجهُ رسولِ اللهِ – ﷺ – لِمَا رأى بهم من الفاقةِ، فدخَل ثم خرج، فأمَر بلالًا فأذَّن وأقام،

---

(11) عن الضحاك بن مُزاحِم –من طريق جويبر– في قوله: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾، قال: يقول: اتَّقوا اللهَ الذي تعاقدون وتعاهدون به.

ذَهَبَ ابن تيمية (١٩٢/٢) إلى ما ذهب إليه الضحاك، وقال: «قال طائفة من المفسرين من السلف: ﴿تساءلون به﴾: تتعاهدون به وتتعاقدون.

وهو كما قالوا؛ لأنّ كل واحد مِن المُتعاقِدَين عقد البيع، أو النكاح، أو الهدنة، أو غير ذلك يسأل الآخر مطلوبه: هذا يطلب تسليم المبيع، وهذا تسليم الثمن، وكل منهما قد أوجب على نفسه مطلوبَ الآخر، فكُلٌّ منهما طالبٌ مِن الآخر موجب لمطلوب الآخر».

فصلَّى ثم خطَب فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا. والآيةَ التي في الحشرِ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ؛ تصدَّقَ رجلٌ من دينارِه، من درهمِه، من ثوبِه، من صاعِ بُرِّه، من صاعِ تَمْرِه (حتى قال) ولو بشِقّ تمرةٍ، قال: فجاءَ رجلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كادت كَفُّه تعجِزُ عنها، بل قد عجَزتْ، قال: ثم تتابعَ الناسُ، حتى رأيتُ كومَين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ - ﷺ - يتهلَّلُ كأنَّه مَذْهَبةٌ، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: مَن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجرُ مَن عَمِل بها بعدَه، من غيرِ أن يَنقُصَ من أجورِهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، كان عليه وِزرُها ووزرُ مَن عمِل بها من بعده، من غيرِ أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ)).

وفي روايةٍ: ((كنَّا عِندَ رسولِ اللهِ - ﷺ - صدرَ النَّهارِ، بمثلِ حديثِ ابنِ جعفرٍ، وفي حديثِ ابنِ معاذٍ من الزِّيادة قال: ثم صلَّى الظهرَ ثم خطَب، وفي روايةٍ : كنتُ جالسًا عند النبيِّ - ﷺ -، فأتاه قومٌ مُجتابي النِّمارِ، وساقوا الحديثَ بقِصَّتِه، وفيه: فصلَّى الظهرَ ثم صعِد منبرًا صغيرًا، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: أمَّا بعدُ؛ فإنَّ اللهَ أنزل في كتابِه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الآية)).(12)

(12) رواه مسلم (1017).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ

في قوله تعالى: وَالْأَرْحَامَ قراءتان:

1- وَالْأَرْحَامِ على أنَّها معطوفةٌ على الهاءِ في (به)، أي: تساءلونَ باللهِ وتَسَاءلون بالأرحامِ، أي: تتوسَّلونَ بها.[13]

2- وَالْأَرْحَامَ على أنَّها معطوفة على لفظ الجلالةِ، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقْطَعوها.[14]

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى مراقِبٌ لجميع أعمالِكم، وحافِظٌ لها، ومِن جُملةِ ذلك ما أمَرَكم به من تقوى ربّكم، ورِعايةِ حُرمة أرحامِكم.

---

(13) قرأ بها حمزة.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (247/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 189)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (554/3).
وجَّهَ ابنُ جرير (٦/٣٤٦) قراءةَ الخفض هذه -وهي قراءة حمزة- بقوله: «كأنّه أراد: واتقوا اللهَ الذي تساءلون به وبالأرحامِ. فعطف بظاهرٍ على مَكْنِيّ مخفوض».
وبنحو ذلك وجَّهَها ابنُ عطية (٢/٤٦١).
(14) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (247/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 189)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (554/3).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (2-6)

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ
حُوبًا كَبِيرًا (2) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى
وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا
(3) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (4)
وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ
قَوْلًا مَعْرُوفًا (5) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6)

غريب الكلمات:

وَلَا تَتَبَدَّلُوا: أي: لا تأكُلوا أموالَ اليتامى بدلًا من أكْل أموالِكم، وأصلُ بدَل: قيامُ الشيءِ مقامَ الشيءِ الذَّاهب.

حُوبًا: أي: إثمًا؛ قال: فلانٌ يَتحَوَّبُ من كذا، أي: يتأثَّم، والتَّحوُّبُ التوجُّع، والحَوْبَة الحاجةُ أو المسكَنة، وأصْلُ (حوب): الإثمُ أو الحاجةُ والمسكنةُ، وقيل: مأخوذ من قولهم: حَوْبُ؛ لزَجْرِ الإبل.

تَعُولُوا: أي: تَجُوروا وتَميلوا، ويُطلقُ كذلك على ما يُهلِك، وما يُثقِل، وأصْلُه: تركُ النَّصَفة بأخْذ الزِّيادة.

مَثْنَى وثُلَاث ورُبَاع: أي: اثنتينِ اثنتينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، وهذه الألفاظُ لا تنصرفُ للعدلِ والوصفِ.

صَدُقَاتِهِنَّ: أي: مُهورَهنَّ، واحدتُها صَدُقة، وأصل (صدق): القوَّة في الشَّيء قولًا كان أو غيره.

نِحْلَةً: أي: هِبة، أو فريضةً عن طِيب نفْس من غيرِ مُطالَبة، وأصل النِّحلة: العَطيَّةُ على سبيل التبرُّع، وهي أخصُّ من الهِبة.

هَنِيئًا: الهَنِيء: كلُّ ما لا يَلحَق فيه مشقَّة، ولا يُعقِب وخامةً؛ يُقال: هَنِئ الطَّعام فهو هَنِيء، وكذلك مشتقٌّ من هناء الإبل؛ فإنَّه شفاءٌ من الجرَب، وأصل (هنأ): إصابةُ خيرٍ من غير مشقَّة.

مَرِيئًا: أي: بلا داءٍ، والمريءُ: المحمودُ العاقبة؛ يُقال: أَمْرأ الطَّعام، إذا انهضَمَ وحُمِدتْ عاقبتُه، ويُقال: مَرُؤ الطعام وأمرأ: إذا تخصَّص بالمريءِ؛ لموافقةِ الطَّبع.

لَكُمْ قِيَامًا: أي: قِوامًا، وهو ما يقومُ به أمْرُكم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء والحِفظُ له، والانتصابُ والعزم.

آنَسْتُمْ: أي: وجدتُم وعلِمتُم، وتبيَّنتُم وعرَفتُم، وأصل الإيناس: الرُّؤية والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيء، وكذلك: ظُهورُ الشَّيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقةَ التوحُّش.

رُشْدًا: عقلًا، أو إصلاحًا، أو خيرًا، والرُّشد يُطلق كذلك على الدِّين والهِداية، وهو خلافُ الغيِّ، وأصل (رشد): استقامةُ الطَّريق.

وَبِدَارًا: مُبادَرة، أو مسارَعة؛ يُقال: بدرتُ إليه وبادرتُ، ويُعبَّر عن الخطأِ الذي يقَعُ عن حِدَّةٍ؛ يُقال: كانتْ من فلان بوادرُ في هذا الأمرِ، وأصل (بدر): الإسراعُ إلى الشَّيء.

فَلْيَسْتَعْفِفْ: أي: ليترك ولا يأكُلْ مِن مال اليتيم، والعِفَّة: الامتناعُ عن مقاربةِ المحرَّم، وهي أيضًا: حُصولُ حالةٍ للنَّفس تمتنعُ بها عن غلَبةِ الشَّهوة، والاستعفافُ: طلبُ العِفَّة، وأصلُ (عفف): الاقتصارُ على تناوُلِ الشَّيءِ القليل.

تفسير الآيات:

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2)

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ

أي: أعطُوا– يا مَعشرَ أوصياءِ اليتامى– أموالَهم إليهم كاملةً، إذا بلغوا الحُلُمَ ورَشَدُوا.

كما قال تعالى: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ [النساء: 6].

وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ

أي: لا تأخذوا مالَ اليتيمِ بغيرِ حقٍّ، وتَتركُوا ما أحلَّ اللهُ تعالى لكُم مِن غيرِ ذلك، ومِن استبدالِ الخبيثِ بالطيّبِ أنْ يأخُذَ الوليُّ مِن مالِ اليتيمِ النَّفيسَ، ويجعل بدلَه من مالِه الخسيسَ.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ

أي: لا تضُمُّوا أموالَ اليتامَى إلى أموالِكم؛ بقصد أن تأكلوا أموالَهم بالباطلِ.

إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا

أي: إنَّ ضمَّ أموالِ اليتامى مع أموالكم بقَصْد أكلِها بالباطل، إثمٌ عظيم.

كما قال الله عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [النساء: 10].

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (3)

سببُ النُّزولِ:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ رجلًا كانت له يتيمةٌ فنكَحها، وكان له عَذْق، وكان يُمسكها عليه، ولم يكُن لها من نفْسِه شيءٌ، فنزلت فيه وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى– أحسَبه قال: كانتْ شريكتَه في ذلِك العَذْق وفي مالِه.[15]

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى

أي: وإنْ خِفتُم ألَّا تحقِّقوا في تزوُّجِكم بيتامى النِّساء اللاتي تحت ولايتكم، العدلَ معهنَّ والقيامَ بحُقوقهنَّ.

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها في قوله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا الآية. قالت: أُنزلتْ هذه في الرَّجُل يكونُ له اليتيمةُ وهو وليُّها ووارِثُها، ولها مالٌ وليس لها أحدٌ يُخاصِمُ دونها، فلا يَنكحُها حبًّا

(15) رواه البخاري (4573) واللفظ له، ومسلم (3018) بنحوه.

لمالها، ويَضْرِبها ويُسيءُ صُحبتَها، فقال الله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ يقول: ما أحللتُ لكم، ودَعْ هذه التي تضرُّ بها.[16]

فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

أي: فإنْ خَشِيتُم عدَم إقامة العدل معهنَّ، فانكحوا غيرهنَّ ممَّن تطيبُ بهنَّ نفوسكم.[17]

مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ

أي: مُباحٌ لكم أن تتزوَّجوا باثنتين من النِّساء، أو بثلاث، أو بأربعٍ.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً

أي: فإنْ خَشِيتُم عدمَ إقامَةِ العَدلِ بتَعدادِ النِّساء، فلْتَقْتصروا على التزوُّج بواحدةٍ فحسبُ.

---

(16) رواه البخاري (4573) بنحوه، ومسلم (3018) واللفظ له.

(17) قال الجصاص: (قوله تعالى: فانكحوا ما طاب لكم لا خلافَ أنَّ المراد به العَقْد) ((أحكام القرآن)) (71/2).

شرَع الله تعالى تعدُّدَ النساء للقادرِ العادلِ لمصالح جمَّة: – منها: أنَّ في ذلك وسيلةً إلى تكثير عدد الأمَّة بازدياد المواليد فيها.

– ومنها: أنَّ ذلك يُعين على كفالة النِّســاءِ اللائي هنَّ أكثرُ من الرِّجال في كلِّ أمَّة؛ وذلك لأنَّ الأنوثةَ في المواليد أكثرُ من الذكورة، ولأنَّ الرِّجال يَعرِض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشَّدائد ما لا يعرِض للنِّساء، ولأنَّ النساء أطولُ أعمارًا من الرِّجال غالبًا.

– ومنها: أنَّ الشــريعة قد حرَّمت الزِّنا، وضــيَّقت في تحريمه؛ لِمَا يجرُّ إليه من الفســاد في الأخلاق والأنســاب ونِظام العائلات، فناسَب أن تُوسِّع على الناس في تعدُّدِ النساء لِمَن كان من الرجال ميَّالًا للتعدُّد، مجبولًا عليه.

– ومنها: قصدُ الابتعاد عن الطَّلاق إلَّا لضَرورة.

ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (226/4).

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

أي: أو اقتصِروا على الجواري السَّراري؛ فإنَّه لا يجب عليكم القَسْمُ بينهنَّ.

ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا

أي: إنْ خفتم ألَّا تعدِلوا بين النساء إن عدَّدْتُم، فاقتصرتُم لذلك على واحدة، أو تسرَّرتم مِلْكَ أيمانكم، فذلك أقربُ إلى تحقيقِ العَدلِ، والبُعدِ عن الجَور والظُّلْم.

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (4)

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً(18)

أي: أعطُوا من أَرَدْتم الزواجَ بهنَّ من النساء مهورَهنَّ، عطيةً واجبةً، طيبةً بها نفوسُكم.

---

(18) اختُلِفَ في تأويل هذه الآية، والمخاطب بها، على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ الخطاب في الآية للأزواج، ونزلت الآيةُ تأمرُهم بإعطاء النساءِ مهورَهن عطيةً واجبةً.

وثانيها: أنّ الخطاب في الآية لأولياء النساء، ونزلت الآية تنهاهم عن أكل مُهورِهن.

وثالثها: أنّ الخطاب في الآية لأولياء النساء، ونزلت الآية تنهاهم عن نكاح الشِّغارِ؛ وذلك أنّ الرجل كان يُعْطِي أختَه لرجل، على أن يعطيه الآخرُ أختَه، دُون مهرٍ بينهما، فنهوا عن ذلك، وأُمِرُوا بالمهور.

أفادت الآثار الاختلاف في المراد بالسفهاء في هذا الموضع على أقوال: أولها: أنّهم النساء والصبيان.

وثانيها: أنهم النساء خاصَّةً.

وثالثها: أنهم الصبيان خاصَّةً.

ورابعها: أنهم السفهاء مِن ولَدِ الرجل.

وخامسها: أنهم كلُّ سفيه استحقّ في المال حَجْرًا.

ورَجَّح ابنُ جرير (٦/٣٩٤-٣٩٥) أنّ الآية تصلح لجميع ما ذُكِر؛ استنادًا إلى دلالة العموم.

فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا

أي: فإنْ وهَب لكم نساؤُكم- أيُّها الأزواج- مُهورَهنَّ أو بعضًا منها، عن رِضًا وطيبِ نفْس منهنَّ بذلك.

فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا

أي: فخذوه حلالًا طيِّبًا لكم، لا حرجَ عليكم في ذلك ولا تَبِعة.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (5)

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

أي: لا تُعطوا- أيُّها الناس- أموالكم التي جعلَها الله لكم قِيامًا- يقوم بها عيشُكم، وتحقيق مصالحكم- لا تعطوها لِمَن لا يُحسِن التصرُّفَ في المال، والقيام عليه وحِفظه؛ إمَّا لعدم عقْله كالمجنون، أو لعدم رُشده كالصَّغير، أو لغير ذلك من أسباب، حتَّى لو كان هذا المالُ مالَهم على الحقيقةِ وأنتم عليه أوصياءُ، فلا تُعطوهم إيَّاه طالَما كانوا سفهاءَ لا يُحسنون التصرُّفَ فيه؛ كي لا يَهلِك، وليكُنْ حرصُكم على أموالهم كحِرصكم على أموالِكم.

وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ

أي: ولكنْ أنفِقوا من تلك الأموالِ على طعامِهم وشَرابِهم ومَلابِسهم وما يتعلّق بضروراتِ عَيشِهم كمَسكنِهم، وليتَكم تتَّجِرون لهم في مالِهم؛ كي ينموَ ويكونَ الإنفاقُ عليهم من الرِّبح، لا مِن أصلِ المالِ.

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا

أي: وقولوا لهم قولًا طيّبًا، كأنْ تَعِدُوهم إنْ طلبوا أموالَهم، بأنّها ستُدفَع إليهم بعدَ رُشدهم، أو حين إعطائكم لهم رزقًا أو كسوةً ونحو ذلك، قولوا لهم قولًا هيّنًا وليّنًا بغير منّ ولا أذًى.(19)

---

(19) اختُلِفَ في تأويل قوله تعالى: ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ على قولين: أحدهما: أنّ المراد: عِدُوهم عِدَةً جميلةً مِن البرّ والصِّلَة.

والآخر: أنّ المراد: ادعوا لهم.

وهذا قول ابن زيد.

ورجَّحَ ابنُ جرير (٦/٤٠٢) القولَ الأولَ مستندًا إلى أقوال أهل التأويل، فقال: «أوْلى هذه الأقوال في ذلك بالصحة ما قاله ابنُ جُرَيْج، وهو أنّ معنى قوله: ﴿وقولوا لهم قولا معروفًا﴾ أي: قولوا يا معشر ولاة السفهاء قولًا معروفًا للسفهاء: إن صَلحتم ورشدتم سلَّمنا إليكم أموالَكم، وخلَّينا بينكم وبينها، فاتقوا اللهَ في أنفسكم وأموالكم.

وما أشبه ذلك من القول الذي فيه حثٌّ على طاعة الله، ونهيٌ عن معصيته».

وساق ابنُ عطية (٢/٤٧١) القولين، ثم قال: «ومعنى اللفظ: كلُّ كلام تعرفُه النفوسُ، وتأنسُ إليه، ويقتضيه الشرع».

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6).

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى

أي: اختبِروا عقولَ الأيتامِ ممَّن تحت ولايتِكم، وذلك قُبيلَ وصولِهم سِنَّ البلوغ، واختبِروا أفهامَهم، وصلاحَ دِينهم، وقُدرتَهم على إصلاح أموالهم.

حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا[20]

أي: اختبِروهم إلى أن يَصِلوا سِنَّ البلوغِ، فإذا بلغوا الحُلُمَ، وأدركتم منهم حُسنَ تصرُّفٍ، وقدرةً على إصلاح الأموال.

كما قال تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ [الأنعام: 152].

فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

---

(20) اختُلِفَ في معنى الرشد الذي ذكره الله في هذا الموضع على أربعة أقوال: أولها: أنّه العقل، والصلاح في الدين.
وثانيها: أنّه الصلاح في الدين، والإصلاح للمال.
وثالثها: أنّه العقل خاصّة.
ورابعها: أنّه الصلاح، والعلم بما يُصْلِحه.

أي: فأعطوهم في هذه الحالِ أموالَهم كاملةً، ولا تَحبِسوها عنهم.

وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا

أي: لا تَأخُذوا من أموالِ اليَتامى شيئًا من غيرِ حاجةٍ، فتتجاوزوا في ذلك إلى غيرِ ما أباحَه اللهُ تعالى لكم مِن أموالِهم.

وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا

أي: لا تَأكُلوها في حالِ صِغَرِهم- قبلَ بُلوغِهم وإيناسِ الرُّشدِ منهم- التي لا يُمكنُهم فيها أخذُها منكم، ولا مَنعُكم من أكْلِها، لا تأكلوها استعجالًا منكم بذلِك قبل أن يَكبَروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

أي: ومَن كان مِن أولياء اليتامى في غنيةٍ عن أموالهم، فليتنزَّهْ عن أخذِ أُجرةٍ من مالِ اليتيمِ نظيرَ قيامِه عليه، ولْيَكتفِ بماله.

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

أي: ومَن كان ذا حاجةٍ من أولياء اليَتامى، أخَذَ من أموالهم بحسَب ما جرَى العُرْف على أنَّه يَسدُّ حاجتَه ويَكفي مِثلَه من الفُقراء.

عن عبد الله بن عمرٍو رضِي اللهُ عنهما ((أنَّ رجلًا أتى النبيَّ - ﷺ -، فقال: إنِّي فقيرٌ ليس لي شيءٌ ولي يتيمٌ؟ قال: فقال: كُلْ من مالِ يتيمِك غيرَ مُسرفٍ، ولا مبادرٍ، ولا مُتَأثِّل[21]))[22].

وعن عُروةَ بن الزُّبَيرِ رضِي اللهُ عنه، أنَّه سمِع عائشة رضِي اللهُ عنها تقول:

((وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ أُنزِلَت في والي اليتيم الذي يُقيم عليه، ويُصلح في مالِه إنْ كان فقيرًا، أكَل منه بالمعروف))[23].

فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ

أي: إذا سلَّمتُم- يا معشرَ أولياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم، فأَشْهِدوا عليهم بقبضها كاملةً منكم؛ لئلَّا يقعَ منهم لاحقًا إنكارٌ لِمَا تَسلَّموه.

---

(21) غير متأثِّل: أي: غير جامع؛ يقال: مال مُؤثَّل، ومجد مؤثَّل، أي: مجموع ذو أصل، وأثَلَةُ الشيء أصلُه. ((شرح النووي على مسلم)) (86/11)، ((النهاية)) لابن الأثير (23/1).

(22) رواه أبو داود (2872)، والنسائي (3668)، وابن ماجه (2718)، وأحمد (7022).

قال ابن حجر في ((العجاب)) (833/2): رِجاله إلى عمرٍو بن شعيب رجالُ الصَّحيح.

وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند احمد)) (192/11)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2872): حسن صحيح.

(23) رواه البخاري (2212) واللفظ له، ومسلم (3019) بنحوه.

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا

أي: إنَّ الله تعالى يَكفي عن كلِّ أحدٍ آخَر من الشهود؛

محاسبةً وشهادةً ورقابةً على أولياء اليتامى.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (7–10)

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7)

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8)

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)

غريب الكلمات:

سَدِيدًا: أي: قاصدًا إلى الحَقِّ، مِن السَّداد، وهو: الصَّوابُ والقصدُ في القول، وأصله: الاستقامة.

سَعِيرًا: أي: نارًا تَتسعَّر، أي: تشتعِل وتتَّقِد وترتِفع، والسَّعير اسمٌ من أسماءِ جهنَّمَ.

تفسير الآيات:

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7)

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

أي: إنَّ الذكورَ والإناث يستوونَ في أصْل الوراثةِ في حُكم الله تعالى؛ فكلٌّ ينالُ من الإرث قِسطًا وحِصَّةً، مما خلَّفه الميّت، وإن تفاوتوا بحَسَب ما فرَض الله تعالى لكلٍّ منهم، بما يُدلي به إلى الميّت من قرابةٍ، أو زوجيَّةٍ، أو وَلاء.

مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ

أي: للذُّكورِ والإناث نصيبٌ من الإرث، سواء كان قليلًا أو كثيرًا.

نَصِيبًا مَفْرُوضًا

أي: ذلك النَّصيب لكلٍّ منهم، حصَّةٌ واجبةٌ، معيَّنةُ المقدار.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8)

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ

أي: إذا حضَر توزيعَ الميراثِ الأقاربُ غيرُ الوارثين، والأيتامُ، والمحتاجون.

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ

أي: فأعطوهم شيئًا ممَّا تيسَّر من هذه التَّركة؛ برًّا بهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لخواطرهم بما لا يضُرُّكم؛ فإنَّ نفوسَهم متشوّقِةٌ إليه.

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا

أي: فلْتقولوا لهم قولًا حسنًا جميلًا، تَطِيبُ به نفوسُهم.[24]

---

(24) اخْتُلِفَ في إحكام هذه الآية، والمأمور بها، على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ الآية محكمة، والمأمور بها ورثة الميت.

وثانيها: أنها منسوخة بالمواريث والوصية.

وثالثها: أنها محكمة، والمأمور بها المحتضرون الذين يقسمون أموالهم بالوصية.

واختلف أصـــحاب القول الأول: هل الأمر في الآية على جهة الوجوب أو الندب؟ قولان، ذكرهما ابن عطية (٢/٤٧٥)، وابن كثير (٣/٣٦٠).

واختلف القائلون بالوجوب فيما إذا كان الوارث صغيرًا لا يتصرف في ماله: هل يعطي وليّ الوارث الصغير من مال وليه، أو ليس له ذلك؛ لأنه غير مالك للمال، ولكنه يقول لهم قولًا معروفًا؟ قولان، ذكرهما ابن جرير (٦/٤٤١-٤٤٤)، وابن عطية (٢/٤٧٥).

واختلف القائلون بإحكام الآية في المخاطب بقوله تعالى: ﴿وقولوا لهم قولًا معروفًا﴾ -بناء على ماسبق- فقيل: هم ولاة اليتامى. وقيل: هم المحتضرون الذين يُوصون فِي مالِهم.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)

قيل المعنى: مَن سمِع مُحتضَرًا، قد ظلَم في وصيَّته أو أضرَّ بسببها بوَرَثَته، فعليه أن يتَّقيَ اللهَ تعالى، ويأمرَه بالعدلِ فيها، ويُسدِّدَه للصَّوابِ، كما يحبُّ أن يُصنَعَ بورثتِه إذا خَشِي عليهم الضَّيْعةَ.

وقيل المراد: أنَّ على أولياء اليتامى معاملتَهم في مصالحهم الدِّينيَّة والدنيويَّة، بما يحبُّون أن يُعامَل به ذُرِّيَّتُهم الضِّعافُ من بعدِهم، فلْيتَّقُوا الله تعالى في وِلايتِهم لهم، فكما تحبُّ أن تُعامَل ذرِّيتُك من بعدك، فعامِل الناسَ في ذرِّياتِهم إذا وَلِيتَهُم.

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ - ﷺ - يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترُك مالًا، وإني لم أترُكْ إلَّا ابنةً واحدةً، فأُوصِي بثُلثَي مالي وأترُكُ الثُلثَ؟ فقال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالنِّصفِ وأترك النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالثُّلثِ وأترُك لها الثُّلثين؟ قال: الثُّلث، والثلثُ كثيرٌ)).[25]

---

(25) رواه البخاري (5659) واللفظ له، ومسلم (1628).

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا[26] إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

أي: إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى في الدُّنيا بغير حقٍّ، سيُعاقَبون على ذلك بأنْ تَتأجَّجَ في بطونهم نارٌ يومَ القيامةِ.

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[27]

أي: وسيُحرَقون بنارٍ مشتعلة، متوقِّدة، شديدٍ حرُّها.

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال:

---

(26) ذكر ابنُ عطية (٢/٤٧٨-٤٧٩) أنَّ ﴿ظلما﴾ معناه: ما جاوز المعروف مع فقر الوصـــي، ثم ذكر قولين آخرين: الأول: أنّ المعنى: أنّه لَمّا يَؤُول أكلُهم للأموالِ إلى دخولهم النار قيل: يأكلون النار.

الثاني: أنهم يطعمون النار حقيقة.

وعَلّق عليه بقوله: «وفي ذلك أحاديث، منها حديث أبي سـعيد الخدري قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسـري به، قال: «رأيتُ أقوامًا لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخرًا من نار تخرج من أسافلهم.

قلت: يا جبريل، مَن هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا».

(27) قال ابنُ جرير (٦/٤٥٦) مُبَيِّنًا معنى السـعير، ومسـتندًا فيه إلى دلالة القرآن: «أما السـعير: فإنّه شِـدَّةُ حرِّ جهنم، ومنه قيل: استعرت الحرب، إذا اشْتَدَّت.

وإنّما هو مَسعور، ثم صُرِف إلى سعير، كما قيل: كفٌّ خَضِيب، ولحية دهين، وإنما هي مخضوبة، صرفت إلى فعيل.

فتأويل الكلام إذًا: وسيصلون نارًا مُسَعَّرة، أي: موقودة مشعلة شديدًا حرُّها.

وإنما قلنا: إنّ ذلك كذلك لأنّ الله -جل ثناؤه- قال: ﴿وإذا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، فوصفها بأنها مسعورة، ثم أخبر -جل ثناؤه- أن أكَلَة أموال اليتامى يصلونها وهي كذلك، فالسعير إذًا في هذا الموضع صِفَةٌ للجحيم على ما وصفنا».

((اجتَنِبوا السبعَ الموبقاتِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ)).[28]

(28) رواه البخاري (6857) واللفظ له، مسلم (89).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (11–14)

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا **(11)**

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ **(12)**

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13)

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)

غريب الكلمات:

يُوصِيكُمُ اللَّهُ: الوصيةُ: التقدُّمُ إلى الغيرِ بما يَعملُ به مقترنًا بوعْظ، والوصيةُ مِن الله هي الأمرُ المؤكَّد، والتوصية تُعرِب عن تأكيدِ الأمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأصل (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيء بشيء؛ يقال: وطِئْنَا أرضًا واصية، أي: إنَّ نَبْتها متَّصِلٌ قد امتلأت منه، ومنه الوصية، كأنَّه كلامٌ يُوصَى؛ أي: يُوصَل.

حَظُّ: أي: نصيبٌ مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصيب والجِد.

كَلَالَةً: الكَلالة: الذي يموتُ ولا ولدَ له ولا والدَ، مصْدَر مِن تكلَّله النَّسب، أي: أحاطَ به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا ماتَ ولم يُخلِّفْهما، فقد ماتَ عن ذَهاب طرَفَيه، فسُمِّي من ذَهبَ طَرفاه كَلالةً.

تفسير الآيات:

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)

سببُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رضِي الله تعالى عنه، قال: ((عادَني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وأبو بكر في بني سَلِمة ماشِيَين، فوجدني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لا أعقِلُ، فدعا بماءٍ فتوضَّأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأفقْتُ، فقلْتُ: ما تأمُرني أن أصنعَ في مالي يا رسولَ الله؟ فنزَلَت يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ)).[29]

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءتِ امرأةُ سعدِ بنِ الرَّبيعِ إلى رسولِ اللهِ – ﷺ – بابنتَيها مِن سعدٍ، فقالت: يا رسولَ الله، هاتانِ ابنتَا سعدِ بنِ الرَّبيع، قُتِل أبوهُما معك في أُحدٍ شهيدًا، وإنَّ

(29) رواه البخاري (4577) واللفظ له، ومسلم (1616).

عمَّهما أخَذَ مالَهما، فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا يُنْكَحان إلَّا ولهما مالٌ، قال: فقال: يَقضِي اللهُ في ذلك، قال: فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فأرسلَ رسولُ الله - ﷺ - إلى عَمِّهما، فقال: أعطِ ابنتَي سعدٍ الثُّلُثَين، وأُمَّهما الثُّمُنَ، وما بقِي فهو لك [30])).[31]

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ

أي: يَعهَدُ إليكم ربُّكم ويأمرُكم أمرًا مؤكَّدًا في شأنِ ميراثِ أولادِكم بالتَّسْوِيةِ بينهم، ذُكورًا وإناثًا في أصْلِ الاستحقاقِ من الميراثِ.

لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ

أي: إذا اجتمَع في أولادِ الميِّتِ ذكورٌ وإناثٌ، فإنَّا نُعطي الذَّكَرَ ضِعْفَ ما تُعطَى الأنثى، (وذلك إنْ لم يكُن معهم صاحبُ فرضٍ، أو ما أَبقتِ الفروضُ يَقتسمونَه كذلك).

---

(30) قال ابنُ كثير: (الظاهر أنَّ حديث جابر الأوَّل إنما نزل بسببه الآيةُ الأخيرة من هذه السورة... فإنَّه إنما كان له إذ ذاك أخواتٌ، ولم يكن له بنات، وإنما كان يُورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعًا للبخاري، رحمه الله، فإنَّه ذكره هاهنا.
والحديث الثاني عن جابر أشبهُ بنزول هذه الآية، والله أعلم).
((تفسير ابن كثير)) (2/225).

(31) رواه أبو داود (2892)، والترمذيُّ (2092)، وابن ماجه (2720)، وأحمد (14840) واللفظ له.
قال أبو داود: هذا أصح.
وصححه الترمذيُّ، واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (9/255)، وحسَّنه ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (4/130)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2092).

فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ

أي: فإنْ كان بناتُ الميِّت أكثرَ في العدد من اثنتين– مهما بلغ عددُهن– فإنهنَّ يستحققْنَ ثُلُثي التركة.

ولَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ميراثَ البناتِ حالَ اجتماعِهنَّ، ذكَر ميراثَ البنتِ الواحدة، فقال:

وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ

أي: وإنْ خلَّف الميِّتُ بنتًا واحدةً، فإنَّ لها نصفَ التَّرِكة.

ولَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مِيراثَ الأولاد، انتقَلَ إلى ذِكر ميراث الأبوين، فقال:

وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ

أي: إنَّ لكلٍّ من والد الميِّت ووالدته، السُّدسَ من التركة، إنْ كان للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو جماعةً.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ

أي: فإن لم يكن للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، وله أبٌ وأمٌّ، فإنَّ لأمِّه ثُلُث التَّركة، وللأبِ ما بَقِيَ منها.

عن عبدِ الله بن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِي فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ)).[32]

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾

أي: إذا وَرِث الميّتَ أبواه، وكان له إخوةٌ، سواء كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ، وسواء كانوا اثنين أو أكثر، فإنَّ للأمِّ سدسَ التركة، وللأب ما بقي منها.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾[33]

أي: هذه المواريثُ التي ذَكَرها الله تعالى، إنَّما تُستَحقُّ لأهْلِها ممَّا تبقَّى من تركة الميّت، بعد تنفيذ وصيَّتِه المشروعةِ الثابتة عنه (على ألَّا تتجاوزَ الوصيةُ ثُلُثَ مال الميّت– إلَّا إذا أجاز الوَرَثةُ تلك الزِّيادةَ– ولا تكون لوارثٍ، ولا تكون لشيءٍ محرَّم)، وقضاء دُيونه.

---

(32) رواه البخاري (6735)، ومسلم (1615).

(33) بَيَّنَ ابنُ جرير (٦/٤٦٩)، وابنُ عطية (٢/٤٨٢)، وابنُ كثير (٣/٣٧٥) أنّ الدَّينَ مُقَدَّمٌ على الوصية بالإجماع.

ووجَّه ابنُ عطية (٢/٤٨٤) تقديمَ الوصيّة في الآية بالذِّكرِ استنادًا إلى العقل، واللغة، فقال: «هذه الآية إنما قُصِد بها تقديمُ هذين الفعلين على الميراث، ولم يُقْصَد بها ترتيبهما في أنفسهما، ولذلك تقدَّمت الوصِيَّةُ في اللفظ، والدَّين مُقَدَّم على الوصية بإجماع، والذي أقول في هذا: إنّه قَدَّم الوصيةَ إذ هي أقلُّ لزومًا مِن الدَّين؛ اهتمامًا بها، وندبًا إليها، كما قال تعالى: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة﴾ [الكهف:٤٩]، وأيضًا قَدَّمها مِن جهة أنَّها مُضَمَّنُها الوَصِيَّةُ التي هي كاللازم يكون لكل ميت؛ إذ قد حضَّ الشرعُ عليها، وأَخَّرَ الدَّين لشذوذه، وأنه قد يكون ولا يكون، فبدأ بذكر الذي لا بُدَّ منه، ثم عطف بالذي قد يقع أحيانًا، ويُقَوِّي هذا كونُ العطف بـ﴿أو﴾، ولو كان الدَّيْنُ راتِبًا لكان العطف بالواو.

وقُدِّمَتِ الوصية أيضًا إذ هي حَظُّ مساكينٍ وضِعاف، وأُخِّر الدَّينُ إذ هو حظ غريمٍ يطلبه بقوة، وهو صاحب حَقٍّ له فيه، كما قال: «إنّ لصاحبِ الحقِّ مقالًا»».

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه قال: ((تشكَّيتُ بمكَّة شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ - ﷺ - يعودُني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إنِّي أتركُ مالًا، وإني لم أترُكْ إلا ابنةً واحدةً، فأُوصي بثُلُثَي مالي وأتركُ الثُلُثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ وأتركُ النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصي بالثُّلُثِ وأتركُ لها الثُلثين؟ قال: الثلثُ، والثلثُ كثيرٌ)).[34]

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - في خُطبتِهِ عامَ حجَّةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصِيَّةَ لوارثٍ)).[35]

آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا[36]

أي: إنَّما فرَضَ اللهُ تعالى للآباء والأبناء نَصيبَهم من الميراث، كلٌّ بحسَبه؛ لأنَّ الإنسان قد يأتيه مِن أبيه النفعُ- دُنيويًّا كان أو أخرويًّا أو هما معًا- ما لا يأتيه من ابنِه، وقد يكون الأمرُ بالعكس؛ فلا

---

(34) رواه البخاري (5659) واللفظ له، ومسلم (1628).

(35) رواه أبو داود (2870)، والترمذيُّ (2120) واللفظ له، وابن ماجه (2713)، وأحمد (22348).
حسَّنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (286)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح، وحسَّنه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (439/24)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (263/7)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (315/2)، وصحَّحه الذهبي في ((تنقيح التحقيق)) (157/2).

(36) اختُلِفَ في المراد بالنفع المذكور في قوله تعالى: ﴿أيهم أقرب لكم نفعًا﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ المراد: نفْع الدنيا.
وثانيها: أنّ المراد: نفْع الآخرة.
وثالثها: نفْع الدنيا والآخرة.
وذَهَب ابنُ جرير (٦/٤٧٢)، وابنُ عطية (٢/٤٨٥)، وابنُ كثير (٣/٣٧٦) إلى القولِ الثالثِ، وهو قول ابن زيد، استنادًا إلى ظاهر اللفظ، قال ابنُ عطية (٢/٤٨٥): «واللفظ يقتضي ذلك».

ينبغي أن يُمنَع أحدٌ حقَّه من الإرث؛ فإنَّه لو رُدَّ تقديرُ الإرث إلى عقول الناس واختيارِهم لحَصَل مِنَ الضَّررِ ما اللهُ به عليمٌ؛ لنقصِ العُقولِ وعَدمِ مَعرفتِها بما هو اللائقُ الأحسن في كلّ زمانٍ ومكانٍ، فلا يدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لهم، وأقربُ لحصول مقاصدِهم الدِّينيَّة والدنيويَّة.

فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ

أي: هذا التقسيم المقدَّر للميراث، فرْضٌ من الله تعالى وحده، قد حَكم به على عِبادِه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى عالمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يستحقُّ الأخذَ من الميراث، ومقدارِ ما يستحقُّه كلُّ أحد، وهو الحكيمُ الحاكم على عِبادِه، الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعها اللائقة بها، ومِن ذلك: وضْعُه حقَّ الميراث في أهلِه المستحقِّين له، وتقديرُه ما يستحقُّه كلُّ أحدٍ منهم على أحسنِ تقديرٍ.(37)

(37) قال ابنُ كثير (٣/٣٦٧): «هذه الآية الكريمة، والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة؛ هُنَّ آياتُ علم الفرائض، وهو مستنبط مِن هذه الآيات الثلاث، ومِن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك».

وقال أيضًا (٣/٣٧١ بتصرف): «وقد استنبط بعضُ الأذكياء مِن هذه الآية: أنّه تعالى أرحمُ بخلقه من الوالدة بولدها، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعُلِم أنّه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح وقد رأى امرأةً مِن السبي فُرِّق بينها وبين ولدها، فجعلت تدور على ولدها، فلما وجدته مِن السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أترون هذه طارِحَةً ولدَها في النار وهي تقدِرُ على ذلك؟».

قالوا: لا، يا رسول الله.

قال: «فواللهِ، للهُ أرحمُ بعباده مِن هذه بولدها»».

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ
امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي
الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ

أي: ولكم– أيُّها الأزواجُ– نصفُ ترِكة زوجاتكم بعد وفاتهنَّ، إذا مِتْنَ عن غيرِ ولدٍ، ذَكَرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر.

فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ

أي: فإنْ كان لزوجاتكم ولدٌ، من ذَكَر أو أنثى، واحد أو أكثر، فلكم– أيُّها الأزواج– رُبُع ترِكة زوجاتكم.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ(38)

---

(38) قال ابنُ كثير (٣/٣٧٧): «الدَّينُ مُقدَّم على الوصية، وبعده الوصية، ثم الميراث، وهذا أمرٌ مُجْمَعٌ عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين –وإن سفلوا– حكمُ أولاد الصلب».

أي: ذلك الفَرْض لكم- أيُّها الأزواج- تستحقُّونه ممَّا تبقَّى من ترِكة أزواجِكم، بعد تنفيذ وصيتهنَّ المشروعة الثابِتَةِ عنهنَّ، وقضاءِ ديونهنَّ.

وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ

أي: ولأزواجكم- أيُّها الأزواج- رُبُعُ ما تركتم بعد وفاتكم، إنْ لم يكُن لكم ولدٌ.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

أي: فإنْ كان لكم- أيُّها الأزواج- ولدٌ، وأصابَكم الموتُ، فإنَّ لزوجاتِكم ثُمُنَ ما تركتُم.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

أي: إنَّما يستحقُّ زوجاتكم ذلك النَّصيبَ ممَّا تبقَّى من ترِكتكم، بعد تنفيذ وصيَّتكم المشروعة الثابتة عنكم، وقضاء دُيونكم.

وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ

أي: إنْ كان المتوفَّى، رجلًا كان أو امرأةً، قد تُوفِّيَ عن غير ولدٍ ولا والدٍ، وله من جهة الأمِّ أخٌ أو أختٌ، فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما- أي الأخ أو الأخت- سُدُسَ التَّرِكةِ.

وقال ابنُ عطية (٢/٤٨٥): «والولدُ هاهنا بنو الصلب، وبنو ذُكورِهم، وإن سفلوا، ذكرانًا وإناثًا، واحدًا فما زاد، هذا بإجماع من العلماء».

عن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما قال: ((كنتُ آخرَ النَّاسِ عَهْدًا بعُمرَ، فسَمِعْتُهُ يقولُ: القَولُ ما قلتُ، قلتُ: وما قلتَ؟ قالَ: الكلالةُ من لا ولدَ لَهُ ولا والِدَ)).

فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ

أي: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ من جِهة أمِّ الميّت الموروث كلالةً– رجلًا كان الميّت أو امرأةً– أكثرَ من واحد، فلهم جميعًا ثُلُثُ التركة، يقتسمونها ذُكورًا وإناثًا بينهم بالتَّساوي.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ

أي: هذا الذي فرَضَه الله تعالى لأخي الميّتِ الموروث كلالةً وأخته، أو لإخوته وأخواته، إنَّما يستحقُّونه مِن بعدِ تنفيذِ وصيَّته المشروعةِ الثابتةِ عنه وقضاءِ دُيونِه.

غَيْرَ مُضَارٍّ

أي: غير مقصودٍ بها الإضرارُ بالوَرَثة بأيِّ وجهٍ من الوجوه، كأنْ يَحرِمَ بعضَ الورثة حقَّهم أو يَنقُصه، أو يزيدَ عليه.

وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ

أي: هذا الذي ذَكَره الله تعالى من أحكامٍ فيما يجب من ميراثِ مَن مات منكم، عهدٌ مؤكَّدٌ من الله تعالى إليكم، وجَب عليكم أن تَلتزِموا به.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيء، ولا يَخفى عليه شيءٌ سبحانه، ومن ذلك: عِلمُه بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، وعِلمُه بمَن يستحقُّ أن يُعطى من الميراث، ومن يُحرَم، وعِلمُه بقدْر ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم، وهو سبحانه الحليمُ الذي لا يُعاجِل مَن عصاه بالعُقوبةِ.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13)

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ[39]

أي: تِلك الفرائضُ والمقاديرُ التي جعَلها الله تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللهِ تعالى التي شرَعها لعباده؛ فيجبُ الوقوفُ معها، وعدمُ تجاوُزِها.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(39) اختُلِفَ في تأويل قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾ على أربعة أقوال: أولها: تلك شروط الله.
وثانيها: تلك طاعة الله.
وثالثها: تلك سُنَّةُ الله وأمره.
ورابعها: تلك فرائض الله.
وعَلَّقَ ابنُ عطية (٢/٤٨٩) على تلك التأويلات بقوله: «هذا كلُّه معنًى واحد، وعبارةٌ مختلفة».

أي: ومَن يتَّبعْ أمْرَ اللهِ تعالى وأمْرَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتَنِبْ نَهْيَهما، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريث، فإنَّ الله تعالى يُدخِلُه جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارِها وغُروسِها أنهارٌ متعدِّدةٌ، وهم في هذا النعيمِ ماكثونَ على الدَّوامِ.

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أي: إنَّ إدخالَ اللهِ تعالى لِمَن أطاعه وأطاعَ رسولَه جِنانَه التي وصَف شيئًا منها، لهُوَ ربحٌ كبير، وفلاحٌ منقطعُ النظيرِ.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا

أي: إنَّ مَن يُخالفْ أمْرَ الله تعالى وأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، فيَترُكِ المأموراتِ، ويرتكِبِ المنهيَّاتِ، ويَتجاوزْ حدودَ ما شرَعه الله سبحانه، تغييرًا لما حكَم اللهُ به، ومضادةً للهِ في حُكمه، أو شكًّا فيما فرَض الله على عبادِه، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريثِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخِلُه نارَ جهنَّمَ، ماكثًا فيها.

وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ

أي: وله عذابٌ مُذِلٌّ يُخزيه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (15–18)

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ

فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15)

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

(16)

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17)

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ

وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)

غريب الكلمات:

الْفَاحِشَةَ: أي: الزِّنا، وأصل الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مستقبَح ومستشنَع، من قولٍ، أو فِعْل.

سَبِيلًا: فعلًا وطريقًا، والسَّبيل: الطَّريقُ الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): يدُلُّ على إِرْسالِ شيءٍ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ.

فَآذُوهُمَا: الأذى هنا السَّبُّ والشَّتم، وقد ورَد في القرآن على أحدَ عَشَرَ وجْهًا، وأصلُ الأذى: كل ما يُكرَه، ويُغْتَمُّ به.

فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا: أي: لا تُعَيِّرُوهما بالفاحشةِ، والإعراضُ أن تُوَلِّيَ الشيءَ عُرْضَك؛ أي: جانبَك، ولا تُقْبِلَ عليه.

بِجَهَالَةٍ: الجهالةُ: هي فِعلُ الشيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل جَهِلَ: خِلافُ العِلم، والخِفَّةُ، وخلافُ الطُّمأنينةِ.

تفسير الآيات:

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (16)

النَّاسِخُ والمَنسُوخ:

هاتانِ الآيتانِ الكريمتانِ، منسوختانِ بالاتّفاق.[40]

والنَّاسخُ لهما قولُه تعالى: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: 2].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضِي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((خُذوا عنِّي خُذوا عنِّي؛ قد جعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْرُ بالبِكْر جَلْدُ مئةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ، جَلْدُ مئةٍ والرَّجْمُ)).[41]

وعليه؛ يكونُ حُكمُ الجَلْدِ لغيرِ المحصَنين ثابتًا بالقرآنِ، وحُكمُ الرجمِ للمُحصَنين ثابتًا بالسُّنَّة، وبقرآنٍ منسوخ.

---

(40) علَّقَ ابنُ كثير (٣/٣٨٤) على القول بالنسخ قائلًا: «هو أمر متفق عليه».
وقال ابنُ تيمية (٢/٢١٢) عن الحكم الموقَّت بغايةٍ مجهولة عند بيان غايته: «بعضُ الناسِ يُسَمِّي ذلك نسخًا، وبعضهم لا يسمّيه نسخًا، والخلافُ لفظيٌّ».

(41) رواه مسلم (1690).

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15)

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ

أي: إذا وقَع نساؤكم في الزّنا – متزوّجاتٍ كنَّ أو غيرَ متزوِّجات– فاطلبوا لإثبات وقوعِهنَّ في الزّنا أربعةَ رجالٍ من المسلمين العُدُولِ.

فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ

أي: فإنْ شهِدَ أربعةٌ من المسلمين العدولِ على وقوعِهنَّ في الزّنا، فاحبِسُوهنَّ في البيوتِ؛ عقابًا لهنَّ، لا يُمكَّنَّ من الخروجِ منها إلى أن يَمُتْنَ.

أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا

أي: أو يُصَيِّرَ اللهُ تعالى لهنَّ طريقًا ومَخْرَجًا للخلاصِ من هذا الإمساك بتشريعِ حُكمٍ لهنَّ، وقد كان؛ فقد جعَل الله لهنَّ سبيلًا، فعن عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((خُذُوا عنِّي خُذُوا عنِّي؛ قد جَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْر بالبِكْرِ جَلْدُ مِئةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيّبُ بالثَّيّبِ، جَلْدُ مئةٍ والرَّجْمُ)).[42][43]

(42) رواه مسلم (1690).
(43) اختُلِفَ في حدّ الزاني المحصن على قولين: أحدهما: أنّ حدَّه: جلد مائة، والرجم.

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

(16)

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا

أي: إنَّ الرجُلَ والمرأة إذا زَنَيَا، فآذوهما بالتَّوبيخ، والتَّعيير، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ.

فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا

أي: فإنْ رجعَا عن الوقوعِ في الزِّنا، ونَدِمَا عليه، وعزمَا على ألَّا يَعودَا إلى اقترافِ ذلك، وأصلحَا دِينَهُما بالعملِ بما يُرضِي الله تعالى، فكُفُّوا عن أذيَّتِهما.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

والآخر: أنّ حدَّه: الرجم.

وهذا قول الجمهور.

ورَجَّح ابنُ جرير (٦/٤٩٨) القولَ الثاني استنادًا إلى السُّنَّةِ والإجماع قائلًا: «أولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ قولُ مَن قال: السبيلُ التي جعلها الله -جل ثناؤه- للثيبين المحصَنَيْن الرجم بالحجارة، وللبكرين جلد مائة ونفي سنة؛ لصِحَّةِ الخبر عن رسول الله ﷺ أنّه رَجم ولم يجلد، وإجماعِ الحجة التي لا يجوز عليها -فيما نقلته مجمعةً عليه- الخطأ والسهو والكذب، وصحةِ الخبر عنه أنه قضى في البكرين بجلد مائة ونفي سنة.

فكان في الذي صحَّ عنه مِن تركه جلدَ من رُجم مِن الزناة في عصره دليلٌ واضح على وهاء الخبر الذي رُوِي عن الحسن، عن حطان، عن عبادة، عن النبي ﷺ أنّه قال: «السبيل للثيب المحصن الجلد والرجم»».

أي: إنَّ الله تعالى يُوفِّقُ عبادَه للتوبة، ويَقبَلُها منهم، وهو ذو الرَّحمةِ العظيمةِ بعِبادِه، ومِن رحمتِه أنْ هيَّأَهُم للتَّوبة، وقَبِلَها منهم.[44]

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17)

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ[45]

أي: إنَّما يَقبلُ الله تعالى التَّوبة مِمَّن عَمِل عملًا سيِّئًا، صدر عن سَفَهٍ منه، وعملُه السُّوءَ هو الجهالةُ التي جهِلها، فكلُّ عاصٍ لله عزَّ وجلَّ، فهو جاهلٌ، وإنْ كان عالِمًا بالتَّحريمِ.

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ[46]

(44) قال ابنُ عطية (٢/٤٩١): «وأجمع العلماءُ على أنّ هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور. قاله الحسن، ومجاهد، وغيرهما، إلا من قال: إنّ الأذى والتَّعْيير باقٍ مع الجلد لأنّهما لا يتعارضان بل يتحملان على شخص واحد، وأما الحبس فمنسوخ بإجماع».

(45) اخْتُلِفَ في معنى قوله تعالى: ﴿بجهالة﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ عملَ السوء هو الجهالة، فكلُّ ذنب أصابه الإنسان فهو بجهالة، وكلُّ عاصٍ عصى فهو بجهالة.

وثانيها: أنّ الجهالةَ العمدُ.

وهذا قول الضحاك، ومجاهد.

وثالثها: الجهالةُ هي الدنيا، أي: الشّأنُ فيها ذلك.

(46) اخْتُلِفَ في معنى قوله تعالى: ﴿يتوبون من قريب﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: معناه: يتوبون في صِحَّتِهم قبل موتهم، وقبل مرضهم.

وثانيها: معناه: يتوبون قبل معاينة مَلَكِ الموت.

وثالثها: معناه: يتوبون قبل الموت.

أي: إنَّ الله تعالى يَقبَلُ توبةَ العبد إذا تاب حالَ حياتِه، قبل مُعايَنَةِ الموتِ.

عن ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[47])).[48]

قال ابنُ تيمية (٢/٢١٨): «المريض تُقبلُ توبته ما لم يُغَرْغِر، وإن كان مرضًا مخوفًا».

وقال (٢/٢١٩): «فمن قال: إنِّي تُبتُ.

قبل حضور الموت، أو تاب توبةً صحيحة بعد حضور أسباب الموت؛ صَحَّت توبتُه».

وذَهَب ابنُ كثير (٣/٣٩٤-٣٩٥) إلى نحو قول ابنِ جرير مستندًا إلى السياق، والقرآن، والنظائر، وقال: «فقد دلَّت هذه الأحاديثُ على أنّ مَن تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة فإنّ توبته مقبولة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

فأمّا متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحَشْرَجَتِ الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغَرْغَرَتِ النفس صاعدة في الغَلاصِم؛ فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤]، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]».

وقال ابنُ القيم (١/٢٦٨): «إذا وقع في السياق فقال: إني تبت الآن.

لم تقبل توبته؛ ذلك لأنها توبةُ اضطرارٍ لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله».

(47) قوله: ((ما لم يُغَرْغِرْ))، أي: ما لم تبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلة الشَّيءِ الذي يَتغَرْغَر به المريضُ.

((النهاية)) لابن الأثير (360/3).

(48) رواه الترمذيُّ (3537)، وابن ماجة (4253)، وأحمد (6160).

قال الترمذيُّ: حسن غريب.

وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (412/5): محتمَل أن يُقال فيه: صحيح

وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (18/9)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3537).

فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

أي: فإنَّ هؤلاء الذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ، يَرزُقُهم اللهُ تعالى– دون مَن لم يَتُبْ– إنابةً إلى طاعتِه، ويَتقبَّلُ منهم أَوْبَتَهُم إليه.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك: عِلمُهُ بمَن تاب إليه مِن عبادِه، وهو الحكيمُ الذي من حِكمتِه توبتُه على مَن تابَ مِن عِبادِه.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ[49]

---

(49) اخْتُلِفَ فيمن عُنِيَ بقوله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّه عُنِيَ به: أهل النفاق.

وثانيها: أنه عُنِيَ به: أهل الإسلام.

وثالثها: أنّه كانت نزلت في أهل الإيمان، غير أنّها نُسِخَت.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٦/٥١٩) أنّ المَعْنِيَّ بها أهل الإسلام، كما قال سفيان الثوري، مستندًا إلى ظاهر الآية، والدلالة العقلية، وقال: «ذلك أنّ المنافقين كُفّار، فلو كان مَعْنِيًّا به أهل النفاق لم يكن لقوله: ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ معنًى مفهوم؛ لأنهم إن كانوا الذين قبلهم في معنى واحد مِن أنّ جميعهم كفار فلا وجه لتفريق أحكامهم، والمعنى الذي من أجله بَطَل أن تكون [لهم] توبة واحِدٌ.

وفي تفرقة الله –جل ثناؤه– بين أسمائهم وصفاتهم، بأن سمّى أحد الصنفين كافرًا، ووصف الصنف الآخر بأنهم أهل سيئات، ولم يُسَمِّهم كُفّارًا؛ ما دلَّ على افتراق معانيهم.

أي: إنَّ مَن يرتكبون المحرَّمات لا يقبلُ الله عزَّ وجلَّ توبتهم، حين يأتيهم الموتُ. ساعة الاحتضار وبلوغِ الرُّوحِ الحُلْقومَ.(50)

وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ

أي: ولا يَقبَلُ اللهُ تعالى أيضًا توبةَ مَن ماتوا على الكفر؛ فحالُهم أشبهُ بحالِهم في انعدامِ الرجاءِ في قَبول توبتِهم.

أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي: إنَّ الكفَّارَ الذين ماتوا على كُفرِهم أعدَّ الله تعالى لهم عذابًا مُوجِعًا شديدًا.

وفي صحة كون ذلك كذلك صِحَّةُ ما قلنا، وفسادُ ما خالفه».

(50) عن أبي العالية الرِّياحِيِّ –من طريق الربيع بن أنس– في قوله: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾، قال: هذه لأهل النفاق.

عَلَّقَ ابنُ تيمية (٢/٢١٩) على قول أبي العالية هذا بقوله: «ويدلُّ على ما قال أنّ المنافقَ إذا أُخِذ ليُقْتَل ورأى السـيفَ فقد حضره الموت، بدليل دخول مثل هذا في عموم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ﴾ [البقرة:١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْت﴾ [المائدة:١٠٦]، وقد قال حين حضره الموت: ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ فليست له توبة كما ذكره الله سبحانه.

نعم، إن تاب توبةً صحيحة فيما بينه وبين الله لم يكن مِمَّن قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾، بل يكون مِمَّن تاب مِن قريب؛ لأنّ الله سبحانه إنّما نفى التوبةَ عَمَّن حضره الموتُ وتاب بلسانه فقط، ولهذا قال في الأول: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ وقال هنا: ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾، فمن قال: إِنِّي تُبْتُ.

قبل حضور الموت، أو تاب توبة صحيحة بعد حضور أسباب الموت؛ صحَّت توبتُه».

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (19–22)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20)

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21)

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (22)

غريب الكلمات:

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: أي: ولا تمنعوهنَّ من التَّزوُّج، أو لا تحبِسوهنَّ وتقهروهنَّ، يقال: عَضَلَ فلانٌ المرأةَ، إذا منعَها من التزوُّج، وأصل (عضل): المنْعُ والشِّدَّة، والالتواء في الأمْر؛ من عضَلتِ المرأةُ إذا علَق ولدُها في بطنِها وعَسُر خروجُه.

وَعَاشِرُوهُنَّ: صاحِبوهنَّ وخالِطوهنَّ، وأصل (عشر): يدلُّ على مُداخلةٍ ومخالطةٍ.

بُهْتَانًا: أي: ظلمًا، والبُهتان أيضًا الكذبُ، وكلُّ فِعل مستبشَع يُتعاطَى باليَد والرِّجْل، مِنْ تناوُلِ ما لا يجوز، والمشيُ إلى ما يقبُح.

أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ: يعني الجِماع؛ يُقال: أفضى إلى امرأتِه: انتهى إليها ولم يكنْ بينهما حاجزٌ، والإفضاءُ الخَلوة، وأصله يدلُّ على انفساحٍ في شيءٍ واتِّساع.

وَمَقْتًا: بُغضًا، والْمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمَن تراه تعاطَى القبيحَ، وأصل (مقت): شناءةٌ وقُبحٌ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ قال: كانوا إذا مات الرَّجُلُ كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحقُّ بها مِن أهلِها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك)).[51]

وعن أبي أُمامةَ بنِ سهلِ بن حُنيفٍ، قال: ((لَمَّا تُوُفِّي أبو قَيسِ بنُ الأسلتِ، أراد ابنُه أنْ يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهليَّة، فأنزل اللهُ تعالى: لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا)).[52]

---

(51) رواه البخاري (4579).

(52) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (321/6) (11095)، والطبري في ((تفسيره)) (105/8)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5030).

حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (95/8).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا

أي: يحرُمُ عليكم– أيُّها المؤمنون– أنْ تَستحوِذوا على زَوجاتِ مَن ماتَ مِن آبائكم وأقاربكم، وكأنَّهُنَّ مِن جملةِ تركتِهم، وذلك كأنْ تتزوجوهنَّ، أو تُزوِّجوهنَّ لغيركم، أو تمنعوهنَّ من الزَّواج، والحال أنهنَّ كارهاتٌ لذلك مُكرَهاتٌ عليه.(53)

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ

أي: يحرُم عليكم– أيُّها الأزواج– أن تُضيِّقوا على أزواجكم في العِشْرة وتقهروهنَّ؛ لتُلجِئوهنَّ إلى افتداء أنفسهنَّ منكم، بترك مهورهنَّ أو بعضٍ منها، أو بتنازلهنَّ عن أيِّ حقٍّ آخرَ من حقوقهنَّ؛ لتفارقوهنَّ.(54)

---

(53) اختُلِفَ في تأويل هذه الآية على قولين: أحدهما: أنّ المعنى: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمال يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال، والمتلبس بالخطاب أولياء الموتى.

وهذا قول الجمهور.

والآخر: أنّ المعنى: لا يحل لكم عَضْلَ النساء اللواتي أنتم أولياء لهن وإمساكهن دون تزويج حتى يمتن فتورث أموالهن، فالموروث مالها لا هي، والمتلبس بالخطاب أولياء النساء وأزواجهن إذا حبسوهن مع سوء العشرة طماعية أن يرثها.

وهذا قول الزهري، وابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٦/٥٢٦–٥٢٧) القولَ الأولَ

وذَهَبَ ابنُ كثير (٣/٣٩٨) إلى أنّ الآية عامَّة، فقال: الآيةُ تَعُمُّ ما كان يفعلُه أهلُ الجاهلية.

(54) أفادت الآثارُ الاختلافَ في المخاطب بهذه الآية على أربعة أقوال: أولها: أنّه خطاب لورثة الأزواج ألّا يمنعوهن من التزويج.

وثانيها: خطاب للأزواج ألّا يعضلوا نساءهم بعد الطلاق، كما كانت قريش تفعل في الجاهلية.

وثالثها: أنه خطاب للأزواج ألّا يحبسوا النساء كرهًا؛ ليفتدين نفوسهن، أو يَمُتْنَ فيرثهن الزوج.

ورابعها: أنّه خطاب للأولياء.

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

أي: يحلُّ لكم- أيُّها الأزواج- عَضْلُ زوجاتكم والضِّرارُ بهنَّ بالعدل، إذا وقَعْنَ في الزِّنا أو النُّشوز، حتى يَفتدينَ أنفُسَهنَّ منكم بالتنازُلِ عن بعضِ حُقوقهنَّ- كالمهرِ أو بعضِه- من أجْلِ أنْ تفارقوهنَّ.[55]

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

أي: صاحِبوا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم كما أمرَكم الله تعالى، وذلك بالخُلق الحسَن؛ كالقول الطيِّب، وكفِّ الأذى، وبذْلِ الإحسان، وحُسن الهيئة، وغير ذلك، وصاحبوهنَّ بأداء حقوقهنَّ من النَّفقةِ والكُسوة، وغير ذلك ممَّا أمَرَ الله تعالى به، وبما يَتعارَفُ عليه النَّاس ولا يُنكِرُه الشَّرعُ.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٦/٥٣٠-٥٣١) القولَ الثالثَ.

(55) اختُلِفَ في معنى الفاحشة في هذا الموضع على أقوال: أولها: أنَّها الزِّنا.

وثانيها: أنها النشوز.

وزاد ابنُ عطية (٢/٥٠١) قولًا ثالثًا: أنها البذاءة والأذى.

وقال: «هذا في معنى النشوز»، ولم ينسبه لأحد.

ورجَّحَ ابنُ جرير (٦/٥٣٥) العمومَ في معنى الفاحشــة مســتندًا إلى ظاهر الآية، وما ورد في السُّـنَّة، فقال: «أَوْلَى ما قيل في تأويل قوله: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أنه معنِيٌّ به كُلَّ فاحشة؛ من بَذاءٍ باللسان على زوجها، وأذى له، وزنًا بفرجها.

وذلك أنّ الله -جل ثناؤه- عمَّ بقوله: ﴿إلا أن يأتين بفاحشـة مبينة﴾ كُلَّ فاحشـة مبيّنةٍ ظاهرة، فكل زوج امرأة أتت بفاحشـة من الفواحش التي هي زنًا أو نشـوز فله عضْـلُها على ما بَيَّن الله في كتابه، والتضـييقُ عليها حتى تفتدي منه، بأيِّ معاني الفواحش أتت، بعد أن تكون ظاهرة مبيّنة، بظاهر كتاب الله -تبارك وتعالى-، وصحة الخبر عن رسول الله ﷺ».

وجَوَّدَ ابنُ كثير (٣/٣٩٩) اختيار ابن جرير، فقال: «اختار ابنُ جرير أنه يَعُمَّ ذلك كُلَّه؛ الزنا، والعصـــيان، والنشـــوز، وبذاء اللسان، وغير ذلك.

يعني: أنّ هذا كله يُبيح مُضاجَرَتَها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جَيِّد».

عن عائشةَ رضِيِ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لأهلِي)).[56]

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا

أي: عاشِروا– أيُّها الأزواج– زوجاتِكم بالمعروف، وإنْ كرهتموهنَّ؛ فعسى أن يكونَ صَبْرُكم مع إمساكِكم لهنَّ وكراهيتِهنَّ، فيه خيرٌ كثيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرة؛ كأولادٍ تُرْزَقُونَهُمْ منهنَّ، أو تزولُ كراهتكم لهنَّ، وتَخْلُفُها محبتُهنَّ، وغير ذلك.

عن أبي هريرة رضِيِ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رضِيَ منها آخرَ، أو قال: غيرَهُ)).[57]

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20)

---

(56) رواه الترمذي (3895) واللفظ له، والدارمي (2260) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الترمذي: حسن غريب صحيح، وصحح إسناده ابن جرير الطبري في ((مسند عمر)) (408/1)، ورواه ابن حبان في ((صحيحه)) (4177)، وصححه الشوكاني في ((فتح القدير)) (635/1)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (477/1)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3895)، وصححه على شرط الشيخين الوادعي في ((الصحيح المسند)) (1616).

والحديث روي من طرق عن عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

(57) رواه مسلم (1469).

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ

أي: إذا أراد أحدُكم– أيُّها الأزواج– أنْ يُطلِّقَ زوجته، ويتزوَّج بأخرى.

وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

أي: والحال أنَّكم قد أمهرتموهنَّ مهرًا كبيرًا، فإنَّه لا يحلُّ أخْذُ شيءٍ منه عَنوةً؛ لأنَّه حقُّها، والنهي عن ذلك بالأَوْلى لو كان المهر قليلًا.

أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

أي: أتأخذون ما آتيتموهنَّ من المهور كَذِبًا، وظلمًا بغير حقٍّ، وإثمًا ظاهرًا، قد أبان أمْرَ آخِذِه أنَّه بأخْذه إيَّاه ظالمٌ لِمَن أخَذَه منه؟

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21)

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ(58)

---

(58) اختُلِفَ في ثبوت حكم هذه الآية أو نسخه على ثلاثة أقوال: أولها: أنّها محكمة، وغير جائز للرجل أخذُ شيء مما آتاها إذا أراد طلاقها، إلا أن تكون هي المريدةَ الطلاقَ.

وثانيها: أنّها محكمة، وغير جائز للرجل أخذُ شيء مما آتاها منها بحال، سواء أكانت هي المريدةَ الطلاقَ أو هو.

وثالثها: أنها منســـوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ولا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَأْخُذُوا مِمّا ءاتَيْتُمُوهُنَّ شَـــيْئًا إلاَّ أن يَخافا ألاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ﴾ [البقرة:٢٢٩].

أي: على أيِّ وجهٍ تأخذون من نسائكم ما أعطيتُموهنَّ من مهور؟ والحال أنَّه قد حصلت بينكم عَلاقةُ استمتاعٍ وجماعٍ.

وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(59)

أي: وقد أخذ نساؤكم منكم– أيُّها الأزواج– عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وذلك بعقد النكاح، والقيام بحقوقهنَّ، ومن ذلك: إمساكُهنَّ بمعروف، أو تسريحهنَّ بإحسان.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (22)

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٦/٥٤٧–٥٤٨ بتصرف) القولَ الأولَ لعدم ورود دليل للنسخ يعتمد عليه، مع إمكان الجمعِ بينهما، وانتَقَدَ القولَ الثاني لمخالفته ما ثبت في السّنّة، وانتَقَدَ ابنُ عطية (٢/٥٠٥ بتصرف) القولين الثاني والثالث بقوله: «مِن شاذِّ الأقوال في هذه الآية أنّ بكر بن عبد الله المزني قال: لا يجوز أن يؤخذ من المختلعة قليلٌ ولا كثير، وإن كانت هي المريدة للطلاق. ومنها أنّ ابن زيد قال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾.

وليس في شيء من هذه الآيات ناسخٌ ولا منسوخ، وكلها يبني بعضُها مع بعض».

(59) اخْتُلِفَ في المراد بالميثاق المذكور في الآية على ثلاثة أقوال: أولها: أنّه إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وثانيها: أنّه عقد النكاح الذي استحل به الفرج.

وثالثها: أنّه قول النبي ﷺ: «أخَذْتُمُوهُنَّ بأمانة الله واسْتَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بكلمة الله».

وزاد ابن عطية (٢/٥٠٥) قولًا رابعًا: أنّ الميثاق الغليظ: الولد.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٦/٥٤٦) القولَ الأولَ.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عباس رضِي اللهُ عنهما قال: ((كان أهل الجاهلية يُحرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأب والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إلى قوله: وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)).[60]

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ[61]

أي: لا تتزوَّجوا- أيُّها المؤمنون- زوجاتِ آبائِكم مِن بَعدِهم،

إلَّا ما وقَع منكم من ذلك في جاهليَّتِكم، أو قبل تحريمِه؛ فإنَّه معفوٌّ عنه [62]

---

(60) رواه الطبري في ((تفسيره)) (132/8)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1523).

(61) اختُلِفَ في معنى قوله: ﴿إلا ما قد سلف﴾ على أربعة أقوال: أولها: لكن ما قد سلف فدعوه فإنّكم تؤاخذون به، وهو من الاستثناء المنقطع.

وثانيها: لا تنكحوا كنكاح آبائكم في الجاهلية على الوجه الفاسد، إلا ما سلف منكم في جاهليتكم فإنّه معفُوٌّ عنه إذا كان مما يجوز الإقرار عليه.

وهذا قول بعض التابعين.

وثالثها: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء بالنكاح الجائز، إلا ما قد سلف منهم بالزنا والسفاح، فإنّ نكاحهن حلال لكم؛ لأنهن لم يَكُنَّ حلالًا، وإنما كان نكاحهن فاحشة ومقتًا وساء سبيلًا.

ورجَّحَ ابنُ جرير (٥٥١/٦) القولَ الثانيَ استنادًا إلى ظاهر الآية، والدلالة اللغوية.

(62) قال الرازي: (أجمعوا) أي المفسِّرون على أنَّ سبب نزول هذه الآية هو أنَّهم كانوا يتزوَّجون بأزواج آبائهم، وأجمع المسلمون على أنَّ سبب نزول الآية لا بدَّ وأن يكون داخلًا تحت الآية، بل اختلفوا في أنَّ غيره هل يدخل تحت الآية أم لا؟ وأما كون سبب النزول داخلًا فيها فذاك مجمعٌ عليه بين الأمَّة، فإذا ثبت بإجماع المفسِّرين، أنَّ سبب نزول هذه الآية هو العقد لا الوطء، وثبت بإجماع المسلمين أنَّ سبب النزول لا بدَّ وأن يكون مرادًا، ثبت بالإجماع أنَّ النَّهي عن العقد مرادٌ من هذه الآية) ((تفسير الرازي)) (18/10).

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

أي: إنَّ تزوُّجَكم بزوجاتِ آبائِكم لَهُوَ فِعلٌ في غايةِ البَشاعة والقُبح، وهو أمرٌ يُبغِضُه اللهُ تعالى، ويُبغضه الناسُ، وقد يُبغض الابنُ أباه بسببه؛ فإنَّ من تزوَّج بامرأةٍ قد يُبغض مَن كان زوجَها قبلَه.(63)

وَسَاءَ سَبِيلًا

أي: وبِئْسَ هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سلَكه.

وقال أبو السعود: (اسمُ الآباءِ ينتظِمُ الأجدادَ مجازًا فتثبُت حرمةُ ما نكحوها نصًّا وإجماعًا) ((تفسير أبي السعود)) (2/159).

(63) عن البراء بن عازب -من طريق عدي بن ثابت- قال: لقيتُ خالي ومعه الراية، قلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأةَ أبيه مِن بعده، فأمرني أن أضرب عنقه، وآخذ ماله.

استدل ابنُ كثير (٣/٤٠٨-٤٠٩) بأثر البراء هذا على أنّ مَن تعاطى هذا النكاح بعد التحريم قد ارتدَّ عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فيئًا لبيت المال.

سُورةُ النِّساءِ

الآية (23)

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (23)

غريب الكلمات:

وَرَبَائِبُكُمُ: أي: بناتُ نِسائِكم من غيرِكم، والرَّبائب جمْع: رَبيبةٍ، وهي مأخوذةٌ من التربية، وهو إنشاءُ الشيءِ حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام.

فِي حُجُورِكُمْ: أي: فِي ضَمانِكم وتَربيتكم، والحُجور جمْع حِجر، وحِجْرُ القميص: اسمٌ لِمَا يُجعل فيه الشيءُ فيُمنَع؛ يُقال: فلان في حَجْرِ فلان، أي: في منعٍ منه عن التصرُّف في ماله، وكثيرٍ من أحواله، وأصل الحَجْر: المنعُ، والإحاطة على الشَّيءِ.

وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ: أي: أزواجِ البنين، جمْع حَليلة؛ وسُمِّيت الزوجةُ حليلةً، والزَّوجُ حليلًا؛ لنُزولِهما معًا؛ فتَحُلُّ معه ويَحُلُّ معها، أو لحَلِّ كلِّ واحدٍ منهما إزارَه للآخَر، وإمَّا لكونِهما حَلالًا له، وأصل (حلَّ): فتْحُ الشَّيء.

أَصْلَابِكُمْ: أي: ظُهورِكم، جمْع صُلب؛ وسُمِّي الظَّهرُ صلبًا باعتبارِ الصَّلابة والشدَّة، وأصل (صلب): الشِّدَّة والقوَّة، وكلُّ شيءٍ من الظَّهر فيه فَقَارٌ، فهو صلبٌ.

تفسير الآية:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (23)

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كان أهلُ الجاهليَّةِ يُحرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأبِ والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل اللهُ: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إلى قوله: وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)).[64]

(64) رواه الطبري في ((تفسيره)) (132/8)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1523).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (479/1)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (75): رجالُه رجال الصحيح إلَّا محمد بن عبد الله المخرميَّ، وهو ثقة.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ

أي: حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ عليكم- أيُّها المؤمنون- التزوُّجَ بأمهاتِكم، وبناتِكم،[65] وأخواتِكم، وعمَّاتِكم، وخالاتِكم، وبناتِ إخوانِكم، وبناتِ أخَواتكم؛ فهؤلاء محرَّماتٌ على الرجُلِ من جِهة النَّسب.

وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ

أي: وحرَّم اللهُ تعالى أيضًا عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نِكاح أمَّهاتِكم، وأخواتِكم من جِهةِ الرَّضاعة.

عن عبدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قالَ في بنتِ حمزةَ: ((لا تَحِلُّ لِي، يَحْرُمُ من الرَّضَاعِ ما يَحْرُمُ من النَّسَبِ، هيَ بِنتُ أخِي من الرَّضَاعَةِ)).[66]

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها أنَّ عمَّها من الرَّضاعةِ، يُسمَّى أفلحَ، استأذنَ عليها فحَجَبَتْهُ، فأخبرتْ رسولَ اللهِ - ﷺ -، فقال لها: ((لا تَحْتَجِبي منهُ؛ فإنَّهُ يَحْرُمُ من الرَّضاعةِ ما يَحْرُمُ من النَّسَب)).[67]

---

(65) قال ابن كثير (٣/٤١١): «استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وبناتكم﴾؛ فإنها بنتٌ فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل.

وقد حكي عن الشافعي شيءٌ في إباحتها؛ لأنها ليست بنتًا شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية».

(66) رواه البخاري (2645) واللفظ له، ومسلم (1447).

(67) رواه مسلم (1445).

وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ[68]

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نكاحَ أمِّ الزوجة مطلقًا، سواءٌ دخلتم بابنتها أو لم تدخلوا.

وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ[69]

أي: وحرَّمَ عليكم أيضًا نِكاح بناتِ زوجاتِكم اللاتي جامعتموهنَّ.

---

(68) اخْتُلِفَ في تأويل قوله تعالى: ﴿وأمهات نسائكم﴾ على قولين: أحدهما: أنها تامة العموم فيمن دخل بها أولم يدخل، فبالعقد على الابنة حرمت الأم.

وهذا مذهب جمهور أهل العلم.

والآخر: أنها بمنزلة الربيبة، فبالدخول على الابنة تحرم الأم.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٥٥٧/٦) القولَ الأولَ استنادًا إلى ظاهر الآية، وإجماع الحجة، ودلالة السنّة، فقال: «الأُمُّ من المبهمات؛ لأن الله لم يشرط معهن الدخول ببناتهن، كما شرط ذلك مع أمهات الرَّبائب، مع أن ذلك أيضًا إجماعٌ من الحجة التي لا يجوز خِلافُها فيما جاءت به متفقة عليه.

وقد روي بذلك أيضًا عن النبي ﷺ خبرٌ، غيرَ أنّ في إسناده نظرًا».

(69) اخْتُلِفَ في معنى قوله تعالى: ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ على قولين: أحدهما: أنّ معنى الدخول في هذا الموضع: الجماع.

والآخر: أنّ معنى الدخول في هذا الموضع: التجريد، وجميع أنواع التلذذ.

ورَجَّحَ ابنُ جرير (٥٥٩/٦-٥٦٠) القولَ الأولَ استنادًا إلى الدلالة العقلية، وإجماع الحجة، وقال: «لأنّ ذلك لا يخلو معناه من أحد أمرين: إما أن يكون على الظاهر المتعارَف من معاني الدخول في الناس، وهو الوصول إليها بالخلوة بها، أو يكون بمعنى الجماع.

وفي إجماع الجميع على أنّ خلوة الرجل بامرأته لا يحرِّم عليه ابنتَها إذا طلَّقها قبل مَسِيسها ومُباشرتها، أو قبل النَّظر إلى فرجها بالشهوة، ما يدلُّ على أنّ معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

وإذْ كان ذلك كذلك فمعلومٌ أنّ الصحيح من التأويل في ذلك ما قلناه».

وهو ظاهر كلام ابن كثير (٤١٤/٣).

عن أمِّ حبيبةَ رملةَ بنتِ أبي سُفيانَ رضِي اللهُ عنهما، قالت: ((دخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ – ﷺ –، فقلتُ لهُ: هل لك في أُختي بنتِ أبي سفيانَ؟ فقال: أفعلُ ماذا؟ قلتُ: تنكِحُها، قال: أَوَ تُحِبِّينَ ذلك؟ قلتُ: لستُ لك بِمُخْلِيةٍ، وأَحَبُّ مَن شَرِكَني في الخيرِ أختي، قال: فإنَّها لا تحلُّ لي! قلتُ: فإنِّي أُخْبِرْتُ أنَّك تخطبُ دُرَّةَ بنتَ أبي سلمةَ، قال: بنتَ أمِّ سلمةَ؟ قلتُ: نعمْ، قال: لو أنَّها لم تكُنْ رَبيبتي في حِجري، ما حلَّتْ لي؛ إنَّها ابنةُ أخي مِن الرَّضاعةِ، أَرضعَتْني وأباها ثُويبةُ، فلا تَعْرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ)).[70]

فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

أي: فإنْ لم تكونوا دخلتُم بزوجاتِكم، فلم تُجامِعوهنَّ حتى طلَّقتموهنَّ، فلا حرجَ عليكم في نِكاح بناتِهنَّ.

وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نِكاحَ زوجات أبنائِكم، سواءٌ دخلوا بهنَّ أو لم يَدخُلوا، والمرادُ بأبنائكم: الذين ولدتموهم، دونَ أبنائِكم من جِهة الرَّضاعة، ودونَ الأدعياءِ الذين تبنَّيتموهم في الجاهليَّة.

---

(70) رواه البخاري (5101، 5372)، ومسلم (1449) واللفظ له.

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

أي: وحرَّم عليكم أيضًا الجمْعَ بين الأختين بنكاحٍ، إلَّا ما وقَعَ منكم في جاهليَّتكم أو قبل تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليكم فيه.

وفي حديث أمّ حَبيبةَ رضِي اللهُ عنهما، عندما عرضت على النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم الزواجَ من أختِها، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فإنَّها لا تحلُّ لي!)) ثم قال: ((فلا تَعْرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ)).[71]

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ، يَستُرُ ذنوبَ عِبادِه ويَتجاوزُ عنها، ومِن ذلك: عدمُ مؤاخذةِ مَن وقَع منهم في السَّابقِ في الزواجِ بِمَن حرَّمهنَّ الله تعالى عليه، وهو الرحيمُ بهم، ومن رحمتِه مغفرتُه لذنوبِهم.

(71) أخرجه البخاري (5106)، ومسلم (1449) واللفظ له من حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما.

سُورةُ النِّساءِ

الآيتان (24-25)

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24)

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)

غريبُ الكَلِمات:

وَالْمُحْصَنَاتُ: هنَّ ذواتُ الأزواجِ، والمحصَنات أيضًا: الحرائرُ، وإن لم يكُنَّ مزوَّجاتٍ، والعفائف، وأصلُ حصن: الحِفظ، والحِياطة، والحِرز.

غَيْرَ مُسَافِحِينَ: أي: غيرَ زُناة، أو غيرَ مجاهرين بالزِّنا، والسِّفاحُ: الزِّنا، وأصلُه مِن سَفَحْتُ القِربةَ: إذا صببْتَها؛ فسُمِّي الزِّنا سِفاحًا؛ لأنَّ الرَّجل يصُبُّ النُّطفةَ وتصُبُّ المرأةُ النُّطفة، والمسافِحُ: الَّذي يصبُّ ماءَه حيث اتَّفق، وأصْل سفَح: يدلُّ على إراقةِ شيء.

أُجُورَهُنَّ: أي: مُهورَهنَّ.

طَوْلًا: أي: فضلًا وسَعةً، وأصل طول يدلُّ على فضلٍ وامتدادٍ في الشَّيء.

أَخْدَانٍ: أي: زوانٍ سرًّا، أو أصدقاء، أو أخلَّاء في السِّرِّ، جمْعُ خِدن، أي: مصاحب، وأكثرُ استعمالِه فيمَن يُصاحبُ بشهوة؛ يُقال: خِدْن المرأة وخَدِينها، ويُطلق كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأصل (خدن): المصاحَبة.

الْعَنَتَ: الفجور؛ يُقال: عَنَتَ فلان يَعْنَتُ عَنَتًا: إذا وقَع في أمرٍ يَخاف منه التَّلفَ، ويُطلَق العَنَت على: الضَّرَر والفساد، وأصْل (عنت): يَدُلُّ على مَشَقَّةٍ وما أَشْبَه ذلك.

تفسير الآيتين:

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24)

سَببُ النُّزول:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ يومَ حُنَينٍ بعَثَ جيشًا إلى أوطاس، فلَقُوا عدوًّا، فقاتَلوهم، فظهَروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناسًا من أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ تحرَّجوا من غِشيانِهنَّ من أجلِ أزواجِهنَّ من المشركينَ، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، أي: فهنَّ لكم حلالٌ إذا انقضَتْ عدَّتُهنَّ)).[72]

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ

أي: وحُرِّمَ عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نكاحُ ذواتِ الأزواجِ، أي: ما دُمْنَ في ذمَّةِ أزواجِهنَّ.

(72) رواه مسلم (1456).

إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

أي: ما عدا مَن ملَكتموهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّارِ، فإذا سبَيْتم الكافرةَ ذاتَ الزَّوج، حلَّ لكم وَطْؤُها، لكن بعد أنْ تُستَبْرَأ، وعلى ألَّا تكونَ مِن النِّساء المحرَّماتِ السَّابقِ ذِكرُهنَّ.

كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

أي: هذا التَّحريمُ فَرضٌ قد فرَضه اللهُ تعالى عليكم، فالزَموه، ولا تَخرُجوا عن حدودِه.

وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ

أي: أباح اللهُ تعالى لكم- أيُّها الرِّجال- نكاحَ ما عدا مَن حرَّمهنَّ عليكم من النِّساء، سواءٌ كان بعقدٍ أو مِلكِ يمينٍ.

أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ

أي: حلالٌ عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تطلُبوا بأموالِكم نكاحَ مَن سِوى المحرَّماتِ من النِّساء- إمَّا نكاحًا بصداقٍ معلومٍ، أو تسرِّيًا بشراءِ السَّراريِّ- والحال أنَّكم تريدون إعفافَ أنفسِكم وزوجاتِكم عن الحرامِ، غيرَ قاصدينَ الوقوعَ في الزِّنا.

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً

أي: فمَن نكحتموهنَّ نكاحًا شرعيًّا دائمًا فاستمتعتم بجِماعهنَّ، فآتوهنَّ مهورهنَّ في مقابلِ تلك المتعةِ، وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى عليكم.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ

أي: ولا حرَجَ عليكم- أيُّها الأزواجُ والزَّوجاتُ- فيما تراضَيْتم به، من زيادةٍ على المهر أو نقصٍ، أو إعفاءٍ منه، أو تأخيرٍ له، من بعدِ فرضِ الصَّداقِ.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك علمُه بما يُصلِحُكم- أيُّها النَّاس- في مَناكحِكم، وهو سبحانه الَّذي يضعُ كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائقِ به بلا خلَلٍ ولا زلَلٍ، ومِن ذلك: هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها ممَّا يتعلَّقُ بأمورِ النِّكاح.

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ

أي: ومَن لم يكُنْ لَدَيهِ منكم– معشرَ الرِّجال– سَعةٌ وقدرةٌ على تقديمِ مهرٍ كافٍ لنكاحِ الحرائرِ المؤمناتِ.

فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ

أي: فليتزوَّجْ مِن الإماءِ المؤمناتِ اللَّاتي يملِكُهنَّ سواهُ من المؤمنين.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بإيمانِ مَن آمَن منكم، فيعلَمُ ما إذا كان أولئك الإماءُ اللَّاتي تريدون نكاحَهنَّ مؤمناتٍ حقًّا أم لا، وأمَّا أنتم فليس لكم إلَّا الظَّاهرُ، فكِلُوا سرائرَهنَّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

أي: إنَّ الجميعَ متساوونَ في البشريَّةِ، وكلُّهم بنو آدمَ؛ فالحرائرُ والإماءُ من هذه الجهة سواءٌ، فلا تأنفوا من تزوُّجِ الإماءِ عند الضَّرورةِ.

فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ

أي: فتَزوَّجوهنَّ بسماحِ ورضَا أسيادِهنَّ.

وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

أي: وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ تعالى، دون أن تبخَسوهنَّ شيئًا مِن مهورِهنَّ، أو تُماطِلوا في دَفعِه إليهنَّ.

مُحْصَنَاتٍ

أي: فانكِحوهنَّ، والحالُ أنَّهنَّ عفيفاتٌ عن الزِّنا؛ فهذا شرطٌ من شروط نِكاحِهنَّ.

غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ

أي: غيرَ الزَّانياتِ علانيةً، اللَّاتي لا يمتنِعْنَ مِن أحَدٍ أرادهنَّ بالفاحشةِ.

وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

أي: ولا تنكِحوا أيضًا الزَّوانِيَ المتستِّرات، اللَّاتي يتَّخِذْنَ أخلَّاءَ وأصدقاءَ لاقترافِ الزِّنا معهم خفيةً.

فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ

أي: فإن أُحصِنَ الإماءُ بالزواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا.

القِرَاءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَّ [النساء:25] قراءتان:

1- قِراءة (أَحْصَنَّ)- بفَتحِ الألِفِ والصَّادِ على البِناءِ للفاعلِ- على مَعنى: أنَّ الإماءَ إذا أسلَمْنَ أَحصَنَّ فُروجَهنَّ بالإسلام، أي: أعْفَفْنَها، وقيل: أَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالتزويجِ، بإسنادِ الفِعْلِ إليهنَّ.(73)

2- قِراءة (أُحْصِنَّ) على صِيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه -والفاعِلُ هو الأزواجُ- على جَعْلِ الإماءِ مَفْعولاتٍ بإحْصانِ أزواجِهنَّ إيَّاهنَّ، وقيل: إنَّه بمعنى أسلَمْنَ فأَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالإسلامِ.(74)

---

(73) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 212).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 198)، ((الكشف)) لمكي (385/1).
(74) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 212).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 198)، ((معاني القراءات)) للأزهري (301/1).

فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ

أي: فعليهنَّ من الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ، اللَّاتي زَنَيْنَ قبل الإحصان بالزَّواجِ، فيكون على الإماءِ خمسونَ جَلدةً.

ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ

أي: ذلك الَّذي أباحَه اللهُ تعالى لكم- مَعشرَ الرِّجال- مِن نِكاحِ الإماءِ المؤمناتِ العفيفاتِ، إنَّما أباحه جلَّ وعلا لِمَن شقَّ عليه منكم الصَّبرُ عن الجِماعِ، فخاف الوقوعَ في الزِّنا.

وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ

أي: وصبرُكم- أيُّها الرِّجالُ- عن نِكاحِ الإماء، إلى أن يتيسَّرَ لكم نكاحُ الحُرَّةِ، أفضلُ لكم.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ لِمن تزوَّج الإماءَ؛ إذ تجاوَز عن الإثمِ، فأباح نكاحَهنَّ بشروطِه رفعًا للحَرَجِ، وهو الرَّحيمُ، الَّذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ومن ذلك تشريعُه لنكاحِ الإماءِ، فلم يُضيِّقْ على عبادِه، بل وسَّع عليهم غايةَ السَّعةِ.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (26–28)

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27)

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)

غريبُ الكَلِمات:

سُنَنَ: أي: طَرائِقَ ومَناهِجَ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّرِيقةُ المسلوكةُ، والمنهاج المُتَّبع.

تَمِيلُوا مَيْلًا: أي: تَجورُوا جَورًا وتَنحرِفوا انحرافًا، والمَيل: العدولُ عن الوسَط إلى أحدِ الجانبَيْن، وأصلُه: الانحرافُ في الشَّيء إلى جانبٍ منه.

تفسير الآيات:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(26)

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ

أي: يُريد اللهُ تعالى أن يبيِّنَ لكم ما أحَلَّ لكم، وما حرَّم عليكم، ممَّا تقدَّم ذِكرُه في هذه السُّورة وغيرِها.

وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

أي: ويريدُ الله تعالى أن يُرشدَكم إلى سُبل مَن قَبلكم مِن الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين وأتباعِهم، ويوفِّقَكم لتسلكوا طرائقَهم الحميدةَ، وتتَّبِعوا شرائعَه الَّتي يُحبُّها ويرضاها سبحانه.

وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ

أي: ويريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه ويقبلَها منكم.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصْلِح عبادَه في دِينهم ودنياهم، ومن ذلك هذه الأحكامُ والحدودُ الَّتي علَّمهم إيَّاها.

وهو ذو الحِكمة، الَّذي مِن حكمتِه هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها لعباده، ومن حكمته أنَّه يتوب على مَن اقتضَتْ حكمتُه ورحمتُه التَّوبةَ عليه، ويخذُلُ مَن اقتضَتْ حكمتُه وعدلُه مَن لا يصلُحُ للتَّوبة.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27)

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يريد أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه ويقبَلَها منكم.

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا[75]

أي: ويريد الَّذين يطلُبون لذَّاتِ الدُّنيا وشهواتِ أنفسِهم فيها، مِن أهل الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، أن تَميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وممَّا أحلَّ اللهُ تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكونوا أمثالَهم.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ

أي: يريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ييسِّرَ عليكم في أوامرِه ونواهيه، ومن ذلك إباحتُه نكاحَ الإماءِ بشروط.

---

(75) اختُلِفَ في المراد بقوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الشهوات﴾ على أربعة أقوال: أولها: أنهم الزناة.
وثانيها: أنهم اليهود والنصارى.
وثالثها: أنهم اليهود خاصَّة.
ورابعها: أنهم كل متبع شهوة في دينه لغير الذي أُبيحَ له.

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا

أي: خفَّف اللهُ تعالى عنكم؛ لعِلْمِه بضَعف الإنسانِ في نفسِه، وبَدَنه، وضَعْف عَزمه، وهمَّته، وصَبْره.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (29-31)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (31)

غريبُ الكَلِمات:

نُصْلِيهِ نَارًا: نُدخِله فيها، ونَشويه بها؛ يقال: صَلَى النارَ، أي: دخَل فيها، وأصلُ (الصَّلَى): الإيقادُ بالنَّار.

نُكَفِّرْ: أي: نَغْفِر، ونَمحُ، ونستُر، وأصْل الكَفْر في اللُّغة: سَتْر الشَّيءِ وتَغطيتُه.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، من وسائلِ الكَسْبِ المحرَّمةِ؛ كالرِّبا والقِمارِ، وغيرِ ذلك من الأمور الَّتي نهاكم اللهُ عزَّ وجلَّ عنها.

إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ

أي: لكنْ إن كان هذا المالُ الَّذي يأخذُه بعضُكم من بعضٍ، إنَّما يؤخَذُ بسببِ تجارةٍ صادرةٍ عن رضًا بين المتبايِعَيْنِ منكم، فذلك حلالٌ لكم.

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

أي: لا يقتُلْ أحدُكم نفسَه الَّتي بين جنبيه، ولا يُلقِ بنفسه إلى التَّهلُكة، بفعلِ ما يُفضي إلى التَّلَف، ولا يقتُلْ أيضًا أخاه في الدِّين، (فمن قتَل غيرَه من إخوانِه في الدِّين، فكأنَّما قتَل نفسَه؛ لأنَّهم أهلُ دِينٍ واحدٍ).

فعن ثابت بن الضَّحَّاكِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((... ومَن قَتلَ نفسَهُ بشيءٍ في الدُّنيا، عُذِّبَ بِه يومَ القيامةِ)).[76]

وعن أبي هريرة رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ قتَلَ نفسَهُ بحديدَةٍ، فحديدتُهُ في يدِهِ يتوَجَّأُ بها في بطنِهِ في نارِ جهنَّمَ خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومَنْ شرِبَ سَمًّا فقتَلَ نَفْسَهُ، فهو يتحسَّاهُ في نارِ جهنَّمَ خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جبَلٍ فقتَلَ نفسَهُ، فهو يتردَّى في نارِ جهنَّمَ خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا)).[77]

وعن جُندُبِ بنِ عبد الله رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرحٌ، فجَزِع، فأخَذ سِكِّينًا فحزَّ بها يدَه، فما رقأ الدَّمُ حتَّى مات، قال اللهُ تعالى: بادَرني عبدي بنفسِه، حرَّمتُ عليه الجنَّةَ)).[78]

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو رحمةٍ بكم أيُّها العبادُ، ومن رحمتِه سبحانه بِكُم: أنْ نهاكم عن قتلِ نفوسِكم، وعن إتيانِ ما فيه هلاكُها، ومن رحمتِه أيضًا: أنْ حرَّم دماءَ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظَرَ أَخْذَ

---

(76) رواه البخاري (6047) واللفظ له، ومسلم (110).

(77) رواه مسلم (109).

(78) رواه البخاري (3463) واللفظ له، ومسلم (113).

أموالِ بعضِكم من بعضٍ بالباطل، إلَّا عن تجارةٍ برضًا وطِيبِ نفسٍ، ولولا ذلك لهلَكْتم، ولأهلَك بعضُكم بعضًا، قتلًا وسلبًا وغصبًا.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا

أي: إنَّ مَن يأكُل أموالَ النَّاس بالباطل، ويقتُل النُّفوسَ الَّتي حرَّم اللهُ تعالى قتلها بغير حقٍّ، متجاوزًا بذلك حدودَ الله تعالى إلى ما حرَّمه، ومتجاسرًا على انتهاكِ ذلك، عن قصدٍ وعلمٍ بتحريمِه، لا عن جهلٍ أو نسيانٍ.

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا

أي: فسوف ندخِلُه نارًا عظيمةً تُحرِقه.

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا

أي: إنَّ إدخالَه النَّارَ وإحراقَه بها، أمرٌ سهلٌ على الله تعالى، لا يمتنعُ عليه.

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (31)

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

أي: إذا ابتعدْتُم عن كبائرِ السَّيِّئاتِ الَّتي نُهيتم عنها.

نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يتجاوَزُ لكم عن صغائرِها.

وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا

أي: ونُدخِلْكم الجنَّةَ.

سُورةُ النِّساءِ

الآيتان (32–33)

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32)
وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)

غريبُ الكَلِمات:

مَوَالِيَ: أولياء، وهم الورَثة، أو العَصَبة، ويُطلَق المولى على ابنِ العَمِّ والحليف وغير ذلك، وأصل وَلِي: قَرُب.

عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ: الأيمانُ: جمعُ يمين، وهو الحَلِف، وعقدُ اليمين: توثيقُها باللَّفظ مع العزمِ عليها، وأصل عقد: يدلُّ على شدٍّ، وشدَّةِ وُثوقٍ.

تفسير الآيات:

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32)

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((أتت امرأةٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، للذَّكَرِ مِثلُ حظِّ الأُنثيَيْنِ، وشَهادةُ امرأتينِ برجُلٍ، أفنحن في العملِ هكذا؟ إن عمِلَتِ المرأةُ حسنةً كُتِبَت لها نصفَ حسنةٍ! فأنزَل اللهُ: وَلَا تَتَمَنَّوْا... الآية)).[79]

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

أي: لا تطمَعوا في أمرٍ قد فضَّل اللهُ تعالى به بعضَكم على بعضٍ؛ كالجهادِ والعِلم، والمال، والولد، وغيرِ ذلك من أمور الدِّين أو الدُّنيا.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ

أي: كلٌّ له جزاءٌ على عمله بحسَبِه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

---

(79) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5223)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (115).
وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/495).

وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ

أي: ولكنِ اسألوا الله تعالى من فضله ليُعطيَكم؛ فإنَّه الكريمُ الوهَّاب جلَّ جلالُه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيء، ومن ذلك علمُهُ بمن يستحقُّ أن يعطيَه من فضلِه، وبمن يستحقُّ الحِرمان؛ وذلك كقَصرِه القتالَ في سبيله على الرجال؛ لعِلمِه بأنَّهم أقدَرُ عليه وأصلَحُ له.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

أي: قد جعَل اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منكم أيُّها النَّاسُ عَصَبةً، كإخوته وبني عمِّه، يرِثونه ممَّا ورِثه هو مِن أبيه وأمِّه، وسائرِ قَرابتِه.

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ

النَّاسخ والمَنسوخ:

قيل: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ [الأنفال: 75]، وهذا قولُ جمهورِ العلماء، وقيل: هي مُحكَمةٌ.

قيل: المعنى: وأمَّا الَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلفٍ معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ.

وقيل المراد: أعطوهم نصيبَهم من النُّصرةِ والمناصَحةِ، ونحوِ ذلك.

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ قال: وَرَثَةً، وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ: كان المُهاجِرونَ لَمَّا قَدِموا المدينةَ يَرِثُ المُهاجِرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحِمِه، للأخوَّةِ الَّتي آخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم، فلمَّا نَزَلَتْ: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ نُسِخَتْ، ثمَّ قال: وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ: من النَّصرِ والرِّفادَةِ والنَّصيحةِ، وقد ذهَب المِيراثُ، ويوصِي له)).[80]

وعن جُبَير بن مُطعِمٍ رضِي اللهُ عنه أنَّه قال: ((لا حِلفَ فِي الإسلامِ، وأيُّما حِلفٍ كانَ فِي الجاهليَّةِ، لم يزِدْه الإسلامُ إلَّا شِدَّةً)).[81]

---

(80) رواه البخاري (4580).
(81) رواه مسلم (2530).

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رقيبٌ، شاهدٌ لا يغيب عنه شيءٌ، ومطَّلعٌ على كلِّ شيء؛ وذلك بعِلمِه لجميعِ الأمور، وبصَرِه لحركاتِ عبادِه، وسمعِه لجميع أصواتِهم، ومن ذلك: اطِّلاعُه عليكم- أيُّها المؤمنون- في مسألةِ إيتاء الموالي بالحِلفِ نصيبَهم، فيعلَم هل تؤتونهم ذلك أم لا؛ ولذا فاحذَروا من مخالفةِ أمرِه جلَّ وعلا.

سُورةُ النِّساءِ

الآيتين (34–35)

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)

غريبُ الكَلِمات:

قَوَّامُونَ: جمْع قوَّام، وهو مِن القِيامِ على الشَّيءِ، أي: مُراعاته وحِفْظه وحِياطته بالاجتهادِ والقِيامِ بمصالحِه، والرَّجُل قيِّم على المرأةِ، أي: هو رئيسُها وكبيرُها والحاكِمُ عليها، ومؤدِّبها إذا اعوجَّتْ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ أو عَزْمٍ.

قَانِتَاتٌ: خاضِعاتٌ، مُداوِماتٌ على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة ولزومُها مع الخُضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا.

حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ: أي: لا يفعَلْنَ في غَيبة الزَّوجِ ما يَكرَهُه الزَّوج، أو يحفَظْنَ عهدَ الأزواج عند غَيبتِهن، وأصل (حفظ): مراعاةُ الشَّيء.

نُشُوزَهُنَّ: أي: مَعصيَتَهنَّ وتعاليَهنَّ عمَّا أوجَب اللهُ عليهنَّ من طاعةِ الأزواج، وبُغْضَهنَّ لهم؛ فنُشُوزُ المرأة: بُغْضُها لزَوْجها ورفْعُ نفْسِها عن طاعتِه، ورفْعُ عَيْنِها عنه إلى غيرِه؛ يُقال: نَشَزَت المرأةُ على زوْجِها: إذا ترَكَتْه ولم تَطمئنَّ عِندَه. وأصل النُّشوز: الارتفاع، والنَّشز: المرتفِعُ من الأرْض، ومِنه قيل للمَرأةِ المرتفعةِ على زَوْجِها، التاركةِ لأمْرِه، المُعْرِضةِ عنه، المبغِضة له: ناشِز.

وَاهْجُرُوهُنَّ: أي: لا تقرَبوهنَّ، والهَجرُ والهِجرانُ: مفارقةُ الإنسانِ غيرَه، وأصل (هجر): يدلُّ على قطيعةٍ وقَطْع.

فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا: أي: فلا تَطلُبوا طريقًا إلى أذاهُنَّ؛ مِن بغيتُ الضالَّةَ: إذا التمستَها، والبَغيُ يُطلَقُ على: طَلبِ الشَّيء، والظُّلم، والتَّرفُّع والعلوِّ، ومُجاوَزةِ المقدار.

شِقَاقَ: أي: تباعُد، أو خلاف، أو فِراق، والشِّقاق: المخالَفة، وأصل (شقق): انصداعٌ في الشَّيء.

حَكَمًا: أي: ثِقةً يُولَّى أمْرَ الحُكمِ بينهما ويُوكَّلُ بالنَّظرِ في أمْرِهما، والحَكَمُ: هو المتخصِّصُ بالحُكم. والحُكْم بالشَّيء: القضاءُ بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيركَ أو لم تُلْزِمْه، وأصل (حكَم): المنْع، وأوَّل ذلك الحَكْم، وهو المنعُ من الظُّلم. والإحكامُ هو الفصلُ والتمييز، والفرقُ والتحديدُ الذي به يتحقَّق الشيءُ ويَحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخَل فيه معنى المنْعِ كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمةً؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل.

تفسير الآيتين:

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

أي: الرِّجالُ هم القائمون على نسائهم؛ فهم رؤساؤُهنَّ والحاكمون عليهنَّ، بإلزامهنَّ بحقوقِ الله تعالى وأداء فرائضه، وتأديبِهنَّ، وكفِّهنَّ عن الشُّرور والمفاسد.

ثمَّ ذكر اللهُ تعالى السَّببَ الموجِبَ لقيام الرِّجال على النِّساء، فقال:

بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

أي: بسببِ تفضيلِ الرِّجال على النِّساء؛ فقد جعَل اللهُ تعالى للرِّجال خصائصَ تفُوقُ ما لدَى النِّساء؛ كقوة البَدنِ، والعقل، وغيرهما.

وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ

أي: ومن أسباب جَعلِ القِوامةِ للرِّجال على النِّساء، إنفاقُ الرِّجال أموالَهم على نسائِهم، ومِن ذلك: إعطاؤُهنَّ مهورَهنَّ.

فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ

أي: إنَّ النِّساءَ المستقيماتِ الدِّينِ، مطيعاتٌ لله تعالى، ولأزواجِهنَّ.

حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ

أي: ومن صِفاتهنَّ أيضًا: أنهنَّ حافظاتٌ لأنفسِهنَّ عند غَيبة أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالهم، وغير ذلك، وذلك بحفظِ الله تعالى لهنَّ وتوفيقِه لهنَّ، لا من أنفسِهنَّ؛ فإنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوء.

وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ

أي: إنَّ الزَّوجاتِ اللَّاتي تتخوَّفون– يا مَعشرَ الأزواج– من استعلائِهنَّ عليكم، بمخالفتِهنَّ لأوامركم، وتركِهنَّ طاعتَكم؛ بُغضًا منهنَّ لكم، وإعراضًا عنكم، فإذا تخوَّفتم من حدوثِ ذلك لظهور أماراته.

فَعِظُوهُنَّ

أي: فذكِّروهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ، وخوِّفوهنَّ وعيدَه وعقابَه على معصيةِ أزواجِهنَّ، ورغِّبوهنَّ في طاعتهم؛ بذِكرِ ما لهنَّ في ذلك من ثوابٍ عند اللهِ تعالى.

وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ[82]

أي: فإنْ لم يُجْدِ الوعظُ معهنَّ، فلْتبتعدوا– أيُّها الأزواجُ– عن مكانِ اضطجاعِهِنَّ، ولا تُجامِعوهنَّ.

وَاضْرِبُوهُنَّ

أي: فإنْ لم يُجْدِ معهنَّ الهِجرانُ في المضاجعِ، فاضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ؛ لتأديبِهِنَّ.

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا

أي: فإنْ حصَل المقصودُ بواحدٍ من هذه الأمور، وأطَعْنَكم، فقد حصَل لكم ما تحبُّون؛ فاترُكوا معاتبتَهنَّ على الأمور الماضية، والتَّنقيبَ عن العيوب الَّتي يضرُّ ذِكرُها، فلا سبيلَ لكم عليهنَّ بعد ذلك، وليس لكم ضربُهنَّ.

---

(82) اختُلِفَ في تأويل قوله تعالى: ﴿واهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ﴾ على أربعة أقوال: أحدها: ألا يجامعها.
والثاني: ألّا يكلمها، ويوليها ظهره في المضجع.
والثالث: أن يهجر فراشها، ومضاجعتها.
والرابع: وقولوا لهن في المضاجع هُجْرًا، وهو الإغلاظ في القول.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو العُلوِّ المطلَقِ بذاته وصِفاتِه سبحانه، فلا تتعالَوْا على نسائِكم– أيُّها الأزواج– ؛ فإنَّ علوَّكم هذا يوجَدُ فوقه ما هو أعلى منه، وهو علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ بذاتِه وصفاتِه، وهو الكبيرُ بذاته وصفاتِه سبحانه، فلا أكبرَ منه ولا أجلَّ ولا أعظمَ، فلا تتكبَّروا عليهنَّ؛ لأنَّ فوقكم مَن هو أكبرُ، وهو الله جلَّ وعلا.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا

أي: وإن خِفتم– أيُّها الحكَّامُ– أنْ يَصلَ النُّفورُ والخلافُ الواقع بين الزَّوجينِ إلى حدِّ التَّباعُدِ عن بعضِهما، ووقوعِ العداوة بينهما.

فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا

أي: فلتُرْسلوا– أيُّها الحكَّامُ– إلى الزوجينِ حَكَمينِ؛ رجلًا من أقارب الزَّوجِ، وآخَرَ من أقارب الزَّوجة.

إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا

أي: إن قصَد الحَكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين، يوفِّقِ اللهُ تعالى بين الحكَمينِ، بأن يصادفا الحقَّ، فتلتقيَ أقوالهما دون حدوثِ نزاعٍ بينهما، ويوفِّق اللهُ تعالى أيضًا بين الزَّوجين، فييسِّر رجوعَهما إلى المعاشَرة الحسَنة بينهما.(83)

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بجميعِ الظَّواهرِ والبواطن، ومن ذلك: عِلمُه بنيَّةِ الحكَمَينِ، هل يقصدانِ الإصلاح أو لا، ومن ذلك أيضًا: شَرْعُهُ لهذه الأحكامِ العظيمة، والشَّرائع المُحْكَمة.

---

(83) اختُلِفَ في عود الضمير في قوله: ﴿إن يريدا إصلاحا﴾، وفي قوله: ﴿بينهما﴾ على ثلاثة أقوال: أولها: أنّ الضمير فيهما يعود على الحكمين.

والثاني: أنّ الضمير فيهما يعود على الزوجين.

والثالث: أنّ الضمير يعود في الأول على الحكمين، وفي الثاني على الزوجين.

وذَهَبَ ابنُ جرير (٦/٧٢٩) استنادًا إلى أقوال السلف إلى القول الأول.

وذَهَبَ ابنُ عطية (٢/٥٤٥)، وابنُ تيمية (٢/٢٤١) استنادًا إلى الأظهر في الآية إلى القول الثالث.

وهو ظاهر كلام ابن القيم (١/٢٧٥).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (36–42)

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37)

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا **(39)**

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا **(40)**

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا **(41)**

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا

(42)

غريبُ الكَلِمات:

وَالْجَارِ الْجُنُبِ: أي: الَّذي ليس بينه وبين جارِه قَرابة، أو مَن يقرُبُ مسكنُه مِن الجارِ، أو الغريبُ، وأصْل الجوار: الميل؛ وسُمِّي الجار جارًا لميلِه إلى جاره، والجنابة: البُعد؛ يُقال: رجلٌ جُنُب، أي: غريبٌ.

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ: أي: الصَّاحِبِ إلى الجَنْبِ القَريبِ مِنْه، ويَدخُل فيه الرَّفيقُ في السَّفرِ وغَيرِه، والمرأةُ، والملازِمُ للمَرءِ رجاءَ نفْعِه؛ لأنَّ كلَّهم بجَنبِ الذي هو مَعَه وقريبٌ منه، وأصْل (صحب): يدلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ ومُقاربتِه.

وَابْنِ السَّبِيلِ: المنقطِع الضَّعيف ببلدٍ يُريد بلدًا آخرَ، أو المسافِر البعيد عن منزِله، ويُطلَق كذلك على الضَّيف، ونُسِب إلى السَّبيل؛ لممارستِه إيَّاه، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولة.

مُخْتَالًا: ذا خيلاءَ، أو مُتكبِّرًا يأنفُ ويَستنكِفُ عن قَراباتِه وجِيرانه وأصحابِه لفقرِهم، والمختالُ البَطِرُ في مِشيتِه، وهو اسمُ فاعلٍ، مِن (اختال)، وألِفُه منقلبةٌ عن ياء؛ لقولهم: الخُيَلاء والمخيلة.

فَخُورًا: الَّذي يُعدِّد مناقبَه كِبْرًا وتطاولًا، والفَخرُ: المباهاةُ في الأشياءِ الخارجة عن الإنسانِ؛ كالمالِ والجاهِ، وأصل فخر يدل على عِظَم وقِدَم.

وَأَعْتَدْنَا: من العَتَادِ، وقيل: أصله: أَعدَدْنا، فأبدلَ من إحدى الدَّالين تاء، والعتاد: ادِّخارُ الشَّيءِ قبل الحاجة إليه؛ كالإعداد، والعَتيد: الشَّيء المُعدُّ، وأصل (عتد): يدلُّ على حُضور وقُرب، ويدلُّ على تَهيئة الشَّيء.

رِئَاءَ النَّاسِ: أي: مراءاةً، وأصل الرِّياء: فِعلُ شيءٍ ليراه النَّاس.

قَرِينًا: أي: الشَّيطان المقرون بالإنسان لا يُفارقُه، أو مقارنًا لاصقًا، مِن: قرنت الشَّيء بالشَّيء، ويُطلق القرين كذلك على: المصاحِب، وأصل (قرن): جمعُ شيءٍ إلى شيء.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرة؛ يُقال: هذا على مثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا. وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة، والذَّرَّة جمْعها: ذَرٌّ، وهي أصغرُ النَّملِ، وتُطلَق كذلك على ما لا وزنَ له، وما يَرفَعُه الرِّيح من التُّرابِ، وأجزاء الهواء في الكوَّةِ.

لَدُنْهُ: أي: عِنده، أو لديه، لكن (لَدُن) أخصُّ من (عند).

بِشَهِيدٍ: أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَر، وأصل شهد: حضور، وعِلم، وإعلام.

لو تُسَوَّى بِهِمُ: أي لو يُدخَلون فيها حتى تعلُوَهم، أو يكونون ترابًا، فيستوون معها حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا، أو يَهلِكون فيها، وأصل (سوي): استقامةٌ واعتدالٌ بين شيئين.

تفسير الآيات:

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

أي: تذلَّلوا لله تعالى، واخضَعوا له بطاعتِه سبحانه، وأَخلِصوا العبادةَ له وحْدَه، دون أنْ تُساووا بينه وبين غيرِه فيما له من حقوقٍ على عباده.

قال رسولُ اللهِ – ﷺ – لمعاذٍ: ((أتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِباد؟ قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، ثمَّ قال: أَتدْري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فَعَلوا ذلك؟ ألَّا يُعذِّبَهم)).[84]

ولَمَّا أمَر اللهُ تعالى بعبادته، والقيام بحقِّه، أمَر بالقيام بحقوقِ العبادِ الأقربِ فالأقرب، فقال:

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

أي: أحسِنوا إلى الوالدَيْنِ، بالقولِ الكريمِ، والخطاب اللَّطيفِ، وطاعةِ أمرِهما، واجتنابِ نهيهما، وبغيرِ ذلك من أنواعِ البِرِّ.

---

(84) رواه البخاري (6267) ومسلم (30).

وَبِذِي الْقُرْبَى

أي: وأحسِنوا إلى أقارِبِكم.

وَالْيَتَامَى

أي: وأحسِنوا إلى اليتامى (وهم الَّذين فقَدوا آباءَهم ممن دون سنِّ البلوغِ).

وَالْمَسَاكِينِ

أي: وأحسِنوا كذلك إلى ذَوي الحاجاتِ، الَّذين لا يَجِدون ما يقومُ بكِفايتِهم.

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى

أي: وأحسِنوا إلى جارِكم الَّذي بينكم وبينه قَرابةٌ.[85]

وَالْجَارِ الْجُنُبِ

أي: وأحسِنوا كذلك إلى جارِكم الَّذي ليس بينكم وبينه قرابةٌ.

عن عبدِ الله بن عمرَ رضِي اللهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما زالَ جِبريلُ يوصيني بالجَارِ، حتَّى ظنَنتُ أنَّهُ سيورِّثُهُ)).[86]

---

(85) رواه البخاري (6015)، ومسلم (2625).

(86) اختُلِفَ في المراد بالجار الجنب على ثلاثة أقوال: الأول: أنّ المراد به البعيد الذي لا قرابة بينك وبينه.
الثاني: أن المراد به الكافر أو المشرك.

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ

أي: وأحسِنوا صُحبةَ مَن يصحَبُكم ويُرافِقُكم؛ كالرَّفيقِ في السَّفرِ، وكالزَّوجة.

وَابْنِ السَّبِيلِ

أي: وأحسِنوا إلى المسافرِ، الَّذي يمرُّ عليكم مجتازًا.

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

أي: وأحسِنوا إلى ما تملِكون مِن البشر (وهم الرَّقيق).

عن خَيْثَمَةَ قال: ((كنَّا جلوسًا مع عَبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، إذ جاءَه قَهْرَمانٌ له،(87) فدخَل. فقال: أعطيتَ الرَّقيقَ قُوتَهم؟ قال: لا. قال: فانطلِقْ فأعطِهم، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: كفَى بالمرءِ إثمًا أن يَحبِسَ عمَّن يملِكُ قُوتَه)).(88)

الثالث: أنّ المراد به الزوجة.

وقد رَجَّح ابنُ جرير (٧/١٠-١١بتصرف) مستندًا إلى دلالة العقل، واللغة القولَ الأول منها.

(87) القَهْرَمان–بفَتْحِ القافِ والرَّاءِ وسُكونِ الهاءِ بينهما–: لفظٌ فارسيٌّ معرَّبٌ، وهو الخَازنُ القائِمُ بِحَوائجِ الإنسانِ وأُمورِه، والوكيلُ، والحافِظُ لِمَا تحتَ يدِه، وقِيل: هو مِن أُمناءِ المَلِكِ وخَاصَّته.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (129/4)، ((شرح النووي على مسلم)) (82/7)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (322/33).

(88) رواه مسلم (996).

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((للمَملوكِ طعامُه وكسْوَتُه، ولا يُكَلَّفُ من العَملِ إلَّا ما يُطيقُ)).(89)

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((إذا أتَى أَحدَكم خادِمُه بطَعامِه، فإنْ لم يُجلِسْه معَه، فليُناوِلْه لُقمةً أو لُقمتينِ، أو أُكْلةً أو أُكْلتَينِ؛ فإنَّه ولِيَ علاجَه)).(90)

وعن أبي ذَرٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيديكم، فمَن كان أخوه تحتَ يدِه، فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، وليُلْبِسه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كلَّفتُموهم فأعينُوهم)).(91)

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان ذا خُيَلاءَ، معجَبًا بنفسِه متكبِّرًا على الخَلْق، فلا يقوم بما أوجَبه اللهُ تعالى عليه من حقوقٍ، فَخُور بقولِه، فيُثني على نفسِه، ويمدَحُها على وجهِ الفخرِ والبطَرِ على عباد اللهِ تعالى بما أعطاه من النِّعم.

(89) رواه مسلم (1662).
(90) رواه البخاري (2557).
(91) رواه البخاري (30).

عن عبد الله بن عمر رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((من جرَّ ثوبَه خُيَلاءَ، لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامةِ)).[92]

وعن عبد الله بن عمرَ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((بينما رَجُلٌ يَجُرُّ إزارَه من الخُيلاءِ خُسِفَ به، فهو يتجَلْجَلُ[93] في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ)).[94]

وعن عِياضٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((وإنَّ اللهَ أَوْحى إليَّ أنْ تواضَعوا؛ حتى لا يَفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبغيَ أحدٌ على أحدٍ)).[95]

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((أربعٌ في أمَّتي مِن أمرِ الجاهليَّةِ، لا يَتركونَهنَّ – وذكَر منها –: الفَخْر في الأحسابِ)).[96]

---

(92) رواه البخاري (3665) واللفظ له، ومسلم (2085).

(93) يَتجَلْجَل: أي: يَغُوصُ في الأَرضِ حِينَ يُخسَفُ به، أوْ يَتحَرَّكُ ويَنزِلُ مُضطَرِبًا.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (284/1)، ((شرح النووي على مسلم)) (64/14).

(94) رواه البخاري (3485).

(95) رواه مسلم (2865).

(96) رواه مسلم (934).

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37)

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ المختالَ الفخورَ الَّذي يُمسِك مالَه عن الإنفاق فيما أمَره الله تعالى به؛ كالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، والأقاربِ واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القربى، والجارِ الجُنُب، والصَّاحبِ بالجَنْبِ، وابنِ السَّبيل، وما ملَكتِ الأيمانُ، ولا يدفعون حقَّ الله فيها، ويأمُرون النَّاسَ بالبخلِ أيضًا بأقوالِهم وأفعالِهم، ومِن البُخلِ كذلك: البُخلُ بالعِلم.

عن جابرِ بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((قال لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قدْ جاء مالُ البحرينِ، لقدْ أعطيتُك هكذا وهكذا– ثلاثًا– فلم يَقدَمْ مالُ البحرينِ حتَّى قُبِض رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا قدِم على أبي بكرٍ، أمَر مناديًا فنادَى: مَن كان له عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَيْنٌ أو عِدَةٌ فليأتِني، قال جابرٌ: فجئتُ أبا بكرٍ فأخبرتُه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: لو جاءَ مالُ البحرينِ أعطيتُك هكذا وهكذا– ثلاثًا– قال: فأعطاني، قال جابرٌ: فلقيتُ أبا بكرٍ بعدَ ذلك فسألتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه الثَّالثةَ فلم يُعطِني، فقُلْتُ له: قد أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم تُعطِني، فإمَّا أن تُعطيَني وإمَّا أن تبخَلَ عنِّي، فقال: أقُلْتَ: تبخَلُ عني؟ وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البُخلِ؟! قالها ثلاثًا، ما منعتُك من مرَّةٍ إلَّا وأنا أُريد أنْ أعطيَك! وعن

عمرو، عن محمَّد بن علي: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: جئتُه، فقال لي أبو بكر: عُدَّها، فعدَدْتُها، فوجدتُها خَمسَ مئةٍ، فقال: خُذْ مِثلَها مرَّتينِ)). [97]

وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

أي: إنَّ البَخيلَ بالمالِ يُخفِي عن النَّاسِ ما لَدَيه من أموالٍ، فلا يُظهِر أثَرَ نِعمةِ الله تعالى عليه، ولا تَبِينُ في أكلِه ولا في ملبَسِه، ولا في غيرِهما؛ لأجل ألَّا يطلُبَ أحدٌ مالًا منهم، ولا يَلومهم أحدٌ إذا بَخِلوا، ويُخفي كذلك ما لَدَيه من عِلمٍ، فلا يُظهِرُه للنَّاس ليَسترشِدوا به، ومن ذلك: إخفاءُ اليهودِ لصفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وأمْرِ بَعثتِه.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّارَ الَّذين يبخَلون ويأمُرون النَّاسَ بالبُخل، ويكتمون ما آتاهم اللهُ تعالى من فضلِه، قد هيَّأ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم ولكلِّ كافرٍ عقابًا مُذلًّا مخزيًا، جزاءً على كفرِهم واستكبارِهم على أداء حقوقِ الله تعالى وحقوقِ عباده.

---

(97) رواه البخاري (4383).

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ

أي: ومِن صفاتِهم أيضًا: أنَّهم يبذُلون أموالَهم من أجلِ أن يراهم النَّاسُ فيُثنوا عليهم، ويمدحوهم بالكرمِ والعطاءِ، لا يُريدون بذلك وجهَ الله تعالى.

وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي: إنَّهم لا يُؤمِنون باللهِ تعالى فيتقرَّبوا إليه، ولا يؤمنون باليومِ الآخِرِ فيرجوا ثوابَه.

وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا

أي: إنَّما حمَلهم على صَنيعِهم القبيحِ هذا، وعدُولِهم عن فِعلِ الطَّاعة على وجهِها: الشَّيطانُ؛ فإنَّه سوَّل لهم وأمْلَى لهم، وقارنَهم فحسَّن لهم القبائحَ، فمن يكُنِ الشَّيطانُ له خليلًا وصاحبًا يعمَلُ بطاعتِه ويتَّبعُ أمرَه فبئس الصَّاحبُ هو؛ لأنَّه يريدُ إهلاكَ مَن قارنَه، ويَسعى فيه أشدَّ السَّعي؛ إذ يأمُرُه بالمنكَرِ، وينهاه عن المعروفِ.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ

أي: وأيُّ حرجٍ ومشقَّةٍ تلحَقُ هؤلاء لو سلَكوا الطَّريقَ الحميدةَ، بالإيمانِ باللهِ تعالى، والإخلاصِ له، والإيمان باليومِ الآخِرِ ورجاءِ ثوابه، وأنفَقوا ممَّا أعطاهم اللهُ تعالى فيما يحبُّه ويرضاه؟!

وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بنيَّاتهم وأحوالِهم وأعمالِهم، وهو حافظٌ لها، ومجازيهم عليها، وعليمٌ بمن يستحقُّ التَّوفيقَ منهم، فيوفِّقُه ويُلهمُه رُشدَه، ويُقيِّضه لعملٍ صالحٍ يرضى به عنه، وبمن يستحقُّ الخِذلانَ والطَّردَ عن جَنابِه الأعظمِ، وهو عليمٌ أيضًا بما هم عليه مِن كُفرٍ، وبما هم عليه لو آمَنوا باللهِ سبحانه وتعالى.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يبخَسُ أحَدًا مِن خَلْقِه حقَّه، ولو قدْرَ وزنِ ذرَّةٍ منه، فلا ينقصُ من حسناتِ عبدِه، ولا يَزيدُ في سيِّئاتِه.

وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا

أي: وإن توجَدْ حسنةٌ، فإنَّ اللهَ تعالى يضاعِفُها إلى عَشْرِ أمثالِها، إلى سَبعِمائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة.

قال اللهُ تعالى حكايةً عن لقمان: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ [لقمان: 16].

وقال اللهُ سبحانه: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء: 47].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 6- 8].

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخلُ النَّارَ أحدٌ في قلبِه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ من إيمانٍ)).(98)

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطيه مِن عندِه أيضًا ثوابًا عظيمًا لا يتصوَّرُه إنسانٌ (قيل: هو الجنَّة).

(98) رواه مسلم (91).

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41)

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

أي: فكيف تكون الحالُ يوم القيامة حين يأتي اللهُ تعالى مِن كلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ، وهم الأنبياءُ عليهم السَّلامُ، فيشهَدون على أُمَمِهم بأعمالِها، وتصديقِ رسلِها، أو تكذيبِهم، وتبليغِهم رسالةَ ربِّهم عزَّ وجلَّ؟.

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا

أي: وكيف تكون الحالُ أيضًا إذا شهِد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم على أمَّتِه بأنَّه بلَّغ رسالةَ ربِّه سبحانه؟

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له: ((اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أقرَأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ؟! قال: نعمْ، فقرأتُ سورةَ النِّساءِ، حتَّى أتيتُ إلى هذه الآية: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: 41]، قال: حسْبُكَ الآن، فالتفتُّ إليهِ فإذا عيناه تذْرِفان)).(99)

---

(99) رواه البخاري (5050).

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا

(42)

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

أي: حينها يتمنَّى مَن كفَر باللهِ تعالى وعصى رسولَه فلم يمتثِلْ أمرَه ولم يجتنِبْ نهيَه، أنْ لو تبتلِعُهم الأرضُ فيُدفَنونَ فيها ولا يَظْهَرون، ويكونون ترابًا منها، فلا يُحاسَبون.

وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا

أي: إنَّهم يَعترفون بما فعَلوه، ويُقرُّون بما عمِلوه، وتَشهَدُ عليهم جوارحُهم بما كانوا يعمَلون.

سُورةُ النِّساءِ

الآية (43)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)

غريبُ الكَلِمات:

جُنُبًا: أي: إنْ أصابتكم الجَنابةُ، وسُمِّيتِ الجَنابةُ بذلك؛ لكونها سببًا لتجنُّبِ الصَّلاة في حُكم الشَّرع، وأصل (جنب): البُعد.

عَابِرِي سَبِيلٍ: أي: مُجتازين في المساجدِ، أو مُجتازين غيرَ مُقِيمين ولا مُطمئِنّين، أو المسافرين، وأصل (عبر): تجاوزٌ من حالٍ إلى حال.

الْغَائِطِ: الحدَث، وأصلُ الغائطِ: المطمئِنُّ مِن الأرض، وكانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجة أتَوْا غائطًا من الأرضِ ففعَلوا ذلك فيه؛ فكُني عن الحدَثِ بالغائطِ، وأصل (غوط): اطمئنانٌ وغَوْر.

لَامَسْتُمُ: كِنَايَة عَن النِّكَاح والجِماع، وقيل: ملامسة من غير جماع، وأصْل (لمس): يدلُّ على تطلُّب شيءٍ ومسيسه أيضًا.

صَعِيدًا طَيِّبًا: أي ترابًا نظيفًا، والصَّعيدُ: الغبار الَّذي يصعَدُ، ويُطلَقُ أيضًا على وجهِ الأرض، وأصلُ الطَّيِّب: خلاف الخبيث.

تفسير الآية:

النَّاسخ والمَنسوخ:

المَنسوخ:

قول الله تعالى: لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى [النساء: 43].

النَّاسخ:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ [المائدة: 90].

الدَّليل:

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، قال: (لَمَّا نزَل تحريمُ الخَمرِ، قال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ [البقرة: 219] الآية، قال: فدُعِي عمرُ فقُرِئت عليه، قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في النِّساءِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى [النساء: 43]، فكان مُنادِي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أقيمت الصَّلاةُ ينادي: (ألَا لا يقرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكرانُ)، فدُعِي عُمرُ فقُرِئت عليه، فقال:

اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت هذه الآيةُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [المائدة: 91]، قال عُمرُ: انتهَيْنا). (100)

سَببُ النُّزول: (101)

عن عليّ بن أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((صنع لنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف رضِي اللهُ عنه طعامًا فدعانا وسقانا من الخمرِ، فأخذتِ الخمرُ منّا، وحضرتِ الصَّلاةُ فقدَّموني، فقرأتُ: (قل يا أيَّها الكافرون لا أعبُدُ ما تعبدون ونحن نعبُدُ ما تعبدون)، فأنزَل اللهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [النساء: 43])). (102)

---

(100) رواه أبو داود (3670)، والترمذي (3049)، والنسائي (5540)، وأحمد (378).
صحَّحه عليُّ بن المديني كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) (759/1)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا وهو أصحُّ.
وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (185/1)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (3670)، وقال الوادعيُّ في ((أحاديث مُعلَّة)) (317): سنده رجال الصَّحيح، ولكنَّه منقطع.

(101) علَّق ابنُ تيمية (٢/٢٥٣) على نزول الآية، فقال: «هذه الآيةُ نَزَلَتْ باتفاق العلماء قبل أن تُحَرَّم الخمر بالآية التي أنزلها الله في سورة المائدة.
وقد رُوي أنّه كان سبب نزولها: أنّ بعض الصحابة صلّى بأصحابه وقد شرِب الخمر قبل أن تُحَرَّم، فخلَّط في القراءة؛ فأنزل الله هذه الآية».

(102) رواه الترمذي (3026) واللفظ له، والبزار في ((البحر الزخار)) (598)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (5352) قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب.
وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (53/9): في إسنادِه عطاء بن السَّائب، لا يُعرَف إلَّا من حديثه، وقد قال يحيى بن معين: لا يُحتجُّ بحديثه، وفرَّق مرةً بين حديثه القديم وحديثه الحديث، ووافقه على التفرقة الإمام أحمدُ.
وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3026).

وفي لفظٍ آخرَ: عن عليّ بن أبي طالبٍ، رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ دعاه وعبدَ الرَّحمنِ بنَ عوف فسقاهما قبل أن تحرَّمَ الخمرُ، فأمَّهم عليٌّ في المغربِ فقرأ: قل يا أيُّها الكافرون، فخلَّط فيها، فنزلَتْ:لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [النساء: 43])).(103)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى(104) حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

أي: يا أيُّها المؤمنون لا تقرَبوا المساجدَ، ولا تصلُّوا وأنتم في حالِ سُكرٍ لا تدرون معه ما تقولون في الصَّلاة، إلى أن يحصُلَ لكم الصَّحوُ التَّامُّ.

وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا(105)

---

(103) رواه أبو داود (3671) واللفظ له، والترمذي (3026)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11041)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (1828).

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وقال الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (237/12): إن كان منقطعا في رواية الفريابي عن سفيان؛ فإن غيره من رواة سفيان قد رفعه، ووثَّق رجالَ إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (194/6)، وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (3026).

(104) اختُلِف في تفسير قوله: ﴿وأنتم سكارى﴾ على قولين: الأول: سكر الخمر.

والثاني: سكر النوم.

ورجّح ابنُ جرير (٧/٤٩ بتصرف) الأول مستندًا إلى أقوال الصحابة، وسبب النزول، وقال: «وذلك للأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله ﷺ بأنّ ذلك كذلك نهيٌ من الله، وأنّ هذه الآية نزلت فيمن ذكرت أنها نزلت فيه».

وانتقَدَ ابن عطية (٢/٥٦٠) قولَ الضحاك بأنه سكر النوم بقوله: «وهذا ضعيف».

وعلَّق عليه ابنُ تيمية (٢/٢٥٣) بقوله: «وهذا إذا قيل: إنّ الآية دلت عليه بطريق الاعتبار، أو شمول معنى اللفظ العام، وإلا فلا ريب أنّ سبب نزول الآية كان السكر من الخمر، واللفظ صريح في ذلك، والمعنى الآخر صحيح أيضًا».

(105) علَّق ابنُ كثير (٢/٤٢/٦٦) مُستَدِلًّا لإباحة مرور الحائض بالمسجد بما رُوي في صحيح مسلم أنّ النبي ﷺ قال لعائشة: «ناوليني الخمرة من المسجد».

أي: ولا تُصلُّوا أيضًا، ولا تقربوا المساجدَ، والحالُ أنّكم على جَنابةٍ، إلَّا لأجلِ الاجتيازِ عبْرَها فقط، دون مُكثٍ فيها، إلى أن تغتسِلوا.(106)

فقالت عائشة: إني حائض.

فقال لها النبي: «إن حيضتك ليست في يدك».

وقال ابنُ كثير: «ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها».

(106) اختلف السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ على قولين: الأول: أنّ هذا في شأن المسافر لا يجد الماء فيتيمم ويصلي.

والثاني: أنّ الآية عُني بها النهيُ عن قربان المسجد، إلا أن يَمُرَّ به مجتازًا إيّاه، ولا يمكث فيه.

وقد رجّح ابنُ جرير (٧/٥٨) القولَ الثاني، وانتَقَد الأولُ مستندًا إلى الدلالة العقلية.

- عن عطاء بن يسار، قال: رأيتُ رجالًا مِن أصحاب رسول الله ﷺ يجلِسون في المسجد وهم مُجنِبون، إذا تَوَضَّؤوا وضوء الصلاة.

علَّق ابنُ تيمية (٢/٢٥٥) مُسْتَدِلًّا بقول عطاء هذا، وبما روي عن زيد بن أسلم أنه قال: كان أصحاب النبي ﷺ يتحدثون في المسجد وهم على غير وضوء، وكان الرجل يكون جنبًا فيتوضأ ثم يدخل فيتحدث.

على جواز لُبْثِ الجُنُبِ في المسجد إذا توضأ، وعلَّل ذلك بقوله: «وهذا لأنّ الوضوء يرفع الحدثين عن أعضاء الوضوء، ويرفع حكم الحدث الأصغر عن سائر البدن، فيقارِبُ مَن عليه الحدث الأصغر فقط، ولهذا أمر الجُنُب إذا أراد النوم والأكل بالوضوء، ولولا ذلك لكان مُجَرَّد عبث، يُبَيِّن ذلك أنه قد جاء في نهي الجُنُب أن ينام قبل أن يتوضأ أن لا يموت فلا تشهد الملائكة جنازته.

فهذا يدل على أنه إذا توضأ شهدت جنازته، ودخلت المكان الذي هو فيه، ونهى الجُنُبَ عن المسجد؛ لئلا يؤذي الملائكة بالخروج، فإذا توضأ أمكن دخول الملائكة المسجد، فزال المحذور، وهذا العبور إنما يجوز إذا كان لحاجةٍ وغرضٍ وإن لم يكن ضروريًّا، فأمّا لمجرد العبث فلا».

وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى

أي: وإنْ كنتم ذوي مَرَضٍ، بحيث يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ.

أَوْ عَلَى سَفَرٍ

أي: إنْ كنتُم مُسافِرين.(107)

أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ

أي: إنْ أحدَثَ أحدُكم حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ.

أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ

قيل: المرادُ الجِماعُ، وقيل المراد: كلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها.

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

---

(107) ذكر ابنُ تيمية (٢/٢٥٤) قولَ مَن جعل الآيةَ في المسافر، ثُمَّ انتَقَدَه مستندًا إلى الدلالة العقلية قائلًا: «القول على ظاهره ضعيف؛ لأنّ المسافر قد ذكر في تمام الآية؛ فيكون تكريرًا، ولأنّ المسافر لا تجوز له صلاة مع الجنابة إلا في حال عدم الماء، وليس في قوله: ﴿إلا عابري سبيل﴾ معترض كذلك، ولأنّه كما تجوز الصلاة مع الجنابة للمسافر فكذلك للمريض، ولم يُسْتَثْنَ كما اسْتُثْنِي المسافر، فلو قصد ذلك لبين كما بين في آخر الآية المريض والمسافر إذا لم يجد الماء، ولأنّ في حمل الآية على ذلك لزوم التخصيص في قوله تعالى: ﴿عابري سبيل﴾، ويكون المخصوص أكثر من الباقي؛ فإن واجد الماء أكثر من عادمه، ولا قوله: ﴿ولا جنبا﴾ لاستثناء المريض أيضًا، وفيه تخصيص أحد السببين بالذكر مع استوائهما في الحكم، ولأنّ عبور السبيل على حقيقته: المرور والاجتياز، والمسافر قد يكون لابِثًا وماشِيًا، فلو أريد المسافر لقيل: إلا مِن سبيل، كما في الآيات التي عنى بها المسافرين».

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها زَوجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالت: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ أسفارِه حتَّى إذا كنَّا بالبَيداءِ، أو بذاتِ الجيشِ انقطَع عِقدٌ لي، فأقام رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على التماسِه، وأقام النَّاسُ معه، وليسوا على ماءٍ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِي اللهُ عنه، فقالوا: ألَا ترى ما صنَعَتْ عائشة؟! أقامَتْ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكرٍ ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم واضعٌ رأسَه على فَخِذي قدْ نام، فقال: حبَسْتِ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسَ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ! فقالت عائشةُ: فعاتَبني أبو بكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أن يقولَ، وجعَل يَطعُنُني بيدِه في خاصرتي، فلا يمنَعُني من التَّحرُّكِ إلَّا مكانُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على فخِذي، فقام رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حين أصبَح على غيرِ ماءٍ، فأنزَل اللهُ آيةَ التَّيمُّمِ، فتيمَّموا، فقال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ: ما هي بأوَّلِ بركتِكم يا آلَ أبي بكرٍ، قالت: فبعَثْنا البعيرَ الَّذي كنتُ عليه فأصَبْنا العِقدَ تحتَه)).(108)

---

(108) رواه البخاري (334) واللفظ له، ومسلم (367).

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها- كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصْدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ.

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ

أي: فامسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَعفو عن ذُنوبِ عِبادِه وتَقصيرِهم في طاعتِه، ويَستُرُ عليهم، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها سبحانه وتعالى، ومِن عَفوِه عنهم وغَفرِه لهم: أنْ شَرَعَ التَّيمُّمَ، وأباح لهم فِعلَ الصَّلاة به إذا فقَدوا الماءَ أو تعذَّر عليهم استعمالُه؛ توسعةً عليهم، ورُخصةً لهم.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (44–46)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45)

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)

غريبُ الكَلِمات:

وَلِيًّا: الوليُّ هو الذي يَلي أُمورَ أوليائِه بالحياطةِ لهم والحراسة، وأصْل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيث: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

غَيْرَ مُسْمَعٍ: أي: لا سمعتَ، أو مَدعوًّا عليك بصمَمٍ أو موت، أو غيرَ مُجابٍ إلى ما تدعو إليه أو كلامٍ ترْضاه.

لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ: تحريفًا بالكذب، واستهزاءً ومحاكاة؛ يقال: لَوَى لسانَه بكذا: كناية عن الكذب وتخرُّصِ الحديث، وأصلُه: إمالةٌ للشَّيء.

وَأَقْوَمَ: أي: أخلصَ، وأَسَدَّ، وأصل (قوم): مُراعاةُ الشيء وحِفظُه، وكذلك الانتصاب والعَزَم.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ

أي: أَلَمْ تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين أُعطوا حظًّا من التَّوراةِ من اليهود.[109]

يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ

أي: إنَّهم يختارون الضَّلالةَ عِوَضًا عن الهُدَى، بالإقامةِ على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وتركِهم الإيمان؛ ليَشتروا بذلك ثمنًا قليلًا من حُطام الدُّنيا الفاني.

وهذا باعتبارِ ما يَختارونه لأنفسِهم، ولكنَّ شرَّهم ليس قاصرًا؛ ولذلك قال:

وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ

أي: وهم يودُّون أيضًا- أيُّها المؤمنون- أنْ تَنحرِفوا معهم عن طَريقِ الإيمان، واتِّباعِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فتَكفروا كما كَفروا، وتَتركوا ما أنتُم عليه من الهُدى والعِلم النَّافعِ.

---

(109) قال ابنُ عطية (٢/٥٧٠): «والمراد بـ﴿الَّذِينَ﴾: اليهود.
ثم اللفظ يتناول معهم النصارى».

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بعَداوةِ أولئك منكم، وما هم مُنطَوون عليه من الغِشِّ والكيدِ والحسَدِ لكم.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا

أي: حَسْبُكم اللهُ تعالى؛ يتولَّاكم بالحفظِ والرِّعاية، ويُيسِّر لكم ما فيه الفلاحُ والسَّعادةُ.

وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى نصيرًا؛ يُدافِعُ عنكم، وينصُرُكم على أعدائِكم، ويُبيِّن لكم ما ينبغي أنْ تحذَروه منهم.

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

أي: إنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما جاء في التَّوراةِ؛ إمَّا بتغيير اللَّفظِ، أو المعنى، أو هما جميعًا.

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا[110]

أي: ويقولُ أولئك القومُ: سَمِعْنا– يا محمَّد– قولَك، وعصَيْنا أمرَك، فتولَّوْا عن كتابِ اللهِ تعالى بعدما عقَلوه، وهذا أبلغُ في كُفرِهم وعِنادِهم.

وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

أي: ويقولون لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: اسمَعْ منَّا ما نقولُ، أصمَّك اللهُ فلا سمِعْتَ، يُسيئون الأدبَ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ استهزاءً منهم واستهتارًا به.

وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ

أي: إنَّهم يُوهِمون أنَّهم بقولهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "راعنا": يعنُون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما قصدُهم الدُّعاءُ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفٌ منهم لهذه اللَّفظةِ عن معناها، أرادوا بذلك الطَّعنَ في الدِّينِ بعيبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقدحِ فيه.

---

(110) قال ابنُ كثير (٤/٩٦): «قوله: ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾، أي: يقولون: سمعنا ما قلتَه، يا محمد، ولا نطيعك فيه. هكذا فسَّـــره مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ في عنادهم وكفرهم، أنَّهم يَتَوَلَّوْن عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة».

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ

أي: ولو أنَّ هؤلاءِ اليهودَ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وأطَعْنا أمرَك، واسمَعْ منَّا ما نقول، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك ما تقولُ، لو أنَّهم قالوا ذلك، لكان أصوبَ وأعدَلَ في القولِ، وفي غيرِه من أمورِ دِينِهم ودنياهم.

وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ

أي: ولكنَّ اللهَ تعالى قد أخْزَى أولئك اليَهودَ، فأقصاهم وأبعَدَهم وطرَدَهم من رحمتِه؛ وذلك بسبب كُفرِهم.

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: فلا يُؤمنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا ينفعُهم.

سُورَةُ النِّساءِ

الآيتين (47-48)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)

غريبُ الكَلِمات:

نَطْمِسَ وُجُوهًا: أي: نمحوَ تخطيطَ صُوَرِها، أو نمحوَ ما فيها من عينٍ وأنفٍ وحاجبٍ وفمٍ، والطَّمس: إزالة الأثَر، وأصل طمس: يدلُّ على محوِ الشَّيء ومسحِه.

فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا: نجعَل وجوهَهم من قِبل أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوجه قَفًا، والقَفَا وَجْهًا، وأصل الردِّ: صرفُ الشيء بذاتِه، أو بحالةٍ من أحواله؛ يقال: رَدَّه عن وجهه: صرفَه. وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيء وخلفُه، ضد القُبل.

أَصْحَابَ السَّبْتِ: المقصودُ بأصحابِ السَّبت: اليهودُ الذين ذُكِرت قصَّتُهم في سورة البَقرة والأعراف.

افْتَرَى: كَذَب واختَلَق، وافترى فلانٌ على فلان: إذا قذَفه بما ليس فيه، أو قذَف أبوَيْه، و(الافتراء) الاختلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكذبِ، وكذلك استُعمِل في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلم، وأصْلُه من الفَرْي، وهو: قطْعُ الجِلد للخرزِ والإصلاح.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ

أي: يا أيُّها اليهود والنَّصارى الَّذين أُنزِل إليهم التَّوراةُ والإنجيلُ فأُعطُوا العِلمَ، آمِنوا بما أنزَلْنا إلى محمَّدٍ من الفُرقان، مصدقًا للَّذي معكم من التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ القرآنَ شاهدٌ بما جاءت به تلك الكتبُ، وإنَّه حقٌّ، كما أنَّه مهيمِنٌ على غيرِه من الكتب السَّابقةِ الَّتي قد صدَّقها، فإنَّها قد أخبرَتْ به.

مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا

أي: آمِنوا قبل أن نَطمِسَ وجوهَكم، فنحوِّلَها إلى جهةِ الأدبارِ، أي: من قِبَل ظهورِكم.

والمراد بطَمْس الوجوهِ والرَّدِّ على الأدبارِ: قيل: ألَّا يبقى للوجوهِ سمعٌ ولا بصَر ولا أثَر، ونرُدُّها مع ذلك إلى ناحيةِ الأدبارِ، وقيل المراد: نطمِس أبصارَها ونمحو آثارَها، ونجعَل أبصارَها في أقفائِهم، فيمشون القَهْقرى، وقيل غير ذلك.(111)

(111) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها﴾ على أقوال: الأول: أنّ طمس الوجوه هو محو آثارها، حتى تصير كالأقفاء، ونجعل عيونها في أقفائها حتى تمشي القهقرى.

الثاني: أنّ معناه: طمس أعينهم عن الحق، وردها إلى الكفر والضلال.

الثالث: أنّ معناه: محو آثارهم من وجوههم ونواحيهم التي هم بها، وردهم إلى الشام كما كانوا.

أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ

أي: أو نطرُدَهم من رحمتِنا، ونوقِعَ بهم من النَّكالِ مثلما وقَع لأصحابِ السَّبتِ الَّذين اعتدَوْا في سَبتِهم بالحيلةِ على الاصطيادِ فيه، فمُسِخُوا قردةً ذليلةً.

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا

أي: إنَّه تعالى إذا أمَر بأمرٍ، فإنَّه واقعٌ لا محالةَ؛ فأمرُهُ عزَّ وجلَّ لا يُخالَف ولا يُمانَع.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82].

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ من المخلوقين يَلقَى اللهَ سبحانه وقدْ جعَل معه شريكًا في ربوبيَّتِه أو ألوهيَّتِه أو أسمائِه وصفاتِه.

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

وقد رَجَّح ابنُ جرير (٧/١١٥-١١٦) القول الأول مستندًا إلى السياق، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي وقتادة وعطية العوفي.

أي: ويغفِرُ اللهُ تعالى ما دون ذلك الشِّركِ من الذُّنوبِ- صغائرِها وكبائرِها- للَّذي يشاءُ مِن عبادِه مِن أهل الذُّنوبِ والآثام، إذا اقتضَتْ حكمتُه أن يغفِرَ له.

عن أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ. ومن لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةً لا يشركُ بي شيئًا، لقِيتُه بمثلِها مغفرةً)).(112)

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا

أي: إنَّ مَن يقع في الإشراكِ باللهِ العظيمِ، فقد اختلَق وِزْرًا عظيمًا وجُرمًا كبيرًا.

كما قال تعالى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: 13].

وعن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ – ﷺ –: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عِندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خلقَك، قلتُ: إنَّ ذلك لَعظيمٌ...)).(113)

---

(112) رواه مسلم (2687).

(113) رواه البخاري (4477) واللفظ له، ومسلم (86).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (49–57)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا
عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا
حَكِيمًا (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57)

غريبُ الكَلِمات:

يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ: أي: يمدحُونها ويُثنون عليها، مِن التَّزكية، وأصلُ الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادة.

فَتِيلًا: الفَتِيل: القِشرةُ الَّتي في بطن النَّواة، وسُمِّي ما يكونُ في شَقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونِه على هيئته، وقيل: الفتيل: ما يُفتَلُ بالإصبعِ مِن الوسَخِ الَّذي يخرُجُ منه، وأصل (فتل): يدلُّ على لَيِّ شيءٍ.

يَفْتَرُونَ: يَختلِقون، ويَكذِبون؛ فـ(الافتراء) الاختِلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكَذبِ، ومِنه قيل: افترى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستعمَل في القُرآنِ في الكَذِب والشِّركِ والظُّلم، وأصلُ (فري) قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيت الشيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطعُه لإصلاحِه، وأفريتَه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ.

بِالْجِبْتِ: الجِبْت لفظٌ يُستعمل في كُلِّ باطل، ومن ذلك: كلُّ معبودٍ سوى اللهِ جلَّ اسمُه، من صُورةٍ أو شيطان، ويُطلق أيضًا على السَّاحر، والكاهن، والشَّيطان، والكافِر المعاند الَّذي لا خيرَ فيه.

وَالطَّاغُوتِ: هو كلُّ مَعبودٍ من دونِ الله؛ من حَجَرٍ أو صورة أو شيطان، ويُطلَق على السَّاحر، والكاهن، والماردِ من الجِنِّ، والصَّارفِ عن طريق الخيرِ، والطَّاغوت من الإنس والجِنِّ شياطينُهم، يكون واحدًا وجمعًا، واشتقاقُه من الطُّغيان، وأصله: مجاوزةُ الحدِّ في العصيانِ.

نَقِيرًا: النَّقير: النَّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المفضِي إلى النَّقب.

صَدَّ عَنْهُ: أي: أعرَض وانصرَف عنه، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرُ مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى صَدَّ غيرَه. وأصل (صد): إعراضٌ وعدولٌ.

نَضِجَتْ: انشوتْ فاحترَقَتْ؛ يُقال: نَضِج اللَّحم: إذا أَدرَك شَيَّه، وأصل (نضج): بلوغ النِّهايةِ في طبخ الشَّيء.

ظِلًّا ظَلِيلًا: قيل: هو الظلُّ الدَّائم الَّذي لا تنسَخُه الشَّمس، وقيل: الَّذي لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا ريحَ ولا سَمومَ، وقيل: هو كنايةٌ عن نضارةٍ من العيشِ، وأصل (ظلل): يدلُّ على سَتْرِ شيءٍ لشيء.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ(114)

أي: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ هؤلاء اليهود والنَّصارى ومَن نحا نحوَهم في تزكيةِ نفوسِهم، فيُبرِّئون أنفسَهم من الذُّنوبِ والعيوب، ويزعمون لها من الخصائص والمُمَيِّزات ما ليس لها، افتراءً وكذبًا، ومن ذلك قولهم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وقولهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.

بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ

---

(114) قال ابنُ عطية (٥٧٨/٢) فيمن أريد بهذه الآية: «هذا لفظ عامٌّ في ظاهره، ولم يختلف أحدٌ مِن المتأولين في أنّ المراد: اليهود».

اختلف السلف في كيفية تزكية اليهود أنفسهم على أقوال: الأول: هو قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، ولا ذنوب لنا.

والثاني: هو تقديمهم أبناءَهم لإمامتهم في الصلاة.

والثالث: هو زعمهم أنّ أبناءهم سيشفعون لهم، ويُزَكُّونهم عند الله يوم القيامة.

والرابع: هو تزكية بعضهم لبعض.

وقد رَجَّح ابنُ جرير (١٢٨/٧) مستندًا إلى دلالة القرآن، وظاهر اللفظ القولَ الأول، وقال: «لأنّ ذلك هو أظهر معانيه؛ لإخبار الله عنهم أنّهم إنما كانوا يزكون أنفسهم دون غيرها».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٥٧٩/٢) مستندًا إلى السياق، حيث قال: «وقوله تعالى: ﴿انظر كيف يفترون﴾ الآية، يُبَيِّن أنّ تزكيتهم أنفسَهم كانت بالباطل والكذب، ويُقَوِّي أنّ التزكية كانت بقولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨] إذ الافتراء في هذه المقالة أمكن».

أي: ليس الأمرُ كما تزعمون، وإنَّما المرجعُ في ذلك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ؛ فهو الَّذي يُزَكِّي ويُثني على مَن يشاءُ مِن عبادِه ممَّن هو أهلٌ لذلك.

قال تعالى: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [النجم: 32].

وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا

أي: لا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين أخبَرَ عنهم أنَّهم يُزكُّون أنفسَهم، ولا غيرَهم مِن خَلقِه شيئًا، فلا يترُكُ لأحدٍ مِن الأجر شيئًا، حتَّى ما يوازنُ مقدارَ الفتيل، وهو الخيطُ الَّذي في شَقِّ النَّواةِ وبطنِها، أو هو الوسَخُ الَّذي يخرُجُ مِن بينِ أُصبُعيِ الرَّجُل، أو من بين كفَّيْه إذا فتَل إحداهما على الأخرى.(115)

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50)

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

أي: انظُرْ– يا محمَّدُ– كيف يفتري هؤلاء الَّذين يزكُّون أنفسَهم مِن أهلِ الكتاب وغيرِهم الكذِبَ والزُّورَ مِن القولِ بتزكيتِهم أنفسَهم، فيختلِقون ذلك على الله جلَّ وعلا.

---

(115) اختلف السلف في معنى الفتيل على قولين: الأول: أنّه الوَسَخ الذي يخرج من بين أصبعي الإنسان إذا دلَكهما.
الثاني: أنّه الفتيل الذي يكون في بطن النواة.
وقد رَجَّح ابنُ جرير (١٣٣/٧) العمومَ في معنى الفتيل، وأنّه يشمل القولين، مستندًا إلى اللغة
وذكر ابنُ عطية (٥٧٩/٢) القولين، ثُمَّ علّق عليهما قائلًا: «وهذا كله يرجع إلى الكناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأنّ الله لا يظلمه، ولا شيء دونه في الصغر، فكيف بما فوقه؟!».
وعَلَّق ابنُ كثير (١١٥/٤) عليهما بقوله: «وكلا القولين متقارب».

وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا

أي: وحسبُهم بهذا الصَّنيعِ ذنبًا ظاهرًا، وافتراءً واضحًا يبيِّنُ كذبَهم لسامعيه، ويوضِّحُ لهم أنَّهم أَفَكَةٌ فَجَرَةٌ، ويكون موجبًا لاستحقاقِهم العقوبةَ البليغةَ، والعذابَ الأليم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51)

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((لَمَّا قدِم كعبُ بن الأشرفِ مكَّةَ، قالت له قريش: أنت خيرُ أهلِ المدينة وسيِّدُهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المُنبَترِ من قومِه، يزعُمُ أنَّه خيرٌ منَّا، ونحن أهلُ الحجيجِ وأهلُ السِّدانةِ؟ قال: أنتم خيرٌ منه، فنزلت: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ، ونزلت: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ... إلى قوله: فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)).[116]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[117]

---

(116) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (524/6) (11707) واللفظ له، والطبري في ((تفسيره)) (466/8)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1882)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5440)، وابن حبان (6572).
صحح إسناده ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (525/8)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1448)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (77): الراجح إرسالُه.

(117) اختلف السلف في معنى الجبت والطاغوت اللذَّيْن ذكرهما الله على أقوال

أي: أَلَا تعجَبُ– يا محمَّدُ– مِن حال هؤلاء اليهود الَّذين آتاهم اللهُ تعالى حظًّا من التَّوراة، وقامتْ عليهم الحُجَّةُ، ومع ذلك يؤمِنون بالجِبْتِ والطَّاغوت؟.(118)

وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا

أي: يقولُ أولئك اليهودُ عن الكفَّار بأنَّهم أقومُ وأعدَلُ طريقًا من المؤمِنين.

وقد رجَّح ابنُ جرير (١٤٠/٧) مستندًا إلى اللغة، والعموم أنّ الجبت والطاغوت: اسمان لكل معبود من دون الله، يُطاع أمره، ويُخضع له.

فيدخل فيهما الشيطان، والساحر، والكاهن، وغير ذلك من الآلهة المزعومة المدعاة، وكذلك يدخل فيهما حُيي بن أخطب، وكعب الأشراف، كما في قول مقاتل وغيره؛ لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله.

(118) اختُلف فيمن عَنَى الله بالآية؛ فقيل: كعب بن الأشرف.

وقيل: جماعة من اليهود منهم حيي بن أخطب.

وقيل: حيي بن أخطب وحده.

ورَجّح ابنُ جرير (١٤٧/٧) أنّه لجماعة من اليهود، دون قطع بقول من تلك الأقوال، ووافقه ابنُ عطية (٥٧٩/٢) في ذلك مستندًا إلى إجماع أهل التأويل، وقصة الآية، فقال: «وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ الآية ظاهرُها يَعُمُّ اليهودَ والنصارى، ولكن أجمع المتأولون على أنّ المراد بها طائفةٌ من اليهود، والقصص يبين ذلك».

وذكر ابنُ عطية (٥٨١/٢) قولَ مَن جعل الآية في جماعة، ومَن خَصَّها بحيي أو كعب، ثم قال مُوَجِّهًا: «فمَن قال: كانوا جماعة فذلك مستقيم لفظًا ومعنًى.

ومَن قال: هو كعب أو حيي، فعَبَّر عنه بلفظ الجمع لأنّه كان متبوعًا، وكان قولُه مقترنًا بقول جماعة».

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52)

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ

أي: قد أبعَدهم اللهُ تعالى، وطرَدهم من رحمتِه.

وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا

أي: ومَن يطرُدْه اللهُ تعالى من رحمتِه، فلن تجدَ له- يا محمَّدُ- مَن ينصُرُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ فيتولَّاه ويقومُ بمصالحِه، ويحفَظُه عن المكارهِ.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53)

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ

أي: أم لهم حظٌّ من مُلكِ الله تعالى حتَّى يُفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائهم، بحيث يمنَعون فضلَ الله سبحانه على نبيِّه وأتباعِه، ويجعلون الفضلَ لهؤلاء الكفَّار؟ والمعنى: ليس لهم حظٌّ من المُلكِ ليفعَلوا ذلك.

فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا

أي: ولو كان لهم حَظٌّ من المُلك، لَمَا أعطَوْا أحدًا مِن النَّاس ولو نقيرًا (أي: النُّقطة الَّتي على ظهرِ النَّواةِ)(119) من شدَّة بُخلِهم.

كما قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا [الإسراء: 100].

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54)

---

(119) اختلف السلف في معنى النقير على ثلاثة أقوال: الأول: أنّ معناه: النقرة التي تكون على ظهر النواة.
الثاني: أنّ معناه: الحبة التي تكون في وسط النواة.
الثالث: أن معناه: النَّقرة بطرف الأصابع.
وقد رَجَّح ابنُ جرير (١٥٢/٧) شمول معنى النقير لكل تلك الأقوال مستندًا إلى دلالة العقل، والعموم، فقال: «وأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنّ الله وصَفَ هؤلاء الفرقة مِن أهل الكتاب بالبخل باليسير مِن الشيء الذي لا خَطَر له، ولو كانوا ملوكًا وأهل قدرة على الأشياء الجليلة الأقدار.
فإذ كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بمعنى النقير أن يكون أصغر ما يكون من النقر، وإذا كان ذلك أولى به فالنَّقرة التي في ظهر النواة مِن صغار النقر، وقد يدخل في ذلك كل ما شاكلها من النقر».
وقال ابنُ عطية (٥٨٢/٢): «والنقير أعرف ما فيه أنها النكتة التي في ظهر النواة من التمرة، ومن هنالك تنبت، وهو قول الجمهور».
ثم ذكر أقوال السلف في معنى النقير، وعلَّق قائلًا: «وهذا كله يجمعه أنّه كناية عن الغاية في الحقارة والقلة، على مجاز العرب واستعارتها».

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54)

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ[120] عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ[121]

أي: أَمِ الحاملُ لهم على ذلك حَسَدُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه على ما رزَقه الله تعالى من النُّبوَّةِ العظيمة؛ لكونه من العربِ، وليس من بني إسرائيلَ؟

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا

---

(120) اختلف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿الناس﴾ على قولين: الأول: أنّ المراد به: محمد ﷺ خاصة.
الثاني: أنهم العرب.
وقد رَجَّح ابنُ جرير (١٥٥/٧) مستندًا إلى السياق أنّ المراد: محمد ﷺ وأصحابه، فقال: «وإنّما قلنا ذلك أولى بالصواب لأنّ ما قبل قوله: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ مضى بذمّ القائلين من اليهود للذين كفروا: ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾.
فإلحاق قوله: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ بذمّهم على ذلك، وتقريظ الذين آمنوا الذين قيل فيهم ما قيل أشبه وأولى، ما لم يأت دلالة على انصراف معناه عن معنى ذلك».
(121) أفادت الآثارُ اختلافَ السلف في تفسير قوله: ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾؛ فقال بعضهم: فضل الله: النبوة.
وقال آخرون: بل هو ما أباحه الله لنبيه من أمر النساء يتزوج منهن ما شاء.
وعلّق ابنُ عطية (٥٨٣/٢) على القول الثاني، فقال: «فالملك في هذا القول إباحة النساء، كأنه المقصود أولًا بالذكر».
وقد رجّح ابنُ جرير (١٥٧/٧–١٥٨بتصرف) مستندًا إلى سياق الآية: أنّه النبوة، فقال: «وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قولُ من قال: إن معنى الفضل في هذا الموضع: النبوة التي فضَّل الله بها محمدًا، وشرَّف بها العرب إذ آتاها رجلًا منهم دون غيرهم، لما ذكرنا مِن أنّ دلالة ظاهر هذه الآية تدل على أنها تقريظ للنبي ﷺ وأصحابه، على ما قد بينا قبل، وليس النكاح وتزويج النساء، وإن كان من فضل الله –جل ثناؤه– الذي آتاه عباده بتقريظ لهم ومدح».

أي: ليس هذا أوَّلَ فضلٍ تفضَّلْنا به على عباد الله، بل إنَّ الفضلَ قد وُجِدَ من قبلُ في أسلافِكم من ذُرِّيَّة إبراهيمَ عليه السَّلام؛ حيث أعطاهم اللهُ تعالى النُّبوَّة، وأنزَل عليهم الكتبَ، وآتاهم الحِكمةَ، وهي ما أوحاه اللهُ تعالى إليهم ممَّا سوى الكتبِ الإلهيَّة، وآتاهم الملك الواسِعَ الكبير؛ كمُلك سليمانَ عليه السَّلام.[122]

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ

أي: فمِن أهل الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبالقرآنِ الَّذي أُنزل إليه، ومنهم مَن أعرَض عن ذلك ولم يُؤمِنْ، وسعَى في صَرْف النَّاس عن الإيمانِ بذلك.

وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا

أي: وحسْبُهم النَّارُ تُوقَدُ عليهم، فيُحرَقون فيها؛ عُقوبةً لهم على كفرِهم.

---

(122) للسلف في تفسير قوله تعالى: ﴿وآتيناهم ملكا عظيما﴾ أقوال أربعة: الأول: أنّه النبوة.

الثاني: أنّه تحليل النساء.

الثالث: أنّه ملك سليمان وداود.

الرابع: أنّهم أُيِّدوا بالملائكة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦٠/٧) مستندًا إلى اللغة القول الثالث.

وذكر ابنُ عطية (٥٨٣/٢) اختلاف السلف، ثم رَجَّح، وقال: «والأصوب: أنّه ملك سليمان، أو أمر النساء».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا

أي: إنَّ الكافرين بآياتِ الله عزَّ وجلَّ- سواءٌ الآياتُ الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّة- سيُدخِلُهم اللهُ تعالى النَّارَ فيحترِقون فيها.

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

أي: كلَّما انشوَتْ جلودُهم بالنَّارِ فاحترقتْ، أبدَلهم اللهُ تعالى بجلودٍ أخرى؛ فهُم على هذه الحالِ دائِمون.

لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ

أي: ليجِدوا أَلَمَ العذابِ وكَرْبَه وشدَّته.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغالبُ القاهرُ، العزيزُ في انتقامِه؛ فلا يقدِرُ على الامتناعِ منه أحدٌ أراده بضُرٍّ، ولا الانتصارِ منه أحدٌ أحلَّ به عقوبةً، وهو الحكيمُ الَّذي له الحكمةُ في خَلْقِه وقدَرِه، وثوابِه وعقابِه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أي: والَّذين آمَنوا بالله ورسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وبما أنزل اللهُ عليه،

وأدَّوا ما أمرهم الله عزَّ وجلَّ به من الطَّاعات،

واجتنَبوا ما حرَّم اللهُ عليهم من المنهيَّات،

مخلِصين لله تعالى، ومتَّبِعين في ذلك نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ يوم القيامة جنَّاتٍ تجري الأنهارُ في جميع فِجاجِها ومحالِّها وأرجائِها،

ومن تحتِ أشجارِها وقصورِها.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

أي: ماكثين في تلك الجنَّاتِ على الدَّوام، بغير نهايةٍ ولا انقطاعٍ.

لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ

أي: لهم في تلك الجنَّات زوجاتٌ مطهَّرات طهارةً حِسِّيَّة من الأدناسِ؛ كالحيضِ، والغائط، والبول، والحبَل، والبُصاق، والرَّائحة المنتِنة، وسائر ما يكون في نساء أهلِ الدُّنيا، ومطهَّراتٌ طهارةً معنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلة، والصِّفات النَّاقصة.

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا

أي: ونُدخِلُهم ظلًّا كنينًا غزيرًا طيِّبًا ممتدًّا، لا يَستحيلُ ولا ينتقل.

كما قال تعالى: وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ [الواقعة: 30].

سُورةُ النِّساءِ

(الآيتين (58–59

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)

غريبُ الكَلِمات:

نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ: (نِعِمَّا) كلمةٌ مركَّبة من (نِعم) و(مَا)، أي: نعمَ شيئًا يعِظُكم به.

تَأْوِيلًا: أي: عاقبةً ومعنًى وترجمةً وثوابًا في الآخِرة، والتَّأويل مِن أَوَل، أي: رجَع إلى الأصل، ومنه قِيل: مَوْئِل، للموضِعِ الَّذي يُرجَع إليه، وهو ردُّ الشَّيء إلى الغاية المرادة منه.

تفسير الآيتين:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا

أي: إنَّ مَن له الألوهيَّةُ والحُكم عزَّ وجلَّ، يأمركم بأن تردُّوا كلَّ ما اؤْتُمِنْتم عليه إلى أصحابه، سواءٌ كان من حقوقِ الله تعالى أو مِن حقوقِ عباده؛ فرُدُّوه كاملًا موفَّرًا، من غير نقصٍ ولا بخسٍ ولا مماطلةٍ.(123)

وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

أي: ويأمُركم اللهُ تعالى أيضًا بالحُكم بالعدل في كلِّ شيء، ومع كلِّ أحدٍ من النَّاس؛ وذلك بالحُكم بشريعةِ الله تعالى فهي العدل كُلُّه.

إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ

---

(123) اختلف السلف فيمن عنى الله بهذه الآية على ثلاثة أقوال: الأول: أنها نزلت في ولاة الأمور.
الثاني: أنها نزلت في عثمان بن أبي طلحة.
الثالث: أمر السلطان أن يعظ النساء.
وقد رجَّحَ ابنُ جرير (٧/١٧١) مستندًا إلى السياق، وأقوال السلف القول الأول.

أي: وِنعم الشَّيءُ يعِظُكم به ربُّكم سبحانه وتعالى في أمرِه لكم- أداءُ الأماناتِ إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا

أي: إنَّه سبحانه سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأفعالكم، ومن ذلك أداءُ الأمانات إلى أهلِها، وحُكمُكم بين النَّاس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما أنَّه قال في قوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [النساء: 59]، قال: ((نزَلت في عبدِ الله بن حُذَافةَ بن قيس بن عدي؛ إذ بعَثه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في سَرِيَّة)).[124]

(124) رواه البخاري (4584).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

أي: يا أيُّها المؤمنون أطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسوله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلك بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما.(125)

وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ(126)

أي: وأطيعوا أيضًا الوُلاةَ عليكم الَّذين يَلُون لكم أمورَ دِينكم ودنياكم، وهم الأمراء والعُلماء؛ فأطيعوهم فيما لم يكُنْ فيه مخالفةٌ لطاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام.

عن عليٍّ بن أبي طالب رضِي اللهُ عنه، قال: ((بعث رسولُ اللهِ – ﷺ – سرِيَّةً، واستعمل عليهم رجلًا من الأنصارِ، وأَمَرَهم أن يسمعوا له ويُطيعوا، فأغضبُوه في شيءٍ، فقال: اجمَعوا لي حطبًا، فجمَعوا له، ثمَّ قال: أَوقِدوا نارًا، فأوقَدوا، ثمَّ قال: ألم يأمُرْكم رسولُ اللهِ – ﷺ – أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخُلوها، قال: فنظر بعضُهم إلى بعضٍ، فقالوا: إنَّما فرَرْنا إلى رسولِ اللهِ – ﷺ –

---

(125) نقل ابنُ جرير (١٧٥/٧) خلافًا بين السلف في تفسير قوله: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ على قولين: الأول: أنّه أمر باتّباع سُنَّةِ النبي.
الثاني: أنّه أمرٌ بطاعة النبي في حياته.
وقد رَجَّح ابنُ جرير العمومَ في الآية.

(126) اختلف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ على أقوال أربعة: الأول: أنهم الأمراء والولاة.
الثاني: أنهم أهل العلم والفقه.
الثالث: أنهم أصحاب النبي ﷺ.
الرابع: أنهم أبو بكر وعمر.
وقد رَجَّح ابنُ جرير (١٨٢/٧) مستندًا إلى السنة، والدلالة العقلية القول الأول.

من النَّارِ، فكانوا كذلك، وسَكَن غضبُه، وطُفِئَتِ النَّارُ، فلمَّا رجعوا ذكروا ذلك للنَّبِيِّ – ﷺ –، فقال: لو دَخَلوها ما خرَجوا منها؛ إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ)).(127)

وفي رواية: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطَّاعة في المعروفِ)).(128)

وعن عُبادة بن الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم على السَّمعِ والطَّاعة في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقومَ– أو: نقولَ– بالحقِّ حيثُما كنَّا لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائمٍ)).(129)

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ(130)

أي: فإن اختلفتم– أيُّها المؤمنون– في شيءٍ مِن أمرِ دِينكم؛ مِن أصولِه وفروعِه، فاطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتابِ الله تعالى وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

---

(127) رواه البخاري (7145)، ومسلم (1840) واللفظ له.

(128) رواه مسلم (1840)، من حديث علي رضي الله عنه.

(129) رواه البخاري (7199) واللفظ له، ومسلم (1840).

(130) بيَّن ابن عطية (٥٨٩/٢) معنى الردّ إلى الرسـول بقوله: «والرَّدُّ إلى الرسـول: هو سـؤاله في حياته، والنظر في سـنته بعد وفاته ﷺ، هذا قول مجاهد، والأعمش، وقتادة، والسدي، وهو الصحيح».

ولم يذكر مستندًا.

ثم ذكر قولًا آخر: أنّ الرد إلى الله ورسوله معناه: «قولوا: الله ورسوله أعلم».

أي: افعلوا ذلك إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومؤمنين بالآخرة أيضًا.

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

أي: ردُّكم لِما اختلفتُم فيه إلى الكتاب والسُّنَّة خيرٌ لكم وأفضلُ، في دِينكم ودنياكم وآخرتِكم، وأحسنُ عاقبةً.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (60-65)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا
إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا
(61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ
فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا
وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)

غريبُ الكَلِمات:

يَزْعُمُونَ: يَكذِبون، والزَّعم: يُطلَق على حِكايةِ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، وعَلَى اعتقادِ الباطِل بتقوُّلٍ، والقَولِ مع الظَّنِّ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الذي لا سَنَدَ له، وإنَّما يُحكَى على الْأَلْسُنِ على سَبيلِ البَلاغِ، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غير صِحَّةٍ ولا يقينٍ.

أَنْ يَتَحَاكَمُوا: أي أنْ يَجْعَلوه حَكَمًا، أي: قاضيًا، والحُكم بالشَّيء: القضاء بأنَّه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزَمْتَ ذلك غيرَكَ أو لم تُلْزِمْه، والإحكامُ هو الفَصلُ والتَّمييزُ، والفَرْق والتحديدُ الذي به يَتحقَّقُ الشيء ويحصُل إتقانُه، وأصل (حكم): مَنَع منعًا لإصلاحٍ، ومِنه سُمِّيت اللِّجام: حَكَمَةَ الدابَّة.

بَلِيغًا: أي: قَويًّا يَبْلُغُ شَغَافَ قلوبِهم لبَلاغتِه وفَصاحتِه، ومن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكون صوابًا في موضوعِ لُغتِه، وطِبقًا للمعنى المقصودِ به، وصِدْقًا في نفْسه. وأصل (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ.

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ: أي: فيما اختلَفوا فيه، واختلَط بينهم، والتَّشاجُر: المنازَعةُ، وأصْلُ (شجر): تداخُلُ الشَّيءِ بَعْضِه في بعضٍ.

حَرَجًا: أي: شكًّا وضِيقًا، والحَرَج: الضِّيقُ والإثْمُ، وأصْلُ الحَرَج: تجمُّع الشَّيء وضِيقُه.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60)

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: كان أبو بَرْزةَ الأسلميُّ كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يَتنافَرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ مِن أسلَمَ، فأنزَل الله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ [النساء: 60] إلى قوله: وَتَوْفِيقًا [النساء: 62].(131)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

أي: ألَا تتعجَّب- يا محمَّدُ- مِن حال أولئك الَّذين يزعُمون أنَّهم يؤمِنونَ بالقرآن، وبغيره من الكتب الإلهيَّة السَّابقة؟!

---

(131) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5547)، والطبراني (373/11) (12045)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (141).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (9/7): رجاله رجال الصَّحيح.

وجود إسناده ابن حجر في ((الإصابة)) (19/4)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (532/1).

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

أي: وهم مع ذلك يودُّون التَّحاكُمَ في فصلِ الخصوماتِ إلى غير الكتابِ والسُّنَّة.

وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ

أي: والحالُ أنَّهم قد أُمروا أن يكفُروا بالحُكم بغيرِ ما أنزَل اللهُ جلَّ وعلا.

وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: إنَّ الشَّيطانَ يريد أن يجُورَ بهؤلاء المتحاكِمينَ إلى الطَّاغوت جورًا شديدًا بَعِيدًا عن سبيل الحقِّ والهُدى.[132]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ

أي: وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا وأقبِلوا على حُكمِ الله تعالى، الَّذي أنزَله في كتابِه وفي سنَّة رسوله محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام.

(132) ذكر ابنُ كثير (٤/١٣٨) الرواياتِ المختلفة في نزول الآية، ثُمَّ رَجَّح العمومَ فيها، فقال: «والآيةُ أعمُّ مِن ذلك كله، فإنها ذامَّةٌ لِمَن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا».

رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا

أي: أبصرتَ أولئك المنافقينَ مُعرِضينَ وممتنِعينَ مِن المصيرِ إليك للحُكم بينهم؛ بسبب نفاقِهم، ويمنَعون غيرَهم كذلك.

كما قال تعالى عن المشركين: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا [لقمان: 21].

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

أي: فكيف يكون حالُ هؤلاء المنافقينَ إذا ساقَتْهم المقاديرُ إليك في مصائبَ حلَّتْ بهم بسبب كُفرِهم وذنوبِهم، ومن ذلك تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزل اللهُ تعالى.

ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا

أي: ثمَّ أتاك هؤلاء المنافقون- يا محمَّدُ- يُقسِمونَ بالله تعالى كذِبًا وزورًا وجُرأةً على الله عزَّ وجلَّ معتذرينَ بأنَّهم ما أرادوا بذهابِهم للتَّحاكُمِ إلى غيرك إلَّا الإحسانَ إلى المتخاصمينَ، والتَّوفيقَ بينهم، ومداراةَ النَّاس ومصانَعتَهم، لا اعتقادًا منهم بصحَّةِ تلك الحكومةِ.

كما قال تعالى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ [المائدة: 52].

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ حقيقةَ ما تُكِنُّه قلوبُهم من النِّفاقِ والقصدِ السَّيِّئِ في احتكامِهم إلى الطَّاغوت، وتركِهم الاحتكامَ إليك، وإن حلَفوا باللهِ ما أرَدْنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا، وسيَجزيهم على ذلك، فإنَّه لا تخفى عليه خافيَةٌ سبحانه، فاكتفِ به– يا محمَّدُ– فيهم؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ بهم.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

أي: فدَعْهم ولا تُبالِ بهم، ولا تعاقِبْهم.

وَعِظْهُمْ

أي: ورغِّبهم في الانقيادِ لله تعالى ولرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وخوِّفهم وحذِّرهم مِن ترْكِه.

وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

أي: انصَحْهم– يا محمَّدُ– سرًّا فيما بينك وبينهم بكلامٍ بليغٍ مؤثِّر يصِلُ إلى قرارةِ نفوسِهم؛ ليزجُرَهم ويردَعَهم عمَّا هم عليه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ

أي: لم يبعَثِ اللهُ تعالى الرُّسلَ- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم- إلَّا لأجلِ أن يُطيعَهم النَّاسُ ويتَّبِعوهم، وذلك بتقديرِ الله تعالى وقضائِه ومشيئتِه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ

أي: ولو أنَّهم حين يقَعُ منهم الخطأُ والزَّلَلُ أتوا إليك- يا محمَّدُ- في حال حياتِك، معترفينَ بذنوبهم، طالبينَ مِن الله تعالى سَترَها والتَّجاوزَ عن المؤاخَذةِ بها، وطلبْتَ مِن الله تعالى أن يغفِرَ لهم.

لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا

أي: لو فعَلوا ذلك، لتاب اللهُ جلَّ وعلا عليهم بمغفرتِه ظُلْمَهم، ورحِمهم بالتَّوفيقِ للتَّوبة وقَبولِها والثَّوابِ عليها، وعدمِ مؤاخذتِهم بذُنوبهم الَّتي تابوا منها.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)

سَببُ النُّزول:

عن عبدِ الله بن الزُّبير رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ خاصم الزُّبيرَ عند رسولِ اللهِ - ﷺ -، في شِراجِ الحَرَّةِ الَّتي يسقون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ: سَرِّحِ الماءَ يمُرُّ، فأبى عليه، فاختصموا عند رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ - للزبيرِ: "اسْقِ يا زبيرُ، ثمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِك"، فغضب الأنصاريُّ؛ فقال: يا رسولَ اللهِ، أنْ كان ابنَ عمَّتِك! فتلوَّنَ وجهُ نبيِّ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ قال "يا زبيرُ، اسْقِ، ثمَّ احبِسِ الماءَ حتَّى يرجعَ إلى الجَدْرِ"، فقال الزُّبيرُ: واللهِ، إنِّي لَأحسبُ هذه الآيةَ نزلت في ذلك:[133] فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا)).[134]

---

(133) هذه الصيغة ليست صريحة في كونه سبب النزول.

اختلفت الرواية في شأن الرجل الذي خاصمه الزبير بن العوام؛ فقيل: رجل من الأنصار

وقد رَجَّح ابنُ عطية (٢/٥٩٦) أنّه رجلٌ من الأنصار، فقال: «والصحيح الذي وقع في البخاري أنّه رجل من الأنصار، وأنّ الزبير قال: فما أحسبُ أنّ هذه الآية نزلت إلا في ذلك».

(134) رواه البخاري (2359)، ومسلم (2357) واللفظ له.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

أقسَم تعالى بنفسه الكريمة على أنَّه لا يؤمن أحدٌ- يا محمَّدُ- الإيمانَ المطلوبَ والمقبولَ منه، حتَّى يحكِّمَك في جميع الأمورِ الَّتي يحصلُ فيها اختلافٌ.

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

أي: ثمَّ لا يكفي هذا التَّحكيمُ الظَّاهر حتَّى يطيعوك في بواطِنِهم أيضًا بأن ينتفيَ الضِّيقُ والحَرَج من قلوبهم ممَّا حكَمْتَ به- يا محمَّدُ.

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

أي: وينقادوا لِقَضائك؛ إذعانًا منهم بالطَّاعة، وإقرارًا بحُكْمِك، فيسلِّموا لذلك تسليمًا كلِّيًّا من غير ممانَعةٍ ولا مدافعة ولا منازَعة، تسليمًا بانشراحِ صدرٍ، وطمأنينةِ نَفْسٍ، وانقيادٍ بالظَّاهرِ والباطِنِ.

سُورَةُ النِّساءِ

الآيات (66–70)

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا **(66)**

وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا **(67)**

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا **(68)**

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا **(69)**

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا **(70)**

غريبُ الكَلِمات:

أَشَدَّ تَثْبِيتًا: أي: أشدَّ لتَحصيل عِلمهم، وقيل: أثبَت لأعمالِهم، واجتناءِ ثمرةِ أفعالِهم، وأصل الثَّباتُ: ضدُّ الزَّوال، أو دوام الشَّيء.

الصِّدِّيقِينَ: جمع صِدِّيق، وهو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه أو صدَق بقولِه واعتقادِه وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، أو مَن كَمَل في صِدْقِه وتَصديقِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدق، وقيل: هَو مَنْ لا يَكذِب قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّده الصِّدق، وأصل (صدق): يدلُّ على قوَّة في الشيء قولًا وغيرَه.

رَفِيقًا: أي: رُفقاء، وأصل (رفق): يدلُّ على موافَقةٍ ومقاربةٍ بلا عنف.

تفسير الآيات:

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66)

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

أي: ولو أنَّا فرضْنا على هؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزل إليك، من المحتكِمين إلى الطَّاغوت أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأمرناهم بذلك.

أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

أو أمرْناهم بالهجرةِ من ديارِهم إلى ديارٍ أخرى.

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

أي: ما استجاب لتلك الأوامرِ إلَّا عددٌ قليلٌ منهم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

أي: ولو أنَّ أولئك المنافقينَ فعَلوا ما يُذَكَّرون به من فِعل الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، ومِن ذلك التَّحاكمُ إلى الكتاب والسُّنَّة.

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

أي: لو أنَّهم فعلوا ما يُوعَظون به، لكان أفضلَ لهم من مخالفةِ الأمرِ، وارتكابِ النَّهي في عاجلِ دُنياهم، وآجلِ معَادِهم، ولكانوا من الأخيارِ المتَّصفينَ بأوصافِهم.

وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا

أي: وأثبَتَ لهم في أمورِهم وعزائِمِهم، وأقومَ لهم عليها، وأشدَّ ثباتًا على الحقِّ؛ فالإنسانُ كلَّما ازداد طاعةً لله ازدادَ إيمانًا ويقينًا وثباتًا عند ورود الفِتَن.

وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67)

أي: ولَأَعطيناهم كذلك جزاءً وثوابًا عظيمًا من عندِنا في العاجلِ والآجِل.

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68)

أي: ولأرشدْناهم ووفَّقْناهم إلى الصِّراط المستقيم.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا رسول الله، إنَّك لَأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكُرُك فما أصبِر حتَّى آتيَ فأنظُرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنَّك إذا دخلْتَ الجنَّة رُفِعْتَ مع النَّبيِّين، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خَشِيتُ ألَّا أَراك، فلم يرُدَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا حتَّى نزل عليه جبريلُ بهذه الآية: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)).[135]

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

أي: مَن يمتثِلْ أمرَ الله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتنِبْ نهيَهما، فهو في الجنَّة مع مَن أنعَم الله تعالى بهدايتِهم إلى الصِّراطِ المستقيم.

---

(135) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (477)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (239/4) حسَّنه الضياء كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (527/4)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (10/7): رجالُه رجالُ الصَّحيح غير عبد الله بن عمران العابديِّ، وهو ثقة.

ووثَّق رِجالَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (914/2)، وصحَّحه لغيره أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (537/1)، وذكر الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (1044/6) أن فيه عبدُ الله بن عمران صدوق، ويُقوِّيه أنَّ له شواهدَ مُرسلةً.

وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (80): له شواهدُ تَزيده قُوَّةً.

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

أي: مِن الرُّسل والأنبياء الَّذين فضَّلهم الله تعالى بوحيِه، والصِّدِّيقين الَّذين كمَلَ صدقُهم وتصديقُهم، فعلِموا الحقَّ وصدَّقوه بيقينهم، وقاموا به قولًا وعملًا وحالًا، والشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمتِه، والصَّالحين الَّذين صلَحَتْ سرائرُهم وعلانيتُهم.

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ما من نبيٍّ يمرَضُ إلَّا خُيِّر بين الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان في شَكواه الَّذي قُبِض فيه، أخَذَتْه بُحَّةٌ شديدةٌ، فسمِعتُه يقولُ: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فعلِمتُ أنَّه خُيِّر)).(136)

وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا

أي: وحَسُنَ هؤلاء- الَّذين وصفَهم اللهُ عزَّ وجلَّ- رُفقاءَ يُجتمَعُ بهم في جنَّات النَّعيم، ويُؤنَس بقُربهم في جوار الرَّبِّ الرَّحيم.

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو صحيحٌ يقول: إنَّه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتَّى يرى مَقْعَدَهُ في الجنَّةِ، ثمَّ يُحيَّا، أو يُخَيَّرَ، فلمَّا اشتكى وحضرَهُ القبضُ، ورأْسُهُ على

---

(136) رواه البخاري (4586).

فخِذِ عائِشَةَ غُشِيَ عليهِ، فلمَّا أفاقَ شخصَ بَصرُهُ نحوَ سقفِ البيتِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ في الرَّفيقِ الأعلَى فقُلْتُ: إذًا لا يُجاوِرُنا، فعرفتُ أنَّه حديثُهُ الَّذي كان يُحَدِّثُنا وهو صحيحٌ)).[137]

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70)

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ

أي: ذلك الإنعامُ الَّذي نالوه عطاءٌ وفضلٌ من اللهِ تعالى عليهم؛ فهو الَّذي برحمتِهِ أهَّلهم ووفَّقهم لذلك، وأعانَهم عليه، لا بأعمالِهم؛ فقد أعطاهم من الثَّوابِ ما لا تبلُغُه أعمالُهم.

وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا

أي: وحسْبُ العبادِ باللهِ عالِمًا بأعمالهم وأحوالهم، فيعلَمُ مَن يستحقُّ منهم الهداية والتَّوفيقَ، والثَّوابَ الجزيل.

---

(137) رواه البخاري (4437).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (71–76)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

غريبُ الكَلِمات:

خُذُوا حِذْرَكُمْ: أي: تَيَقَّظوا وتَحَرَّزوا، وخُذُوا ما فيه الحذَرُ مِن السِّلاح وغيرِه، والحَذَر: احتراز من مُخِيف، وهو من التَّحرُّز والتَّيقُّظ.

فَانْفِرُوا: أي: فاخرُجوا إلى الجِهاد، وانفِروا للنُّصرة، وأصل (نفر): يدلُّ على تَجافٍ وتباعُد.

ثُبَاتٍ: أي: جماعاتٍ متفرِّقةً، أو جماعةً منفردة، واحدتها ثُبَة، والثُّبَة: الجماعةُ الثَّائب بعضُهم إلى بعض في الظَّاهِرِ.

لَيُبَطِّئَنَّ: أي: يُثبِّط غيرَه، ويَتأخَّر ويُؤخِّر غيره، والمقصود مَن يتثاقلون ويَتخلَّفون عن الجِهاد، وأصله: البُطءُ في الأمْر.

كَيْدَ الشَّيْطَانِ: أي: حِيلَته، والْكَيْدُ: ضربٌ من الاحتيال، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، واستعمالُه في المذموم أكثرُ، وأصل (كيد) يدلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشدَّة.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (71)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ

أي: يا أيُّها المؤمنون، احذَروا من عدوِّكم، وذلك بالأخْذِ بالأسبابِ الَّتي يُستعانُ بها على قِتالهم ودَفْعِهم.

فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ

أي: فاخْرُجوا لِقتالِ عَدوِّكم متفرِّقينَ، جماعةً بعد جماعةٍ.

أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا

أي: أو انفِروا كلُّكم مجتمعينَ.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72)

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ

أي: وإنَّ في عِدادِكم- أيُّها المؤمنون- منافقينَ، يتثاقَلون ويتخلَّفون بأنفُسِهم عن جهادِ عدوِّكم إذا أنتم نفَرْتم إليهم، ويثبِّطون غيرَهم فيتخلَّفونَ عن الخروجِ في سبيل الله تعالى.

فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ

أي: فإنْ حلَّتْ بكم هزيمةٌ وقتلٌ، وظفِر الأعداءُ عليكم في بعض الأحوال لِمَا للهِ تعالى في ذلك من الحِكَمِ.

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا

أي: فإنْ أصابَكم ذلك، قال هذا المنافِق الَّذي يَتباطَأُ ويُبطِّئُ غيرَه عن الجِهاد: قد منَّ الله عليَّ بعدمِ الخُروجِ معهم للقِتال، وإلَّا لَأصابني ما أصابَهم من القَتْلِ أو الهزيمةِ.

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73)

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ

أي: وإنْ أظفرَكم اللهُ بعدوِّكم فانتصرْتم عليهم، ونِلتم منهم غنيمةً.

لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ

أي: ليقولَنَّ هذا المنافقُ وكأنَّه ليس من أهلِ دِينكم– يا مَعشرَ المؤمنينَ– لا يرتبطُ معكم فيه بالتزامِ أحكامِه، ومنها النُّصرةُ لكم.

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا

أي: تمنَّى هذا المنافقُ أن يكونَ مع المؤمنين في الخروج للجهاد، فيُصيبَ معهم من الغنائم الَّتي ظفِروا بها من عدوِّهم.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74)

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ

أي: فليجاهدْ أعداءَ الله لإعلاءِ كلمة الله سبحانه، المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعونَ الحياة الدُّنيا بالآخرة رغبةً فيما عند الله عزَّ وجلَّ.

وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

أي: ومن يُجاهِدْ أعداءَ الله تعالى لإعلاء كلمتِه جلَّ وعلا فسواءٌ قتَله الأعداء، أو بقي حيًّا وانتصَر عليهم.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: فهو غانمٌ على كلِّ حال؛ إذ سيُعطيه اللهُ تعالى ثوابًا جزيلًا.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75)

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

أي: ولِمَ لا تُجاهدون– أيُّها المؤمنون– لإعلاءِ كلمة الله تعالى، وتُجاهِدون للسَّعي في استنقاذِ الرِّجال والنِّساءِ والصِّبيان الَّذين غُلِبُوا على أنفسِهم بقَهْرهم وإيذائِهم وإذلالِهم وسَومِهم العذابَ، ولا يَستطيعون حيلةً للهجرة ولا يهتدون إليها سبيلًا؟!

عن عُبَيد اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بن عُتْبةَ، قال: ((سَمِعْتُ ابنَ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما يقولُ: كنتُ أنا وأمِّي مِن المستضعَفينَ، أنا من الوِلدانِ، وأمِّي من النِّساءِ)).[138]

وعن عَبدِ الله بن أبي مُلَيكةَ: ((أنَّ ابنَ عبَّاسٍ تَلا: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ. قال: كنتُ أنا وأمِّي ممَّن عذَرَ اللهُ)).[139]

---

(138) رواه البخاري (1357).

(139) رواه البخاري (4588).

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا

أي: يَدْعون ربَّهم بأن يخرجَهم من مكَّةَ؛[140] للنَّجاةِ من فتنةِ استضعافِهم من قِبَل مشركِي قريشٍ.

وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا

أي: وسخِّرْ لنا من عندك مَن يتولَّى أمرنا ويُنقذُنا، وسخِّرْ لنا من عندك مَن ينصُرُنا على عدوِّنا.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: إنَّ المؤمنينَ حقًّا إنَّما يُقاتِلون من أجْلِ إعلاء كلمةِ الله تعالى.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ

أي: وأمَّا الكفَّارُ فإنَّهم إنَّما يُقاتلون لأجل الطَّاغوت كالشَّيطان.

والطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوَزَ به العبدُ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ.

---

(140) نقل ابنُ عطية (٢/٣٠٦) الإجماعَ على تفسير القرية بأنَّها مكة، ثم أتبع ذلك بقوله: «والآية تتناول المؤمنين، والأسرى، وحواضر الشرك إلى يوم القيامة».

فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ

أي: فقاتِلوا– أيُّها المؤمنون– أولئك الَّذين يتولَّوْن الشَّيطانَ ويُطيعون أوامرَه.

إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

أي: فلا تهابوا أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ إمامَهم الشَّيطانَ ذو كيدٍ واهنٍ وضعيفٍ، لا يقوَى على مقاومةِ الحقِّ والتَّغلُّب عليه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (77–79)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ
لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا
(77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ
الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ
سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79)

غريبُ الكَلِمات:

كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ: أي: اقبِضوها، فأَمسِكوها عن قِتال المشركين وحربِهم، وأصْل الكَفِّ: يدلُّ على قبْضٍ وانقباض، ومنه الكفُّ للإنسان؛ سُمِّيتْ بذلك لأنَّها تقبضُ الشَّيء.

بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ: أي: قُصورٍ عاليةٍ، أو حُصونٍ مُطوَّلة، أو البيوتِ الَّتي فوقَ الحُصونِ، أو قصورٍ في السَّماء بأعيانها، وأصل (برج): من الظُّهور والبروزِ مِن بَرجَتِ المرأة، إذا ظهَرت وبرَزت.

يَفْقَهُونَ: يفهَمون حقَّ الفَهْم، والفِقْه: هو التَّوصُّل إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلم شاهدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيء والعِلمِ به.

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)

سَبَبُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما أنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ وأصحابًا له رضِي اللهُ عنهم أتَوُا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا نبي الله، كنَّا في عزٍّ ونحن مشركونَ، فلمَّا آمنَّا صِرنا أذلَّة، قال: إنِّي أُمرتُ بالعَفْوِ، فلا تقاتلوا القَوْمَ، فلمَّا حوَّله الله إلى المدينة أمَرَه بالقتالِ، فكَفُّوا، فأنزل الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ الآية.(141)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ (142)كُفُّوا أَيْدِيَكُم

---

(141) رواه النسائي (3086)، والطبري في ((تفسيره)) (549/8)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5630)، والحاكم (76/2). صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (3086)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (633) وقال: رجالُه رجالُ الصَّحيح.

(142) نقل ابن عطية (٦٠٤/٢) اختلاف السلف فيمن عنى الله بقوله: ﴿الذين قيل لهم﴾، ثم نقل قولًا لم ينسبه لأحد، فقال: «وقالت فرقة: المراد بالآية: المنافقون من أهل المدينة؛ عبد الله بن أبي وأمثاله، وذلك أنهم كانوا قد سـكنوا على الكره إلى

أي: ألَا تعجَبُ– يا محمَّدُ– من هؤلاء الَّذين أُمِرُوا بإمساك أيديهم عن حرْبِ أعدائهم المشركين، والامتناع عن قتالهم.(143)

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

أي: وعليكم بأداء الصَّلاة بحدودِها وفروضها تامَّةً كما أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ، وإيتاءِ الزَّكاة أهلَها المستحقِّين كما شُرِعت

كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا [النِّساء: 66].

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ

أي: فلمَّا فُرِض عليهم القتالُ– الَّذي كانوا قد سألوا أن يُفرَضَ عليهم– في وقتِه المناسبِ لذلك.

إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً

فرائض الإسـلام مع الدَّعَة وعدم القتال، فلما نزل القتال شـقَّ عليهم، وصـعب عليهم صـعوبة شـديدة، إذ كانوا مكذبين بالثواب.

ذكره المهدوي».

ثم علّق عليه بقوله: «ويُحسِّنُ هذا القولَ أنّ ذِكْرَ المنافقين يطرد فيما بعدها من الآيات».

(143) ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّـلاة والسَّـلام: ((لا تتمنَّوْا لقاءَ العدوِّ، واسـألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصـبِروا؛ فإنَّ الجنَّةَ تحت ظلال السُّيوفِ)).

رواه البخاري (3024)، ومسلم (1742) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

أي: إذا جماعةٌ منهم قد خافوا من مواجهةِ النَّاس لقتالِهم، خوفًا شديدًا مِثل خوفِهم من اللهِ تعالى أو أشدَّ خوفًا.(144)

وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ

أي: لِمَ فرَضْتَ علينا القتالَ يا أللهُ؟

لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

أي: هلَّا أخَّرتَ فرضَ القتال مدَّةً أخرى متأخِّرةً عن الوقتِ الحاضر، قيل: يعنونَ بذلك تأخيرَه إلى أن يموتوا على فُرُشِهم وفي بيوتهم.

قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ

أي: قُلْ لهم– يا محمَّدُ– ردًّا عليهم: ما في الدُّنيا من نِعَمٍ قليلة كيفًا وكمًّا ووقتًا، فهي محدودةٌ وفانية.

---

(144) بيّن ابنُ عطية (٢/٦٠٤–٦٠٥) أن قوله: ﴿يخشون الناس كخشية الله﴾ يعني: «أنهم كانوا يخافون الله في جهة الموت، لأنهم لا يخشون الموت إلا منه، فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون بأيديهم، فخشوهم في جهة الموت كما كانوا يخشون الله».

ثم ذكر قولًا عن الحسن، فقال: «وقال الحسن: قوله: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يدلُّ على أنها في المؤمنين، وهي خشية خوف لا خشية مخالفة».

ثم ذكر احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون المعنى: يخشون الناس على حدِّ خشية المؤمنين الله».

ثم علَّق عليه قائلًا: «وهذا ترجيح، لا قطع»

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى

أي: وما في الآخِرة من نعيمٍ أعدَّه الله تعالى للمتَّقين خيرٌ وأفضلُ ممَّا في الدُّنيا كيفًا وكمًّا ووقتًا؛ فنعيمُ الآخرة عظيمٌ، وكثيرٌ لا يُعَدُّ، وباقٍ لا يزولُ.

وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا

أي: إنَّ سعيَكم للآخِرةِ ستَجِدون أجْرَه كاملًا موفَّرًا غيرَ منقوصٍ منه شيئًا.

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78)

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ

أي: في أيِّ مكانٍ كنتم، فإنَّ الموتَ آتِيكم لا مَحالةَ، لا يَنجو منه أحدٌ منكم، سواءٌ في ذلك مَن خرَجَ للجِهاد في سبيلِ الله تعالى، ومَن قعَدَ عنه.

وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ

أي: إنَّ الموتَ واصلٌ إليكم حتمًا، ولو تَحصَّنتم منه بالحُصونِ المنيعة العاليةِ.(145)

وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: وإنْ ينَلِ المكذِّبين لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، رخاءٌ وخصبٌ ورزقٌ وأولادٌ وعافيةٌ وظفَرٌ وفتحٌ وغنائمُ، وغيرُ ذلك من الخيرات؛ فإنَّهم يقولون: هذا قدْ جاء من قِبَلِ اللهِ تعالى ومِن تَقديرِه، وليس لك علينا في ذلك فَضلٌ يا محمَّدُ.

---

(145) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿بروج مشيدة﴾ على قولين: الأول: أنها القصور المحصنة في الأرض.

الثاني: أنها قصور في السماء.

وقد رجّح ابنُ عطية (٢/٦٠٦) مســـتندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، فقال: «واختلف المتأولون في قوله: ﴿فِي بُرُوجٍ﴾، فالأكثر والأصح أنّه أراد: البروج والحصون التي في الأرض المبنية؛ لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثَّل الله لهم بها».

وبنحو هذا قال ابنُ كثير (٤/١٦٣)، حيث ذكر تفسير السدي البروج بأنها في السماء، وانتَقَده بقوله: «وهو ضعيف».

ثم قال: «والصحيح: أنها المنيعة».

وقد ذكر ابنُ عطية عن النقاش أنه حكى عن ابن عباس أنه قال: ﴿في بروج مشيدة﴾ معناه: في قصور من حديد.

ثم انتَقَده ابنُ عطية مســـتندًا إلى ظاهر القرآن قائلًا: «وهذا لا يعطيه اللفظ، وإنما البروج في القرآن إذا وردت مقترنة بذكر السماء: بروج المنازل للقمر وغيره، على ما سمتها العرب وعرفتها».

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ

أي: وإنْ تنَلْهم شِدَّةٌ؛ كضيقٍ في الرِّزق وقحطٍ وجدبٍ ونقصٍ في الثَّمرات وموتِ أولاد وأحباب، وهزيمةٍ من عدوٍّ، وإصابةٍ بجراحٍ وآلام، وغير ذلك من شدائدَ ومِحَنٍ، فإنَّهم يقولون: إنَّما أصابنَا ما أصابنا من بلايا بسببِ ما جئتَنا به يا محمَّدُ.

كما أخبر الله عن قوم فرعونَ في قولهم مثل ذلك لموسى عليه السلام؛ حيث قال سبحانه: فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ [الأعراف: 131].

وكما قال قومُ صالحٍ عليه السَّلام له: قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ [النمل: 47].

قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ(146)

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء القومِ: جميعُ ما أصابكم من حَسنةٍ أو سيِّئة، فهو بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه.

---

(146) تنوعت عبارات السلف في تفسير قوله: ﴿قل كل من عند الله﴾؛ فمن قائل: النعم والمصائب.

ومن قائل: السيئة والحسنة.

ومن قائل: النصر والهزيمة.

وهذا كله -كما وجّهه ابن عطية (٢/٦٠٧) - شيء واحد.

فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا

أي: عجبًا لهؤلاء القومِ؛ ما شأنُهم لا يفهمونَ حديثًا ولا يَقرُبون من فَهمِه! ومن ذلك حقيقةُ أنَّ كلَّ ما أصابَهم فمِن عندِ الله تعالى، بتَقديرِه ومَشيئته، لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه؟!

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79)

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

أي: ما تُؤتاه – يا محمَّدُ– من نِعَم الدِّين والدُّنيا، فهو من فضلِ الله تعالى ورحمتِه.

وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ

أي: وما ينالُكَ من أذًى ومكروهٍ؛ فبسببِ ذنبٍ صَدَر منك.

كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 30].

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا

أي: إنَّما بعثناك– يا محمَّدُ– رسولًا بيننا وبين النَّاس عامَّةً، تُبلِّغهم شرائعَ الله تعالى، وما يُحبُّه ويرضاه، وما يكرَهُه ويأباه.

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

أي: وحَسْبُك اللهُ عزَّ وجلَّ شاهدًا على أنَّه أرسَلك، وشاهدًا على إبلاغِك رِسالتَه، وشاهدًا على مَن أُرسلتَ إليهم في قَبولهم أو رَفْضِهم رسالتَك.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (80-84)

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ
فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) وَإِذَا
جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا
(83)

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)

غريبُ الكَلِمات:

بَرَزُوا: خرَجوا إلى الفَضاءِ والمتَّسعِ من الأرض، وأصل (برز): ظهور الشَّيء وبُدُوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ وبادٍ غيرُ خفيٍّ.

بَيَّتَ طَائِفَةٌ: أي: دَبَّروا وزوَّروا، أو قالوا وقدَّروا ليلًا، يقال: بيَّت فلان رأيَه: إذا فكَّر فيه ليلًا، وأصل البَيْت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلَق أيضًا على المآبِ ومجمَع الشَّمل.

يَتَدَبَّرُونَ: يتأمَّلون في معانيه، ويَتبصَّرون ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ الأمرَ، أي: نظرتُ في عاقبتِه، والتَّدبير: التَّفكُّر في دُبُر الأمور، ثمَّ جُعِل كلُّ تمييزٍ تدبُّرًا، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلافُ قُبُله.

أَذَاعُوا بِهِ: أي: أشاعُوه وأفشَوْه، وتحدَّثوا به، والإذاعة: الإفشاءُ والتَّفريق، وأصل (ذيع): يدلُّ على إظهارِ الشَّيء، وظُهورِه وانتشاره.

يَسْتَنْبِطُونَهُ: أي: يَبْحثون ويُنقِّرون عنه ويَستخرجونه، مأخوذٌ من النَّبَطِ، وهو الماءُ يخرُجُ من البِئر أوَّلَ ما تُحفَر، وأصل (نبط): يدلُّ على استخراجِ شيءٍ.

بَأْسًا: أي: عَذابًا، وشِدَّةً في النِّكايةِ، وأصلُ (بأس): الشدَّة وما ضاهاها.

تَنْكِيلًا: أي: نِكايةً في العَدوِّ، وعُقوبةً وتعذيبًا، وهو مَصدَر: نكَّلَ بفُلانٍ يُنكِّل به تَنكيلًا: إذا أوجعَه عُقوبةً، وفعَلَ به ما يَمْنَعُه من المعاودةِ ويَمْنَعُ غيرَه مِن إتيانِ مِثلِ صَنيعِه، وأصلُ (نكل): يدلُّ على مَنْعٍ وامتناعٍ.

تفسير الآيات:

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80)

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ

أي: كلُّ مَنْ أطاعَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقد أطاع اللهَ سبحانه؛ لكونِه لا يَنطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى؛ فهو لا يأمُرُ ولا ينهى إلَّا بأمرِ اللهِ تعالى وشرعِه ووحيِه.

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصَاني فقد عصَى اللهَ)).[147]

وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا[148]

أي: ومَن أعرَض عن طاعتِك- يا محمَّدُ- فلا عليك منه، ولا تُسأَلُ عنه، إنْ عليك إلَّا البلاغ؛ فإنَّا لم نُرسِلْك عليهم حافظًا لِما يعمَلون ومُحاسِبًا، بل أرسلناك مبلِّغًا ومبيِّنًا وناصحًا، وقد أدَّيتَ وظيفتَك، ووجب أجرُك على اللهِ عزَّ وجلَّ، سواءٌ أطاعوا أم أعرَضوا.

---

(147) رواه البخاري (7137)، ومسلم (1835).

(148) ذكر ابنُ عطية (٢/٦١٠) في قوله:﴿حفيظا﴾ احتمالين، فقال: «و﴿حَفِيظًا﴾ يحتمل معنيين؛ أي: ليحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي ونحوه، أو ليحفظ مساوئهم وذنوبهم ويحسبها عليهم».

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ

أي: ويقولُ المنافقون لك– يا مُحمَّدُ–: سنُطيعك ولا يكونُ منَّا عِصيانٌ.

فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ

أي: فإذا خرَجوا مِن عندك– يا مُحمَّدُ– وخلَوْا في حالةٍ لا تطَّلعُ فيها عليهم.

بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ

أي: استسَرَّ جماعةٌ منهم ليلًا فيما بينهم بغيرِ ما أظهَروه لك، وغيَّروا ما تقولُ لهم فاستقرُّوا على معصيتِك.

وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ

أي: إنَّ اللهَ تعالى يحفظُ عليهم هذا العصيانَ الَّذي بيَّتوه، وسيُجازيهم عليه أتمَّ الجزاء، فلا تحزَنْ عليهم– يا مُحمَّدُ– ولا تكُ في ضَيقٍ ممَّا يفعَلون، فإنَّ أمرَهم لا يخفى على اللهِ جلَّ وعلا.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

أي: فأعرِضْ- يا محمَّدُ- عن هؤلاء المُنافِقين، وخَلِّهم وما هم عليه من الضَّلالةِ، ولا تؤاخِذْهم، ولا تخَفْ منهم، ولا تشغَلْ بالَك بهم.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

أي: واعتمِدْ أنتَ- يا محمَّدُ- على اللهِ تعالى وثِقْ به.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

أي: وحَسْبُك باللهِ سبحانه وليًّا وناصرًا ومُعِينًا.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ

أي: أفلا يتأمَّلُ هؤلاء المنافِقون معانيَ القُرآن، وينظُرون في مبادئِه وعواقِبه، ولوازِمِ ذلك، فتظهَرَ لهم براهينُ الحقِّ، وتلوحَ أدلَّتُه، ويعلَموا حُجَّةَ اللهِ عليهم في طاعة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم واتِّباعِ أمره؟

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

أي: ولو كان القرآنُ مفتعَلًا ومختَلَقًا مِن عندِ أحدٍ، لاضطَرَبَتْ أحكامُه، واختلفَتِ اختلافًا كبيرًا، وتناقضت معانيه كثيرًا، وأبان بعضُه عن فسادِ بعضٍ.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ

أي: وإذا أتَى هؤلاء المنافِقِينَ خبرٌ يتعلَّقُ بأمْنِ المؤمنين، أو خَبرُ أمرٍ يُوجِبُ خوفَ المؤمنين.

أَذَاعُوا بِهِ

أي: أفشَوْه وأشاعوه على الفورِ دون تثبُّتٍ وتحقُّقٍ من صحَّتِه أوَّلًا.

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ(149)

أي: ولو أَرجَعوا هذا الأمرَ قبل بثِّه، إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى أُمرائِهم وعلمائِهم حتَّى يكونَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أو ذَوُو أمرِهم هم الَّذين يقولون الخبرَ عن ذلك، بعد أن

---

(149) ذكر ابنُ عطية (٢/٦١٤) قول من فسر أولي الأمر بالأمراء، ومَن فسره بالعلماء، ثم علّق قائلًا: «والمعنى يقتضيهما معًا».

ثبتَتْ عندهم صحَّتُه أو كذبُه، إن رأَوْا في إذاعتِه مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم، وتحرُّزًا من أعدائِهم، وإن رأَوْا أنَّه ليس فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكنَّ مضرَّتَه تزيدُ على مصلحتِه، لم يُذِيعوه.

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ

أي: لعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبرِ على الوجهِ المرادِ مِن الأمنِ أو الخوف، الَّذين يَبحَثون عنه، ويَستعلِمونه من معادنِه، ويَستخرجون ما خفِيَ من المعاني بفِكرِهم وآرائِهم السَّديدةِ، وعلومِهم الرَّشيدةِ، حتَّى يصِلوا إلى حقيقةِ الأمرِ بإذنِ الله تعالى.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

أي: ولولا إنعامُ اللهِ عليكم- أيُّها المؤمنون- بفضلِه وتوفيقِه ورحمتِه وإحسانِه وتأديبِكم، وتعليمِكم ما لم تكونوا تعلَمون.

لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا(150)

أي: لكُنتُم مِثلَ المنافقين فاتَّبعتم الشَّيطانَ في إذاعةِ الأخبار، باستثناءِ القليلِ مِن الإذاعةِ.

---

(150) أفادت الآثار اختلاف السـلف فيمن اسـتثناه الله بقوله: ﴿إلا قليلا﴾ على أقوال: الأول: أنه راجع إلى المسـتنبطين، فتقديره: لَعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلًا.

الثاني: أنه راجع إلى الإذاعة، فتقديره: أذاعوا به إلا قليلًا.

الثالث: أنه راجع إلى اتِّباع الشيطان، فتقديره: لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا منكم.

وقد رجّح ابنُ جرير (٧/٢٦٥بتصرف) مستندًا إلى الدلالة العقلية، والأظهر من كلام العرب القول الثاني، ومنتقدًا بقية الأقوال.

وقيل: لاتَّبعتُم الشَّيطانَ في كلِّ ما تفعلونه إلَّا قليلًا مِن أفعالِكم وأحوالِكم.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: فجاهِدْ- يا محمَّدُ- بنفسِك أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله جلَّ وعلا.

لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ

أي: ليس لك قدرةٌ على غيرِ نفسِك، وإنَّما عليك ما كُلِّفْتَه دون ما كُلِّفَه غيرُك.

وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: وحُضَّهم- يا محمَّدُ- على القتالِ، ورغِّبْهم فيه وشجِّعْهم عليه.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: لعلَّ اللهَ تعالى أن يمنَعَ ويرُدَّ عنكم قوَّةَ الكافرين وشوكتَهم، وينصُرَكم عليهم بسببِ القتال في سبيلِ الله تعالى والتَّحريض عليه؛ فبالتَّحريض عليه تنبعِثُ الهِمَمُ على مناجَزةِ الأعداء، والمدافعةِ عن حَوزةِ الإسلام وأهلِه.

وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا

أي: واللهُ تعالى أشدُّ قوةً وصَولةً من أولئك الكفَّارِ، وهو قادرٌ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ.

وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا

أي: وهو سبحانه أشدُّ عقوبةً وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه، من نِكايةِ الكفَّارِ بالمؤمنين.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (85-87)

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85)
وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

غريبُ الكَلِمات:

يَشْفَعْ شَفَاعَةً: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، وأصْلُ الشَّفْع: ضمُّ الشَّيء إلى مِثلِه.

كِفْلٌ: أي: نصيب، وأَصْل (كفل): يَدلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

مُقِيتًا: أي: قَدِيرًا ومُقْتدِرًا، وقيل: شاهِدًا وحافِظًا، وحقيقتُه: القائِمُ على كلِّ شيءٍ يَحفظُه ويُقيتُه. وأصلُ (قوت): يَدلُّ على قُدرةٍ على الشَّيءِ، والإمساكِ والحِفظِ.

حَسِيبًا: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدرًا، وعالِمًا ومحاسبًا، ومنه: أَحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني.

تفسير الآيات:

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85)

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً

أي: مَن يَسعَ في معاونةِ غيرِه بما يجلِبُ له النَّفعَ والخير، ويدفعُ عنه الضُّرَّ والشَّرَّ.

يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا

أي: يكُنْ له حظٌّ من ثواب الله تعالى.

عن أَبي موسى الأشعري رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا جاءَه السائلُ، أو طُلِبَتْ إليه حاجةٌ، قال: اشفَعوا تؤجَروا، ويَقضي اللهُ على لسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شاء)).[151]

وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً

أي: ومَن يَسعَ في مُعاونةِ غيرِه على أَمرٍ من الشَّرِّ.

يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا

(151) رواه البخاري (1432).

أي: يكُنْ عليه وِزرٌ وإثمٌ مِن ذلك الأمرِ الَّذي تَرتَّبَ على سَعيِه ونيَّتِه.

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا[152]

أي: إنَّ اللهَ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وحفيظٌ وحسيبٌ، فيُجازي كُلًّا بما يستحقُّه.

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ

أي: إذا سُلِّم عليكم بسلامٍ، وحُيِّيتم بأيِّ تحيةٍ كانت، أو دُعِي لكم بطولِ الحياةِ والبَقاء.

فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا

فرُدُّوا التَّحيةَ والسَّلام، وادْعُوا لِمَن دعَا لكم بأحسَنَ ممَّا حيَّاكم ودعا لكم وأفضَلَ، لفظًا وبَشاشةً، أو رُدُّوا عليه بمثلِ دُعائِه وتحيَّتِه.[153]

---

(152) اختلف السلف في المراد بقوله: ﴿مقيتا﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أن معناه: الحفيظ والشهيد والحسيب.

الثاني: أنه القائم على كل شيء بالتدبير.

الثالث: أن المقيت: القدير.

وقد رجّح ابنُ جرير (٧/٢٧٢-٢٧٣) مستندًا إلى اللغة أنّ المقيت: القدير.

(153) عن الحسن البصري، قال: السلام تطوُّع، والرَّدُّ فريضة.

علَّق ابنُ كثير (١٨٦/٢) على قول الحسن، فقال: «وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة: أنّ الردَّ واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾»

عن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خلَقَ اللهُ آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذراعًا، فلمَّا خلَقَه، قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك؛ نفرٍ من الملائكةِ جلوسٍ، فاستمِعْ ما يُحيُّونك؛ فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك، فقال: السَّلامُ عليكم، فقالوا: السَّلامُ عليك ورحمةُ اللهِ، فزادوه: ورحمةُ اللهِ، فكلُّ مَن يدخلُ الجنَّةَ على صورةِ آدمَ، فلم يزَلِ الخَلْقُ ينقُصُ بعدُ حتَّى الآن)).[154]

وعن عِمران بن الحُصين رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ - ﷺ - فقالَ: السَّلامُ عليكُم، فردَّ عليهِ ثمَّ جلَسَ، فقالَ النَّبيُّ - ﷺ -: عشرٌ، ثمَّ جاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ، فردَّ عليهِ ثمَّ جلسَ، فقالَ: عِشرون، ثمَّ جاءَ آخرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبرَكاتُهُ، فردَّ عليهِ فجلسَ، فقالَ: ثلاثونَ)).[155]

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا

أي: إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ ممَّا يعمَل النَّاسُ من طاعةٍ أو معصيةٍ حفيظٌ ومُحْصٍ له، حتَّى يجازيَهم به.

---

(154) رواه البخاري (6227).

(155) رواه أبو داود (5195)، والترمذي (2689)، وأحمد في المسند (19948)، والدارمي (2682).

قال الترمذيُّ: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وحسن إسناده البيهقي في ((شعب الإيمان)) (8480)، وقوى إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (8/11)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((تخريج المشكاة)) (1318/3).

وقال الوادعي ((الصحيح المسند)) (1029):حسن على شرط مسلم.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أي: إنَّ الله تعالى وحْدَه هو المعبود بحقٍّ، فلا يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو سبحانه.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أي: واللهِ ليحشرَنَّكم اللهُ تعالى جميعًا إلى موقِفِ الحساب، فيجمَعُ أوَّلكم وآخِرَكم في صعيدٍ واحد فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

لَا رَيْبَ فِيهِ

أي: لا شكَّ بوجهٍ من الوجوه في حقيقةِ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمَعُ النَّاسَ يوم القيامة بعد مماتهم.

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا

أي: لا أحدَ أصدقُ منه في حَديثِه وخَبرِه، ووعْدِه ووعِيدِه سبحانه؛ فحديثُه وأخبارُه وأقوالُه في أعلى مراتبِ الصِّدقِ.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (88-91)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ
يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا
إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91)

غريبُ الكَلِمات:

فِئَتَيْنِ: فِرْقَتينِ مُختلفتينِ، مُثنَّى فِئة، وهي: الجماعة المُتظاهرةُ الَّتي يرجِع بعضُهم إلى بعضٍ في التعاضُد.

أَرْكَسَهُمْ: نَكَّسَهم وردَّهم في كُفرِهم، وأصل الرِّكْسِ: قلبُ الشَّيءِ على رأسِه، وردُّ أوَّله إلى آخره.

يَصِلُونَ: يَنتسِبون، أو يتَّصلون بقوم، والاتِّصالُ: اتِّحادُ الأشياء بعضها ببعض كاتِّحاد طرفَي الدائرة، والاتصالُ ضدُّ الانفصال، والوصلُ: ضِدُّ الهِجرانِ، وأصل (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يَعلَقَه.

مِيثَاقٌ: أي: عقدٌ وعَهْدٌ مؤكَّد بيمينٍ، أو عهدٌ مُحكَم، وأصلُه: العقدُ والإحكام.

حَصِرَتْ: أي: ضاقتْ عن قِتالكم، والحصْر: التَّضييق، وأصل (حصر): الحَبْسُ والمَنْعُ.

اعْتَزَلُوكُمْ: اجتَنبُوكم، والاعتزال: تجنُّب الشَّيء؛ عمَالةً كانتْ أو براءةً، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ.

السَّلَمَ: أي: الصُّلح، والسَّلَم اسمٌ بإزاء الحَرْب، وهو أيضًا التَّعرِّي من الآفاتِ الظَّاهرة والباطنة، والاستسلامُ والانقياد، وأصل (سلم): يدلُّ على الصِّحَّة والعافية.

الْفِتْنَةِ: أي: الشِّرْكِ والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصْل: الاختِبار والابتلاء والامتِحان؛ مأخوذة من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه من رَداءتِه.

سُلْطَانًا: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القوَّة والقهر، مِن التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطان سُلطانًا.

تفسير الآيات:

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ

فَلِمَ اختلفْتُم– أيُّها المؤمنون– في شأنِ المنافقين على قَوْلَينِ؛ ما بين مُكَفِّرٍ لهم وغَيْرِ مكفِّرٍ؟.[156]

وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا

أي: والحالُ أنَّ الله تعالى قد ردَّهُم إلى الكُفرِ وأوقَعَهُم فيه؛ بسَببِ ما اقْتَرفوه مِن آثامٍ وسيِّئاتٍ؛ فلا يَنبغي لكم أنْ تَشْتَبِهوا فيهم، ولا تَشكُّوا، بل أمْرُهم واضحٌ غيرُ مُشكِلٍ، فالصَّوابُ مع مَن قال: إنَّهم كافِرون.

---

(156) أفادت الآثار اختلاف المفســـرين فيمن نزل قوله تعالى: ﴿فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ على أقوال: الأول: في الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، وقالوا: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم.

الثاني: في قوم قَدِمُوا المدينة فأسلموا، ثم رجعوا إلى مكة فارتدوا وأظهروا الشرك.

الثالث: في قوم أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يُعينون المشركين على المسلمين.

الرابع: في قوم من أهل المدينة أرادوا الخروج عنها نفاقًا.

الخامس: أنها نزلت في قوم من أهل الإفك.

ورَجَّح ابنُ جرير (٧/٢٨٦) مستندًا إلى ظاهر القرآن القول الثاني.

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

أي: أتودُّون– أيُّها المؤمنون– أنْ تُوَفِّقُوا للإِقْرَارِ بدِينِ اللهِ تعالى والدُّخول فيه مَنْ خَذَلَه اللهُ عنه فَلَمْ يُوَفِّقْهُ لذلك؟

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا

أي: ومَنْ خَذَلَه الله تعالى عن دِينِه فلم يوفِّقْه لسُلُوك طريقِ الهدى، فلا طريقَ له إليه، ولا مَخْلصَ له إليه.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89)

وَدُّوا[157] لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً

---

(157) ذهب ابنُ عطية (٢/٦٢٢) إلى أنّ الضـــمير في ﴿ودُّوا﴾ عائد على المنافقين، وذكر احتمالين للوُدّ منهم: الأول: «أن يكون عن حسد منهم لهم على ما يرون للمؤمنين من ظهور في الدنيا».

ثم علَّق عليه بقوله: «فتجري الآية: مع وُدِّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم».

والثاني: «أن يكون أنهم رأوا المؤمنين على غير شيء فودوا رجوعهم إلى عبادة الأصنام».

ثم استظهر الأول قائلًا: «والأول أظهر».

ولم يذكر مستندًا.

أي: إنَّ هؤلاءِ المنافقِينَ الَّذين اختلفتُم فيهم– أيُّها المؤمنون– إلى فِئتينِ، يتمنَّوْن لكم الوقوعَ في الكُفْر فتكونون كُفَّارًا مثلَهُم وتَسْتَوونَ أنتم وهُمْ في ذلك.

فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: فلا تتَّخِذوا منهم أولياءَ وأخِلَّاءَ تُوالُوهم أو يُوالونكم، حتَّى يُؤمِنوا ويقدِّموا إثباتًا على إيمانِهِم بمفارقَةِ دار الشِّرْك وأهلِه إلى دار الإسْلام وأهلِه؛ ابتغاءَ دينِ الله تعالى ومَرْضَاته.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

أي: فإنْ أعْرَضُوا عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى وتركوا الهجرةَ في سَبِيله سبحانه، فاحْمِلوا عليهم بالقِتال وخُذُوهم أسرى، واقتلُوهم في أيِّ مكانٍ وجدتموهُم فيه.

وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

أي: لا تُوالُوا أيَّ أحدٍ منهم يُوالِيكم على أموركم، ويكونُ موضِعَ أسرارِكم ومَشُورتكم ومحبَّتكم، ولا تطلُبوا من أيِّ أحدٍ منهم نُصْرةً لكم على أعدائِكُم.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90)

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ

أي: سِوَى مَن لجَأ من هؤلاء المنافقينَ إلى قومٍ بينكم وبينهم مُهادَنَةٌ وعَهْد ومِيثاقٌ بترْك القتال، فدخلوا فيهم، فاجعلُوا حُكْمَهم كَحُكْمِهم في حَقْنِ الدِّمَاء والأمْوَال.

أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ(158) صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ

أي: أو أَتَوْكم وقدْ ضاقتْ صُدورُهم عن قِتَالكم أو قِتَالِ قومِهم فيُبْغِضُون قِتالكم، ولا يَهُون عليهم أيضًا قِتَالُ قومِهم معكم؛ فلا هُمْ لكم ولا عليكم، فاتْرُكوا قِتالَ وقَتْلَ هذه الطائفةِ أيضًا.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ

أي: ولو شاءَ الله عزَّ وجلَّ لسلَّط عليكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقين فَقَاتَلوكم، ولكِنْ مِنْ لُطْفِه بكم أنْ كَفَّهُم عنكم.

قيل المقصود بهم هنا: الطَّائفةُ الثَّانية، وقيل: كِلتَا الطَّائِفَتينِ الْمُسالِمتَيْنِ الَّلتيْنِ استثَنَاهما الله تعالى مِنْ قتالِهِم وقتلِهم.

---

(158) نقل ابنُ عطية (٢/٦٢٤) عن المبرد أنّ قوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ﴾: «دعاءٌ عليهم».
ونقل عن بعض المفسرين قولهم: «لا يصح هنا الدعاء؛ لأنه يقتضي الدعاء عليهم بأن لا يقاتلوا قومهم، وذلك فاسد».
ثم وجَّه ابنُ عطية قول المبرد بقوله: «وقول المبرد يُخَرَّج على أن الدعاء عليهم بأن لا يقاتلوا المسلمين تعجيز لهم، والدعاء عليهم بأن لا يقاتلوا قومهم تحقير لهم، أي: هم أقل وأحقر، ويستغنى عنهم، كما تقول إذا أردت هذا المعنى: لا جعل الله فلانًا عَلَيَّ ولا معي أيضًا، بمعنى: أستغني عنه، وأستَقِلُّ دونه».

فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ

أي: فإنِ انْصرَف عن قِتالِكم هؤلاء الَّذين أمَرْتُكم بالكفِّ عن قِتَالِهِم من المنافقين، وآثَرُوا الْمُسَالمة، وصالحُوكم.

فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا

أي: إذا استَسْلَمَ لكم هؤلاء المنافقون صُلحًا منهم لكم، فلم يَجعلِ اللهُ تعالى لكم على أنفسِهم وأموالِهِم وذَرَارِيّهم ونسائِهم طريقًا مُباحًا إلى قَتْلٍ أو سِبَاءٍ أو غَنِيمة.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91)

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ

أي: ستطَّلِعون- أيُّها المؤمنون- على صِنفٍ آخرَ من المنافقين يُظْهِرون للنَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولأصحابه الإسلامَ؛ خوفًا منهم لِيَأْمَنوا بذلك على دِمَائهم وأموالِهِم وذَرَارِيّهم ونسائِهم، ويُصَانِعون قومَهُم الكُفَّارَ في الباطِنِ، فيعبدُون معهم ما يعبُدُون من دونِ الله تعالى؛ لِيَأمَنُوا كذلك عِنْدَهم على دمائِهم وأموالِهِم وذرارِيّهم ونسائِهم.

كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا

أي: كلَّما عَرَضَتْ لهم فتنةٌ بِدَعْوَتهم إلى الكُفْر والشِّرْك بالله تعالى، أجابوا إلى ذلك، فازدادُوا إيغالًا وانْهِمَاكًا في الكُفْر والشِّرْك.

فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ

أي: فَهُؤلاء إنْ لم يتركُوا قتالَكم، ولم يَسْتَسلِمُوا إليكم ويُصَالِحُوكم.

فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ

أي: فخُذُوهم أسْرى وأَعْمِلوا فيهمُ القتْلَ أينما لَقِيتُمُوهم؛ فإنَّ دماءَهم حلالٌ لكم.

وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا

أي: وهؤلاء جَعَلْنا لكم حُجَّةً واضحةً في استحقاقِهِمُ القتلَ.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (92–94)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)

غريبُ الكَلِمات:

ضَرَبْتُمْ: أي: سافرْتُم وسِرْتُم، وخرجتم وتباعدتُم في الأرض، وأصلُ الضَّرْب: إيقاعُ شيء على شيء.

تَبْتَغُونَ: تطلُبون؛ يُقال: بَغَى الشَّيءَ، أي: طلبَه، وأصلُ البَغْي: جِنْسٌ من الفساد، ويُطْلَق على طلبِ الشَّيء، والظُّلْم، والتَّرفُّع والعُلُوِّ، ومُجاوَزَة المقدار.

عَرَضَ الْحَيَاةِ: أي: الغَنيمةَ، أو المالَ، ويُطلقُ العَرَضُ على المتاع والحُطام، وأصل (عرض): العَرْضُ الذي يُخالِفُ الطُّولَ.

فَمَنَّ: أي: أنْعَم، وصنَعَ الصُّنع الجميل، والمِنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل (منن): اصطناعُ الخير.

تفسير الآيات:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً

أي: ليس لمؤمنٍ أنْ يقتُل أخاه المؤمنَ ولا يَحِلُّ له ذلك، كما أنَّه أمْرٌ ممتنعٌ صدورُهُ من مؤمنٍ؛ لأنَّه منافٍ للإيمان، إلَّا أن يرتكِبَ ذلك غيرَ عامدٍ له ولا قاصِدٍ إليه.[159]

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

---

(159) اخْتُلِفَ فيمن نزلت: ﴿وما كانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إلا خَطَأً﴾ على قولين: الأول: نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وكان قد قتل رجلًا مسلمًا بعد إسلامه، وهو لا يعلم بإسلامه.

الثاني: نزلت في أبي الدرداء.

ورجَّح ابنُ جرير (٧/٣١٠) عدم القطع بقول منها مستندًا إلى عدم الدّليل القاطع بأحدهما وجوازهما في المعنى.

وزاد ابنُ عطية (٢/٦٢٨) قولًا، ولم ينسبه: أنها «نزلت في أبي حذيفة اليماني حين قتل خطأً يوم أحد».

ثم قال: «وقيل غير هذا».

أي: إذا ارتكبَ المؤمنُ القتْلَ غيرَ عامدٍ له ولا قاصِدٍ إليه، فعليه أن يُكَفِّرَ عن ذلك بتحريرِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من رِقِّ العبوديَّةِ.

وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا

أي: وعلى القاتِلِ دفْعُ دِيَةٍ كاملة- ولكنْ تتحمَّلُها عاقِلَتُه- إلى ورثَةِ المقتولِ عِوَضًا لهم عمَّا فاتَهُم من قريبِهم وجَبْرًا لقلوبِهم إلَّا إذا تصدَّقُوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تجب حينئذٍ.

فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

أي: فإنْ كان هذا المقتولُ الَّذي قَتَلَه المؤمِنُ خطأً من كُفَّارٍ حربِيِّينَ، لكنَّه مؤمنٌ، فلا دِيَةَ لهم، وعلى القاتل عِتْقُ رقبةٍ مؤمنة لا غيرُ.

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ

أي: وإنْ كان القَتيلُ الَّذي قتَلَه المؤمنُ خطأً من قومٍ بينكم- أيُّها المؤمنونَ- وبينهم عهْدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا أهلَ حربٍ لكم.

فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

أي: فعَلى القاتِلِ دِيَةٌ- تتحمَّلُها عاقِلَتُه- يدفعها إلى ورثة المقتولِ، وعِتْقُ رقبةٍ مؤمنة كفَّارةً لقتْلِه.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ(160)

أي: فمَن لم يَجِدْ رقبةً مؤمنةً يُعْتِقُها كفَّارةً لخطئه في القتل، أو لم يَجِدْ ثمَنَها، بأنْ كان مُعْسِرًا، ليس عنده ما يَفْضُل عن حوائجِه الأصليَّة، فعليهِ صيامُ شهرين، يَسْرُدُ صومَهُما إلى آخرِهِمَا دون إفطارٍ فيهما.

تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ

أي: هذه الكَفَّاراتُ الَّتي شرَعَها اللهُ للمُؤمِنِ الذي قَتَلَ مؤمنًا خطأً؛ توبةً منه على عباده ورحمةً بهم، وتكفيرًا لما عَسَاه أنْ يَحصُلَ منهم من تقصيرٍ وعَدَمِ احترازٍ، ولو شاء اللهُ تعالى لشَقَّ عليهم، ولكان الواجبُ بقتلِ الخطأِ أكبرَ من ذلك.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بما يُصلِحُ عباده فيما يكلِّفُهم من فرائِضِه وغير ذلك، وهو سبحانه الحكيم في كلِّ شيء، فيَضَع كلَّ شيء في موضِعِه اللَّائق به، ومن ذلك حِكْمَته فيما يَشْرَعه لعباده من أحكام.

---

(160) اخْتُلِفَ في صوم الشهرين هل هو عن الرقبة، أم عن الدية والرقبة؟ على أقوال: الأول: عن الرقبة دون الدية.

الثاني: عن الدية والرقبة.

ورجَّح ابنُ جرير (٧/٣٣٥) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا[161]

أي: ومَن يقتُلْ مؤمنًا مُتَعَمِّدًا قتْلَهُ، قاصدًا إتلافَ نفسِهِ، فإنَّما عقوبتُه الَّتي يستحِقُّها إنْ عَاقَبَهُ الله تعالى الخُلُودُ في نار جهنَّم- فقد يكون له من توحيدِ الله تعالى وتوبتِهِ وأعمالِه الصَّالِحَة ما يَصْرِف عنه هذه العقوبةَ- وقيل: بلِ المرادُ بالخلودِ هنا الْمُكْث الطويلُ؛ إذ لا يُخَلَّد مَنْ في قلبه إيمانٌ في النَّارِ أبَدَ الآبدينِ.

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

أي: سَخِطَ عليه الجبَّارُ سبحانه، وطَرَدَه وأبعدَهُ من رحمته جَلَّ وعَلا.

---

(161) اختُلِف في معنى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِدًا فِيها﴾ على أقوال: الأول: فجزاؤه جهنم إن جازاه.

الثاني: ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا مستحِلًّا قتله، فجزاؤه جهنم خالدًا فيها.

الثالث: فجزاؤه جهنم إلا من تاب.

الرابع: أنها جزاؤه قطعًا، ولا توبة له.

ورجَّح ابنُ جرير (٧/٣٥٠) القول الأول مع بيانه أن أهل الإيمان لا يخلدون استنادًا إلى القرآن، ثم قال: «ولكنه يعفو ويتفضل على أهل الإيمان به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه -تعالى ذِكْره- إما أن يعفو بفضله فلا يُدخِلَه النار، وإما أن يُدخِله إيّاها ثم يُخرِجه منها بفضل رحمته؛ لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]».

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا

أي: وهَيَّأَ اللهُ تعالى له عقوبةً كبيرةً، لا يعلمُ قَدْرَ مَبْلغِها سِواه عزَّ وجلَّ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)

سَببُ النُّزول:

عنِ ابْنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا قال: كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحِقَه المسلمون. فقال: السَّلامُ عليكم فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَته فأنزل الله في ذلك إلى قوله: عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تلك الغُنَيْمَة.[162]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا

أي: يا أيُّها المؤمنون إذا سِرْتُم في جهادِ أعدائِكم فتأنَّوْا في قتلِ من أشكَلَ عليكم أمرُهُ، فلم تعلموا حقيقةَ إسلامِهِ ولا كُفْرِه، ولا تَعْجَلُوا فتقتُلُوه قبل أنَّ تتثبَّتوا وتتيقَّنوا أمرَه.[163]

---

(162) رواه البخاري (4591) واللفظ له، ومسلم (3025).

(163) قال الرازي: (أجمع المفسـرون على أن هذه الآيات إنما نزلت في حق جماعة من المسـلمين لقوا قوما فأسـلموا فقتلوهم وزعموا أنهم إنما أسلموا من الخوف) ((تفسير الرازي)) (183/10).

القراءات ذات الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: فَتَبَيَّنُوا قراءتان:

1- فَتَثَبَّتُوا: من التثبُّت الَّذي هو خلاف العَجَلَة.(164)

2- فَتَبَيَّنُوا: من التبيُّن، بمعنى: التَّأنِّي والنَّظَر والكَشْف عنه حتَّى يتَّضِحَ.(165)

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا

أي: لا تقولوا لِمَنِ استسلم لكم فلم يُقاتِلْكم، مُظْهِرًا لكم أنَّه مُسْلِمٌ مِثْلُكم: لستَ كذلك، بل خُذُوه بظاهِرِ حاله.

---

(164) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 218).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (361/7)، ((الكشف)) لمكي (394/1).

(165) قرأ بها الباقون يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 218).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (361/7)، ((الكشف)) لمكي (394/1).

القراءات ذات الأثر في التَّفسير:

في قوله تعالى: السَّلَامَ قراءتان:

1- السَّلَمَ أي: الاستسلامُ والانقياد، فالمعنى: لا تقولوا لمنِ استسلَمَ إليكم وانقاد: لستَ مُسلمًا. (166)

2- السَّلَامَ الَّذي هو تحيةُ الإسلام، فالمعنى: لا تقولوا لِمَن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام: لستَ مؤمنًا. (167)

تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ

أي: فتقتلُوه لأجْل أخْذِ ما لديه من مالٍ طلبًا لمتاعِ الحياة الدُّنيا. فلا يحمِلَنَّكُمُ العَرَضُ الفاني القليلُ على ارتكابِ ما لا يَنبغي فيفُوتَكم ما عند الله من الرِّزْق والمغانم الحلال، فما عندَ الله خيرٌ لكم من مالِ هذا.

---

(166) قرأ بها المدنيَّان، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ وخلفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 218).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (395/1).

(167) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 218).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (395/1).

كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ[168] فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ[169] فَتَبَيَّنُوا

أي: قد كنتم– أيُّها المؤمنون– مِن قَبلُ تُخفُون إيمانَكم في قومِكم من المشركينَ وأنتم بين أظْهُرِهم، كهذا الَّذي قتلتُموه يُسِرُّ إيمانَه ويُخْفِيه من قَوْمِه من المشركين، فتفضَّلَ اللهُ عليكم بإعزازِ دينِه وإظهارِ ما كنتم تَسْتَخْفُون به، فتثبَّتُوا حتَّى يتَّضِحَ لكم أمْرُه قبل أنْ تقتلوه.

عن أبي ظَبْيَانَ قال: سمعتُ أسامةَ بنَ زيدِ بنِ حارثةَ رضِيَ اللهُ عنه يُحدِّث، قال: ((بعَثَنا النبيُّ – ﷺ – إلى الحُرَقةِ مِن جُهينةَ، فصبَّحْنا القومَ فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجُلٌ من الأنصارِ رجُلًا منهم، فلمَّا غَشيناه قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ فطعنتُه برُمحي فقَتلتُه، فلمَّا قَدِمْنا بلَغَ ذلك النبيَّ – ﷺ – فقال: يا أسامةُ، أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟! قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما كان مُتعوِّذًا! قال: أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟! قال: ما زالَ يُكرِّرها عليَّ حتَّى تمنيتُ أنِّي لم أكُنْ أسلمتُ قبلَ ذلك اليومِ!)).[170]

---

(168) اختُلِفَ في معنى: ﴿كَذَلِكَ كُنتُمْ مِن قَبْلُ﴾ على أقوال: الأول: كما كان هذا الذي قتلتموه مستخفيًا في قومه بدينه خوفًا على نفسه منهم، كذلك كنتم مستخفين من قومكم بإسلامكم، خائفين منهم على أنفسكم، فمَنَّ اللهُ عليكم.

الثاني: كما كان الذي قتلتموه بعد ما ألقى إليكم السَّلَم كافرًا، كذلك كنتم كفارًا، فهداكم الله كما هدى الذي قتلتموه.

ورجَّح ابنُ جرير (٧/٣٦٤) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول.

(169) اختُلِفَ في معنى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ على أقوال: الأول: فمَنَّ الله عليكم بإظهار دينه، وإعزاز أهله، وإعلانكم الإيمان.

الثاني: فمَنَّ الله عليكم بالتوبة على الذي قتل ذلك الرجل.

ورَجَّح ابنُ جرير (٧/٣٦٥) القول الأول.

(170) رواه البخاري (6872)، ومسلم (96).

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى بكلِّ ما تَعملونه وتَنْوُونَه ذو خبرةٍ وعِلْمٍ به ومِنْ ذلك قَتْلُكم مَن تَقتُلون، وكَفُّكم عمَّنْ تكفُّون عن قتْلِه، فيَحفَظ عليكم ذلك ويُجازيكم به.

سُورةُ النِّساءِ

الآيتين (95–96)

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95)

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)

غريبُ الكَلِمات:

أُولِي الضَّرَرِ: أي: أصحابِ العَجزِ- بالزَّمَانةِ والمرَضِ- ونحوهم؛ يُقال: ضريرٌ بيِّنُ الضَّرر، وأصل (ضرر): خلافُ النَّفْع.

تفسير الآيتين:

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95)

سَببُ النُّزول:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعديِّ، أنَّه قال: ((رأيتُ مَرْوانَ بنَ الحَكَمِ جالسًا في المسجدِ، فأقبلتُ حتَّى جلستُ إلى جَنبِه فأخْبَرَنا أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ رضِيَ اللهُ عنه أخْبَرَه أنَّ رسولَ الله – ﷺ – أمْلَى عليه: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قال: فجاءَه ابنُ أمِّ مَكتومٍ وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ– وكان رجلًا أعْمَى– فأَنْزلَ اللهُ تباركَ وتعالَى على رسولِه – ﷺ – وفَخِذُه على فَخِذي[171] فثَقُلَتْ عليَّ حتَّى خِفْتُ أنْ تَرُضَّ فَخِذي، ثم سُرِّيَ عنه،[172] فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ)).[173]

---

(171) تَرُضَّ– بفَتْحِ التاءِ وضمِّ الراء، ويجوز العكسُ تُرَضَّ–: أي: تَدُقَّ وتَكسِر، أو تُدَقَّ وتُكْسَر، من الرَّضِّ، وهو: الدقُّ، وكلُّ شيءٍ كَسرتَه فقدْ رَضضتَه.

ينظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (344/18).

(172) سُرِّيَ: أي: كُشِفَ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (261/8).

(173) رواه البخاري (2832).

وفي روايةٍ أخرى، عنِ البَرَاءِ، قال: ((لَمَّا نَزَلَتْ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قال النَّبِيُّ – ﷺ –: ادعُ لي فلانًا، فجاءَه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ، أوِ الكَتِفُ، فقال: اكتب لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ وخلْفَ النَّبِيِّ – ﷺ – ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أنا ضَرِيرٌ، فنزَلَتْ مَكانَها لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)).[174]

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

أي: لا يَستوي مَن لم يَخرُجْ للجهادِ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا– إلَّا مَن تخلَّف عن الجهادِ لعُذْرٍ– مع مَن جاهَدَ من المؤمنين بنفسِهِ ومالِهِ.

فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً

أي: فضَّل اللهُ المجاهدين ببذْلِ أموالِهم وأنفسِهم على القاعدينَ بدرجةٍ رفيعةٍ.

عن أبي هُريرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن آمَنَ باللهِ ورسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ، هاجر في سبيلِ اللهِ، أو جلس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نُنبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مائةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ

(174) رواه البخاري (4594) واللفظ له، ومسلم (1898).

للمجاهدين في سبيلِه، كلُّ درجتيْنِ ما بينهما كما بين السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فسلُوهُ الفردوسَ، فإنَّهُ أوسطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ)).[175]

وعن كَعبِ بنِ مُرَّةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن بلَغَ العدوَّ بسَهمٍ رَفَعَ اللهُ له درجةً، فقالَ له عبدُ الرَّحمنِ بنُ النَّحَّامِ: وما الدَّرجةُ يا رسولَ اللهِ؟ قال أمَا إنَّها ليستْ بعَتَبةِ أمِّك، ما بين الدَّرجتَيْن مائةُ عامٍ)).[176]

وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى

أي: وعَدَ اللهُ كُلًّا مِن المجاهِدين بأموالهم وأنفسِهم، والقاعِدين: الجنَّةَ.

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: وفضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهم على القاعِدينَ جزاءً كبيرًا وثوابًا جزيلًا.

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)

---

(175) رواه البخاري (7423)، ورواه مسلم (1884) بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(176) رواه أحمد (18063)، والنسائي في الكبرى (4337)، وابن حبان (4616).

قال المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (2/249): إسنادُه صحيحٌ أو حسنٌ أو ما قاربهما.

وصحَّحه الألبانيُّ في ((الترغيب)) (1287)، وقال الوادعي في ((أحاديث معلَّة)) (355): رجالُ سندِه رجالُ الصَّحيح، ولكنَّ أبا داود قال سالم لم يَسمعْ مِن شرحبيل.

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً

أي: إنَّ هذا الأجْرَ العظيمَ يَشملُ رَفْعَهُم دَرجاتٍ في الجِنان العالياتِ، وسَتْرًا للذنوب وتجاوزًا عن الزلَّاتِ، وحلولَ الرَّحَماتِ والبركات؛ إحسانًا منه سبحانه وتكريمًا، وفضلًا منه وتشريفًا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [الصف: 10- 12].

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغفورُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عن مُؤاخذتِهِم بها، وهو الَّذي يَرحَمُهم فيتفضَّلُ عليهم بنِعَمِهِ سبحانه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (97–100)

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)
إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا
(98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)
وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)

غريب الكلمات:

حِيلَةً: الحِيلةُ ما يُتوصَّلُ به إلى حالةٍ ما في خُفيةٍ، وأكثرُ استعمالِها فيما في تَعاطِيه خُبثٌ، وقد تُستعملُ فيما فيه حِكمةٌ، وأصل الحَوْل: تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه، وقيل: أصلُ (حول) تحرُّك في دَورٍ؛ لأنَّه يدورُ حوالي الشَّيءِ ليُدركَه.

مُرَاغَمًا: أي: مُتَزَحْزَحًا عمَّا يَكرَهُه، أو مُتَحوَّلًا، والمُراغَم والمُهاجَر واحدٌ، وأصل (رغم): المَذهبُ والمهرَبُ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا **(97)**

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ أناسًا من المسلِمين كانوا مع المُشرِكين يُكثِّرون سوادَ المُشرِكين على رَسولِ الله – ﷺ – فيأتي السَّهمُ يُرمى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُلُه، أو يُضرَبُ فيُقتَلُ، فأنزَل الله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)).[177]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ

أي: إنَّ الَّذين تَقبِضُ الملائكةُ أرواحَهم والحالُ أنَّهم اكتَسبوا غضبَ اللهِ تعالى؛ بسببِ مَعصيتِه بإقامتِهم بينَ ظَهْرَانَيِ المشرِكين مع عدمِ تمكُّنِهم من إقامةِ الدِّين، وهم قادِرونَ على الهِجرةِ فلم يُهاجِروا حتَّى ماتوا.

قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ

أي: قالتِ الملائكةُ توبيخًا لهم: لماذا بقِيتُم في هذا المكانِ وترَكتُم الهِجرةَ؟

---

(177) رواه البخاري (7085).

قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

أي: قال الَّذين توفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم مُعتذِرين عن تَركِ الهجرةِ: كنَّا ضُعَفاءَ مَقهورينَ، ليس لنا قُدرةٌ على الخُروجِ مِن بين ظَهْرانَيِ المُشركين.

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا

أي: قالتْ لهم الملائكةُ: إنَّ أرضَ اللهِ تعالى واسعةٌ، فإذا كان العبدُ في مَكانٍ لا يتمكَّنُ فيه من إظهارِ دِينِه، فإنَّ له متَّسعًا وفُسحةً من الأرضِ، بحيث ينتقلُ إلى الأرض الَّتي يتمكَّنُ فيها من عبادةِ اللهِ تعالى.

كما قال عزَّ وجلَّ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ [العنكبوت: 56].

فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

أي: فهؤلاء الَّذين تقدَّم ذِكرُهم ووصْفُ حالِهم، مصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ، وهي مسكَنُهم.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا

أي: وساءتْ جهنَّمُ لأهلِها الَّذين صاروا إليها مرجعًا ومرَدًّا.

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا

(98)

أي: أمَّا الَّذين استضعَفَهم المشركون من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ وقهَروهم، فلم يقدِروا على الهجرةِ من بينِ أظهُرِهم؛ بسبب قلَّةِ الحِيلةِ للتَّخلُّصِ من أيدي المشركين، وعدمِ المعرفةِ بالطَّريق الَّتي ينبغي سلوكُها للخروجِ من أرضِ الشّرك إلى أرضِ الإسلام.

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - كان إذا قال: سمِع اللهُ لِمَن حمِدَهُ في الرَّكعةِ الآخِرَةِ من صلاةِ العِشاءِ قنَت: اللَّهمَّ أَنجِ عيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللَّهمَّ أَنجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللَّهمَّ أَنجِ سلَمَةَ بنَ هِشامٍ، اللَّهمَّ أَنجِ المستضعَفِينَ من المؤمنِين، اللَّهمَّ اشدُدْ وَطْأتَك على مُضرَ، اللَّهمَّ اجعلْها عليهم سِنينَ كسِني يوسُفَ)). (178)

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ

أي: فهؤلاء مَوْعُودون بأن يصفَحَ اللهُ تعالى عنهم، ويتجاوَزَ عن مؤاخذتِهم بترك الهجرةِ؛ وذلك بمقتضى كرَمِه وإحسانِه سبحانه.

---

(178) رواه البخاري (6393)، واللفظ له، ومسلم (675).

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ قال: كانت أُمِّي ممَّن عذَر اللهُ.[179]

وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا

أي: يصفَحُ عن عبادِه، ويستُرُ عليهم ذنوبَهم، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها.

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: ومن يُفارِقْ أرضَ الشِّركِ هربًا بدِينِه إلى أرض الإسلامِ لإقامة دِينِ الله تعالى ابتغاءَ مرضاتِه سبحانه.

يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا[180] كَثِيرًا

---

(179) رواه البخاري (4597).

(180) علَّق ابنُ عطية (٢/٦٤٣-٦٤٤) الأقوال الواردة في تفسير المراغم بقوله: «وهذا كله تفسير بالمعنى».

ثم قال: «فأما الخاص باللفظة، فإن المراغم: موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنفَ صاحبه، بأن يَغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أُنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في مَنَعَة منهم، فتلك المَنَعَة هي موضع المراغمة».

وبنحوه قال ابنُ كثير (٢٣١/٤).

أي: فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا ومتزحزَحًا كثيرًا يمتنعُ فيه، ويتحصَّنُ ممَّا يكرَهُ، ويغلِبُ فيه أهلَ الشِّرك؛ بابتعادِه عنهم، ويتمكَّنُ فيه من إغاظتِهم وجهادِهم.

وَسَعَةً[181]

أي: سَعةً في الدِّين بإظهارِ دِينه وعبادةِ ربِّه سبحانه، وسَعةً في الصَّدرِ، وفي الرِّزقِ، وفي كلِّ شيءٍ.

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

أسباب النُّزول:

خرَج ضَمْرَةُ بنُ جُنْدُبٍ مِن بيتِهِ مهاجِرًا فقال لأهلِهِ: احْمِلوني فأخرِجوني مِن أرضِ المشركِينَ إلى رسولِ اللهِ – ﷺ –، فمات في الطَّريقِ قبل أنْ يصلَ إلى النَّبيِّ – ﷺ –، فنزَل الوحيُ: وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا الآيةَ.[182]

---

(181) اخْتُلِفَ في معنى السعة؛ فقال قوم: هي السعة في الرزق.

وقال آخرون: المعنى: سعة من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى.

وقال غيرهم: سعة في البلاد.

ورجَّح ابنُ جرير (٤٠٢/٧-٤٠٣) العمومَ مستندًا إلى عموم اللفظ، وعدم التخصيص.

(182) رواه أبو يعلى (2679) والطبراني 272/11 (11709).

ورواه الطبري (398/7) وابن أبي حاتم (1050/3) بنحوه من حديث عبد الله بن عباس قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (13/7): رجاله ثقات، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (562/1)، وذكر الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (666/7): أن فيه أشعث بن سوار مختلف فيه، ثم قال: لكن لعله يتقوى برواية شريك، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (89): رجاله ثقات، وشريك هو ابن عبد الله القاضي النخعي وفي حفظه ضعف لكن الحديث له طريق أخرى.

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

أي: ومَن خرَج من منزلِه وموطنِه فرارًا بدِينه ليُقيمَه، ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى، واتِّباعًا لرسولِ الله – ﷺ –، ونصرًا له.

ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ

أي: فمات في أثناء الطَّريق بقتلٍ أو غيرِه قبل بلوغه أرضَ الإسلامِ ودارَ الهجرةِ.

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

أي: فقد ثبَت له عند اللهِ تعالى ثوابُ مَن هاجَر وبلَغ دارَ هجرتِه.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ يستُرُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رحمته أنْ أعطاهم أجرَهم كاملًا ولو لم يُكمِلوا العملَ، وغفَر لهم ما حصَلَ منهم مِن التَّقصيرِ في الهجرةِ وغيرِها.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (101–104)

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (101)

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا
سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ
مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102

) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

غريب الكلمات:

تَقْصُرُوا: قَصرُ الصَّلاةِ: جَعْلُها قصيرةً بتركِ بعضِ أركانها تَرخيصًا، وأصلُ (قصر): النَّقصُ، وعدمُ بلوغِ الشَّيء مَدَاهُ ونهايتَه.

يَفْتِنَكُمُ: أي: يَقْتُلَكمْ أو يَأسِرَكُم، وتُطلَق الفِتْنةُ كذلك على: الشِّرْك والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصل: الاختِبارُ والابتلاء والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه.

تَغْفُلُونَ: تَسْهُون، والغفلة: سهوٌ يَعتري الإنسانَ مِن قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ، وأصل (غفل): تركُ الشَّيء سهوًا، وربَّما كان عن عَمْدٍ.

وَأَمْتِعَتِكُمْ: جَمْع مَتَاع، وهو كلُّ ما حصَل التَّمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، وأصلُ المتاع والمُتعةِ ما يُنتَفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل ينقضي عن قريبٍ، وأيضًا: منفعةٌ وامتدادُ مدَّة في خيرٍ.

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ: أي: يتحامَلون عليكم، والمَيْل: العدولُ عن الوسَطِ إلى أحد الجانبين، وأصل ميل: انحرافٌ في الشَّيء إلى جانبٍ منه.

مَوْقُوتًا: أي مفروضًا محدَّدًا موقَّتًا بوقت، يقال: وقَّته اللهُ عليهم ووَقَتَهُ، أي: جعَلَه لأوقاتٍ، والوقتُ: نهايةُ الزَّمانِ المفروض للعمل، وأصل وقت: يدلُّ على حدِّ شيءٍ وكُنْهِه في زمانٍ وغيرِه.

تفسير الآيات:

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (101)

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ

أي: إذا سافَرْتُم أيُّها المؤمنون.

كما قال تعالى: وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ... الآية [المزمل: 20].

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ

أي: فلا حرَجَ ولا إثمَ عليكم في قَصْرِ كيفيَّةِ الصَّلاةِ المفروضةِ.

إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: إنْ خشِيتُم أنْ يصُدَّكم الكفَّارُ عن دِينكم، بقتالِهم إيَّاكم، وبحملِهم عليكم وأنتم في صلاتِكم، فيصدُّوكم عن إقامتِها وأدائِها، ويحُولوا بينكم وبين عبادةِ الله تعالى.

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا

أي: إنَّ عداوةَ جميع الكفَّارِ لكم- أيُّها المؤمنون- بيِّنةٌ واضحةٌ، قد أظهَروها لكم.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102)

سببُ النُّزول:

عن مجاهدٍ، عن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ قال: كنَّا مع رسولِ الله – ﷺ – بعُسْفانَ، فاستقبَلَنا المشرِكون عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القِبْلة، "فصلَّى بنا رسولُ الله – ﷺ – الظُّهر"، فقالوا: قد كانوا على حالٍ لو أصَبْنا غِرَّتَهم، ثمَّ قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحبُّ إليهم من أبنائِهم وأنفُسِهم، قال: "فنزل جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآياتِ بين الظُّهرِ والعصرِ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ، قال: فحضَرَتْ فأمَرهم رسولُ الله – ﷺ – فأخَذوا السِّلاحَ، قال: فصففْنا خَلْفَه صفَّيْنِ، قال: ثمَّ ركَع فركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع فرفعْنا جميعًا، ثمَّ سجَد النَّبيُّ – ﷺ – بالصَّفِّ الَّذي يليه، والآخرون قيامٌ يحرُسُونهم، فلمَّا سجَدوا وقاموا جلَس الآخَرون فسجدوا في مكانهم، ثمَّ تقدَّم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، قال: ثمَّ ركَع فركَعوا جميعًا، ثمَّ رفَع فرفعوا جميعًا، ثمَّ سجد النَّبيُّ – ﷺ

– والصَّفُّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسونهم، فلمَّا جلَس جلَس الآخَرون، فسجدوا ثمَّ سلَّم عليهم ثمَّ انصرَف، قال: فصلَّاها رسولُ الله – ﷺ – مرَّتينِ: مرَّةً بعُسْفانَ، ومرَّةً بأرضِ بني سُلَيمٍ ".[183]

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَرَجَ رَسولُ اللهِ – ﷺ – فلَقِي المشركين بعُسْفانَ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الظُّهرَ فرَأَوْه يَركعُ ويَسجُدُ هو وأصحابُه، قال بعضُهم لبعضٍ: كان هذا فُرصةً لكم، لو أَغَرْتُم عليهم ما عَلِموا بكم حتَّى تُواقِعُوهم، فقال قائلٌ منهم: فإنَّ لهم صلاةً أخرى هي أحبُّ إليهم مِن أهْلِيهم وأموالِهم، فاستَعِدُّوا حتَّى تُغِيروا عليهم فيها، فأنزلَ اللهُ تبارَك وتعالى على نبيِّه: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ إلى آخِرِ الآيةِ، وأَعْلَمَ ما ائْتَمَرَ به المشرِكون، وذَكَرَ صَلاةَ الخَوفِ.[184]

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ

أي: إذا كنتَ في أصحابِك – يا محمَّدُ – وأردتَ أن تُصلِّيَ بهم صلاةً كاملةً تُقِيمُها بحدودِها ورُكوعِها وسُجودِها، وتُتمُّ ما يجبُ فيها.

---

(183) رواه أحمد (59/4) (16630)، وعبد الرزَّاق في ((المصـــنف)) (4237)، وابنُ أبي حاتم في ((تفســـيره)) (5899)، والطبراني (213/5) (5132).
صحَّحه الدارقطنيُّ في ((سننه)) (200/2)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (354/2).

(184) رواه الطبري في ((تفسيره)) (156/9)، والحاكم (32/3).
صحَّحه الطبريُّ، وقال ابنُ حجر في ((الكافي الشاف)) (92): أصله في مسلم.

فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ

أي: فلتقُمْ فِرقةٌ مِن أصحابك معك في صلاتك، وليكنْ بقيَّتُهم في وجه العدوِّ.

وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ

قيل: المأمورُ بأخْذِ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجه العدوِّ.

فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ

أي: فإذا فرغَتِ الطَّائفةُ الَّتي قامت معك- يا محمَّدُ- في الصَّلاة من صلاتها، فليتَّخِذْ أفرادُها موضعهم خلفَك وخلفَ الطَّائفةِ الأخرى الَّتي ستدخُلُ معك في صلاتِك ممَّن لم يُصَلِّ معك الرَّكعةَ الأولى.

وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ

أي: لتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت في مقابلِ العدوِّ ممَّن لم يُصلِّ معك الرَّكعةَ الأولى، وليُصلُّوا معك الرَّكعةَ الَّتي بقِيَتْ عليك.

بعضُ الأحاديثِ الواردة في صلاة الخوف:

عن ابن عمرَ رضِيَ اللهُ عنهما قال: ((صلَّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم صلاةَ الخوفِ بإحدى الطَّائفتينِ ركعةً، والطَّائفةُ الأخرى مواجهةُ العدوِّ، ثمَّ انصرَفوا وقاموا في مقامِ أصحابهم، مُقبِلين على العدوِّ، وجاء أولئك، ثمَّ صلَّى بهم النَّبيُّ - ﷺ - ركعةً، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ - ﷺ -، ثمَّ قضى هؤلاء ركعةً، وهؤلاء ركعةً)).[185]

وعن صالحِ بنِ خوَّاتِ بن جُبيرٍ، عمَّن صلَّى مع النَّبيِّ - ﷺ - يومَ ذاتِ الرِّقاعِ صلاةَ الخوفِ: ((أنَّ طائفةً صفَّت معه، وطائفةٌ وجاهَ العدوِّ، فصلَّى بالَّتي معه ركعةً، ثمَّ ثبَتَ قائمًا، وأتمُّوا لأنفسِهم، ثمَّ انصرَفوا فصفُّوا وِجاهَ العدوِّ، وجاءتِ الطَّائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعةَ الَّتي بقِيَت مِن صَلاتِه، ثمَّ ثبَت جالسًا وأتمُّوا لأنفسهم، ثُمَّ سلَّمَ بهم)).[186]

وعن جابرٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ((شَهدتُ مع النَّبيِّ - ﷺ - صلاةَ الخوف، فصَفَّنا خَلْفَه صفَّيْنِ، والعدوُّ خَلْفَه بيننا وبين القِبْلة، فكبَّرَ - ﷺ - وكبَّرْنا جميعًا، ثمَّ ركَع وركَعْنا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع، ورفَعْنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّرُ في نَحْر العدوِّ، فلمَّا قضَى - ﷺ - السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَرَ المؤخَّرُ بالسُّجود، وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر وتأخَّر

(185) رواه البخاري (942)، ومسلم (839).
(186) رواه البخاري (4129)، ومسلم (842).

الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركَع وركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسه من الرَّكوعِ ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحر العدوّ، فلمَّا قضى - ﷺ - السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه انحدَر المؤخَّرُ بالسُّجود وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركع وركعنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوعِ ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدَر بالسُّجودِ والصَّفُّ الَّذي يليه الَّذي كان مؤخَّرًا في الرَّكعةِ الأُولى، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحرِ العدوِّ، فلمَّا قضى - ﷺ - وقام الصَّفُّ الَّذي يليه انحدر الصَّفُّ المؤخَّرُ بالسُّجود، وسجد، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ - ﷺ - وسلَّمْنا جميعًا)).[187]

وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ

قيل: المأمورُ بأخْذ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجْهِ العدوِّ الَّتي صلَّتْ أوَّلًا.

وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

أي: تمنَّى الَّذين كفروا بالله لو تَنشغِلون بصلاتِكم عن أسلحتِكم الَّتي تُقاتلونهم بها، وعن أمتعتِكم الَّتي بها بَلاغُكم في أسفارِكم، فتَسهُون عنها؛ حرصًا منهم على الإيقاعِ بكم.

(187) رواه مسلم 840.

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً

أي: فيَحملون عليكم جميعًا، حالَ غَفلتِكم بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتِكم، فيُصيبون منكم غِرَّةً بذلك، ويُجهِزون عليكم بضربةٍ واحدة.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ

سببُ النُّزول:

أي: لا حرجَ عليكم ولا إثمَ- إن نالكم أذًى بسبب مطرٍ تُمطَرُونه، أو أصابكم مرضٌ- في تركِ حملِ أسلحتكم إن ضعُفْتُم عن حملِها.

عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنه قال: نزلت إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى في عبدِ الرَّحمن بن عوفٍ وكان جريحًا.(188)

وَخُذُوا حِذْرَكُمْ

أي: ولكنْ إن وَضعتُم أسلحتَكم من أذى مطرٍ أو مرضٍ، فكونوا متيقِّظينَ، واحترِسوا مِن عدوِّكم أن يميلَ عليكم وأنتم عنه غافلون.

(188) رواه البخاري (4599).

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ للكفَّارِ عذابًا مذِلًّا في الدُّنيا والآخرة.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ(189) قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ

أي: فإذا فرَغْتم- أيُّها المؤمنون- من أداءِ صلاةِ الخوفِ، فاذكُروا اللهَ تعالى في جميعِ أحوالِكم وهيئاتكم؛ من قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ على جنوبِكم.

فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ(190) فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

أي: فإذا أمِنْتم- أيُّها المؤمنون- وزال خوفُكم من عدوِّكم، فأتِمُّوا الصَّلاةَ على الوَجْهِ الأكملِ كما أُمِرْتُم، ظاهرًا وباطنًا، بحدودِها وأركانِها وشروطِها، وجميعِ شؤونِها.

---

(189) ذكر ابنُ عطية (٣/١٤) أنّ جمهور العلماء ذهبوا إلى أنّ هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صـــلاة الخوف، على حد ما أمروا عند قضاء المناسك بذكر الله، فهو ذكر باللسان، ثم قال: «وذهب قوم إلى أن ﴿قضيتم﴾ بمعنى: فعلتم. أي: إذا تلبستم بالصلاة فلتكن على هذه الهيئات بحسب الضرورات: المرض، وغيره».

(190) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿فإذا اطمأننتم ...﴾؛ فقال قوم: معنى ذلك: فإذا استقررتم في أوطانكم فأتموا الصلاة. وقال آخرون معنى ذلك: فإذا أمنتم بعد خوفكم فأقيموا الصلاة، أي: فأتموا حدودها بركوعها وسجودها. ورجَّح ابنُ جرير القول الثاني.

إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(191)

أي: إنَّ الصَّلاةَ على المؤمنين فرضٌ مؤقَّتٌ بوقتٍ.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ

أي: لا تضعُفُوا ولا تَكسَلوا في طلب عدوِّكم، بل جِدُّوا في جهادِهم، وانشَطوا لقتالهم.

ثمَّ ذكَر سبحانه ما يُقوِّي قلوبَ المؤمنينَ، وبيَّن أنَّه لا وجهَ للوَهَنِ والضَّعفِ في تركِ طلبِهم، فقال تعالى:

إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ.

أي: إنْ كنتم- أيُّها المؤمنون- تتوجَّعون ممَّا ينالُكم من عدوِّكم من جِراحٍ وأذًى في الدُّنيا، فإنَّهم مِثلُكم؛ يتوجَّعون أيضًا ممَّا ينالُهم منكم من جِراحٍ وأذًى، فليس من المعقولِ أن تكونوا أضعفَ منهم، وأنتم وهُم قد تساوَيْتُم في ذلك.

---

(191) اختُلِف في المراد بقوله: ﴿كتابا موقوتا﴾؛ فقال قوم: معناه: فريضة مفروضة.
وقال آخرون: فرضًا واجبًا.
وقال غيرهم: منجمًا يؤدونها في أنجمها.
ورأى ابنُ جرير (٧/٤٥٢) قرب هذه الأقوال بعضها من بعض.

كما قال تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ [آل عمران: 140].

وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ

أي: وأنتم- أيُّها المؤمنونَ- تطمَعون فيما عند الله تعالى من الثَّوابِ والنَّصرِ لدِينه، وهم لا يطمعونَ في شيء من ذلك؛ فأنتم أَولى بالقتالِ منهم، والصَّبرِ على حربِهم، وأشدُّ رغبةً في إعلاءِ كلمة الله عزَّ وجلَّ.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى له كمالُ العِلم، فلا يخفى عليه شيءٌ مطلَقًا، ومن ذلك عِلمُه بمصالحِ عباده؛ فعرَّفهم عند حضورِ صلاتِهم ومواجَهةِ عدوِّهم كيفيَّةَ أداء فرضِ الله عليهم، مع السَّلامةِ من عدوِّهم، وله سبحانه كمالُ الحِكمة والحُكم؛ فهو الَّذي يُقدِّر ويُدبِّر كلَّ شيءٍ من أحكامه الكونيَّةِ والشَّرعيَّة، ويضعُ كلَّ شيءٍ منها في موضعه اللَّائقِ به.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (105-109)

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا
(105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ
أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)
هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)

غريب الكلمات:

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا: أي: مُخاصِمًا تُخاصِمُ عن الخائِنين، وتَدْفَعُ عنهُم مَن طَلَبَهم بِحَقِّه الَّذي خانوه فيه، فالخَصِيمُ هنا بمعنَى المنتَصِر المدافِع، والخَصيمُ: المبالِغ في الخِصامِ، وأصل (خصم): المنازَعة.

يَخْتَانُونَ: يخُونونَ، يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخِيانةِ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، وكذلك: تحرُّكُ شهوةِ الإنسانِ لتحرِّي الخيانةِ.

خَوَّانًا: أي: مُبالِغًا في الخيانةِ، مُصِرًّا عليها.

أَثِيمًا: أي: مبالغًا في إثمه لا يُقلِع عنه، والإثم والآثام: اسمٌ للأفعال المُبَطِّئة عن الثَّواب، أو الذَّنبُ الَّذي يستحقُّ العقوبةَ عليه، وأصل الإثم: البُطء والتَّأخُّر.

يُبَيِّتُونَ: يُدبِّرون ليلًا، يقال لكلِّ فعل دُبِّر فيه بالليل: بُيِّتَ، وأصل البيت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلق أيضًا على المآب، ومجمع الشَّمل.

مُحِيطًا: أي: مُحْصِيًا وعالِمًا لا يَخْفَى عَليهِ شَيْءٌ من أعمالِهم، وحَافِظًا لذلكَ علَيْهِم، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسِه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضه المقصود به، وبإيجاده، وما يكونُ به ومنه؛ وذلك ليس إلَّا للهِ تعالى، وأصل (حوط) هو الشَّيْءُ يُطِيفُ بِالشَّيْءِ، ومنه الحائط؛ لإحاطتِه بما يدورُ عليه، واستُعمِلَ في القُدرة والعِلم والإهلاكِ.

وَكِيلًا: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيل الرجل في مالِه هو الَّذي كفَله له، وقام به، وأصل (وَكَلَ): يدلُّ على اعتماد غيرِك في أمرِك.

تفسير الآيات:

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا

(105)

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك– يا محمَّدُ– القرآنَ، هو حقٌّ مِن الله تعالى، فنزل نزولًا متلبِّسًا بالحقِّ، ومشتملًا أيضًا على الحقِّ؛ فأخباره صِدْقٌ، وأوامرُه ونواهيه عَدْلٌ.

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ

أي: لتقضيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم لا بهواكَ، بل بما علَّمك اللهُ ممَّا أنزَلَه إليك من كتابه.

ولَمَّا أمَرَ اللهُ بالحُكم بين النَّاس المتضمِّنِ للعدلِ والقِسط، نهاه عن الجَوْرِ والظُّلم الَّذي هو ضدُّ العدل فقال:

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا[192]

(192) اختلف في الخيانة التي كانت ممن ذكرته الآية؛ فقال بعضهم: كانت سرقة سرقها.
وقال آخرون: جحوده وديعة كان أودعها.
ورجَّح ابنُ جرير (٧/٤٧٠) مستندًا إلى الأشهر في اللغة القول الثاني فقال: «لأن ذلك هو المعروف من معاني الخيانات في كلام العرب، وتوجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من معاني كلام العرب ما وجد إليه سبيل أولى من غيره».

لا تخاصِمْ وتحاجِجْ عمَّن عرفتَ خيانتَه، من مدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عنه.

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106)

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ

أي: اطلُبْ مغفرتَه، وهي سترُ الذَّنب، والتَّجاوُزُ عن المؤاخَذة به.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: فإنَّ الله تعالى هو الَّذي يغفِرُ الذُّنوب، ويرحم كلَّ مَن طلب مغفرتَه.

)وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ

أي: لا تُدافِعْ– يا محمَّدُ– عمَّن يخُونون أنفسَهم، فيجعلونها خائنةً بارتكابهم الخيانةَ، فلا تُحاجِجْ وتخاصِمْ عنهم مَن يطالبُهم بحقوقه، وما خانُوه فيه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى يُبغِضُ مَن كان من صفاتِه خيانةُ النَّاس، وركوبُ الإثم في ذلك، وفي غيره، ممَّا حرَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ

أي: إنَّهم حريصونَ على إخفاءِ قبائحهم عن النَّاس، فيتوارَوْنَ منهم تجنُّبًا للفضيحة بينهم، إمَّا حياءً منهم، أو خوفًا منهم، أو لئلَّا يُنكِروا عليهم سوءَ أعمالهم.

وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ

أي: إنَّهم لا يُبالون بنظرِ الله تعالى إليهم، واطِّلاعِه على قبائحِهم الَّتي يبارزونه بها، وهو الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ مِن أعمالهم، وبيدِه العقابُ؛ فهو أحقُّ أن يُخافَ ويُستحيَا منه جلَّ وعلا.

إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ

أي: حيث إنَّهم يُهيِّئون ويدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه سبحانه من القولِ؛ كتبرئةِ الجاني، ورميِ البريءِ بالجناية.

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أحاط علمًا بأعمالِهم، وأحصاها عليهم، حتَّى يجازيَهم عليها.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

أي: هَبْ أنَّكم جادَلْتم عنهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، ودفَعَ عنهم جدالُكم العارَ والفضيحةَ عند الخَلْق.

فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: فمَن هذا الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ حين تتوجَّه عليهم الحُجَّةُ، ويُقامُ عليهم من الشُّهودِ ما لا يُمكِنُ معه الإنكارُ؟ فيومئذٍ لا يدافعُ عنهم عنده سبحانه أحدٌ فيما يحُلُّ بهم من العذابِ.

أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا

أي: لا أحدَ يكونُ نائبًا لهؤلاء الخائنينَ في ترويجِ دعواهم عندَ الله تعالى يومَ القيامةِ.

سُورَةُ النِّساءِ

الآيات (110–113)

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا **(110)**

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا **(111)**

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا **(112)**

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا **(113)**

غريب الكلمات:

خَطِيئَةً: الخَطيئة: فعيلةٌ من الخطأ، وهو العدولُ عن القصدِ والجِهةِ، يقال: خَطِئَ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطْأً-: إذا تعمَّد الذَّنب.

بُهْتَانًا: أي: ظُلمًا، والبُهْتَانُ كذلك الكذِبُ، أو كلُّ فِعل مستبشَعٍ يُتعاطَى باليدِ والرِّجل مِن تناوُل ما لا يجوزُ، والمَشْي إلى ما يقبُحُ.

لَهَمَّتْ: الهمُّ: جرَيان الشَّيءِ في القلب، وأصل هَمَم: يدلُّ على ذَوبٍ وجريانٍ ودبيبٍ.

تفسير الآيات:

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110)

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

أي: ومَن يعمَلْ ما يُسيءُ به إلى غيرِه، أو يظلِمْ نفسَه بإكسابه إيَّاها ما يستحقُّ به عقوبةَ اللهِ من شِركٍ ومعاصٍ.

ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ

أي: ثمَّ يطلُبْ مِن اللهِ تعالى أن يستُرَ ما عمِلَ مِن ذنوبٍ، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِه بها.

يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: فإنَّه يجدُ اللهَ تعالى غفورًا لذنوبِه، رحيمًا به.(193)

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111)

---

(193) اختُلِف فيمن عُنِي بهذه الآية؛ فقال قوم: عني بها الذين وصفهم الله بالخيانة بقوله: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾.

وقال آخرون: بل عني بها المجادلين عن الخائنين.

وجمع ابنُ جرير (٧/٤٧٥) بين القولين باندراجهما في العموم، فقال مُرَجِّحًا ذلك: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أنّه عني بها كل مَن عمل سوءًا أو ظلم نفسه، وإن كانت نزلت في أمر الخائنين والمجادلين عنهم الذين ذكر الله أمرهم في الآيات قبلها».

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ

أي: ومَن يأتِ ذَنبًا عامدًا له، فإنَّما يجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضُرَّه وخِزيَه وعارَه في الدُّنيا والآخرة على نفسِه دون غيرِه، فلا يجني أحدٌ على أحدٍ، وإنَّما على كلِّ نفسٍ ما عمِلَتْ، لا يَحمِلُه عنها غيرُها.

كما قال تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [فاطر: 18].

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى له العلمُ الكاملُ، والحِكمةُ التَّامَّة، ومِن عِلْمه وحِكمتِه أنَّه يَعلمُ الذَّنبَ وما صدَر منه، والسَّببَ الدَّاعي لفِعلِه، والعقوبةَ المترتِّبةَ على فِعلِه، ويَعلمُ حالةَ المُذنِب.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112)

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا

أي: ومَن يَرتكِبْ خَطيئةً؛ أي ذنبًا غيرَ عامدٍ له، أو يرتكبْ إثمًا؛ أي ذنبًا متعمِّدًا له.

ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا

أي: يُلصِقْ ذَنبَه الَّذي ارتكبَه بشخصٍ آخرَ بريءٍ من هذا الذَّنبِ.

فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

أي: فقد تحمَّل بهذا الفِعلِ الشَّنيعِ فِريةً وكذبًا على ذلك البَرِيءِ، وإثمًا ظاهرًا بيّنًا، يُبِينُ عن أمْرِ مُتحمِّلِه، وجَراءتِه على ربِّه سبحانه وتعالى.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

((113

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ

أي: ولولا أنَّ اللهَ تعالى تَفضَّل عليك- يا محمَّدُ- فحفِظَكَ وعصَمك بتوفيقِه وتبيانِه لك أَمْرَ هذا الخائنِ.

لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ

أي: لعزَمَتْ فِرقةٌ من أولئك الَّذين يختانونَ أنفسَهم أن يَحْرِفوكَ عن طريق الحقِّ.

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

أي: إنَّ كيدَهم ومكرَهم يعودُ على أنفسِهم، فما يُضلُّونَ بذلك في الحقيقةِ إلَّا أنفسَهم.

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ

أي: لا يمكِنُ أن يُضرُّوك بأيِّ شيءٍ من الأشياءِ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

أي: ومِن فَضْلِ اللهِ تعالى عليك- يا محمَّدُ- مع سائرِ ما تفضَّلَ به عليك مِن نِعَمِه، أنَّه أنزَل عليك الكتابَ: وهو القرآنُ، والحِكمةَ: وهي السُّنَّة ومعرفةُ أسرارِ أحكامِ الشَّريعة.

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

أي: ومِن فَضْله تعالى عليك- يا محمَّدُ- أنْ علَّمَك ما لم تكُنْ تعلَمُه من قبلِ نزولِ الوحيِ عليك.

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ [الشورى: 52].

وقال سبحانه: وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [القصص: 86].

وقال جلَّ وعلا: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ [العنكبوت: 48].

وقال عزَّ وجلَّ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى [الضحى: 7].

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

أي: إنَّ ما منَحَك اللهُ تعالى إيَّاه من نِعَمٍ وعطايا- يا محمَّدُ- أمرٌ عظيمٌ من لَدُنِ العظيمِ الكريم سبحانه.

سُورَةُ النِّساءِ

الآيات (114-122)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا **(114)**

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى
وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا **(115)**

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا **(116)**

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا **(117)**

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا **(118)**

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا **(119)**

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)

غريب الكلمات:

نَجْوَاهُمْ: أي: مُتناجِيهم، أو تَناجِيهم، وأصل النَّجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ؛ يُقال: ناجيتُه، أي: سَارَرْتُه، وأصلُه: أنْ تخلوَ به في نَجوةٍ مِن الأرضِ.

مَعْرُوفٍ: المعروفُ كلُّ ما كان معروفًا فِعْلُه، جميلًا مستحسَنًا غيرَ مستقبَحٍ عند أهل الإيمان، و(عَرَف) في الأصل يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرف والمعروف؛ سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه.

يُشَاقِقِ: يخالِفْ، أو صار في شقٍّ غيرِ شقِّ أوليائه، والشِّقاقُ: المخالَفة، وأصل شق: يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ.

وَنُصْلِهِ: أي: نَشْوِهِ بها، وصَلَى النارَ: أي: دخَل فيها، وأصل الصَّلْيِ: الإيقادُ بالنَّار، ويُقال: صَلِيَ بالنَّار وبكذا، أي: بَلِيَ بها.

مَرِيدًا: أي: ماردًا، يعني: عاتيًا، قد عرِيَ من الخيرِ وظَهَر شرُّه، من قولهم: شجرة مَرْدَاء، إذا سقَط ورقها فظهَرَتْ عِيدانُها، ومنه غلامٌ أمردُ: إذا لم يكُنْ في وجهه شَعَرٌ، والماردُ والمَرِيدِ: كلُّ عاتٍ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ، وأصل (مرد): يدلُّ على تَجريدِ الشَّيءِ مِن قِشْره، أو ما يَعْلوه من شَعرِه.

فَلَيُبَتِّكُنَّ: أي: يُقطِّعُونها ويَشقُّونها، والبَتْكُ: القَطْعُ، ويُستعملُ في قَطْعِ الأعضاءِ والشَّعرِ؛ يُقال: بتك شَعرَه وأُذنَه.

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ: يُشوِّهون خَلْقَه بالخِصاءِ، وقطعِ الآذانِ، وفَقْءِ العيون، ونَتْفِ اللِّحيةِ، أو: يُبدِّلون حُكمَه ودِينَه، وأصل غيَّر: اختلافُ شيئَين، والخَلْقُ أصله: التَّقديرُ المستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ.

غُرُورًا: الغرورُ: الباطل، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ ونِلتُ منه ما أريدُه، وأصل ذلك من الغرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهر من الشَّيء، والغَرور: كلُّ ما يغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ.

مَحِيصًا: أي: مَعْدلًا ومهربًا، وحاص عن الشَّيء: أي: عدَل، وأصل (حيص): هو الميلُ في جورٍ وتَلَدُّدٍ.

قِيلًا: قولًا ومقالًا، وأصل القول من النُّطق، ويستعمل على أوجهٍ كثيرة.

تفسير الآيات:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)﴾

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ

أي: لا خيرَ في كثيرٍ من الكلام الَّذي يُسِرُّه النَّاس بينهم؛ إمَّا لأنَّه لا فائدةَ فيه؛ كفضولِ الكلام المباح، وإمَّا لكونِه شرًّا ومَضرَّةً محضةً؛ كالكلام المُحرَّمِ بجميعِ أنواعه.

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ

أي: عَدَا الأمْرَ بالتَّصدُّقِ، سواءٌ كان بالمال أو بالعِلم، أو بأيِّ نفعٍ كان.

أَوْ مَعْرُوفٍ

أي: وعَدَا الأَمْرَ بالمعروفِ، وهو كلُّ ما أمَر الله تعالى به، أو ندَب إليه من أعمالِ البِرِّ والخيرِ والإحسانِ والطَّاعة، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعَقلِ حُسْنُه.

أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ

أي: وعَدَا الأمرَ بالإصلاحِ بين المتنازِعَيْنِ والمتخاصمَيْنِ حتَّى تُزالَ العداوةُ والشَّحناء بينهم، ويتمَّ التَّراجعُ إلى ما فيه الأُلفةُ، واجتماعُ الكلمة على ما أذِنَ اللهُ تعالى وأمَر به.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

أي: ومَن يأمُرْ بصدقةٍ أو معروف أو يُصلِحْ بين النَّاس؛ طلبًا لرضَا الله تعالى بفعله هذا، مخلصًا له فيه، ومحتسبًا ثوابَه عند الله عزَّ وجلَّ.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: فسوف يُعطيه اللهُ تعالى جزاءً لِمَا فعَل من ذلك، ثوابًا كثيرًا واسعًا، لا يعلَمُ قدرَه سواه.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115)

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ

أي: ومَن يُخالِفِ الرَّسولَ - ﷺ - ويعانِدْه فيما جاء به، سالكًا غيرَ طريقِ الشَّريعةِ الَّتي جاء بها الرَّسولُ - ﷺ -، فصار في جانبٍ والشَّرعُ في جانبٍ آخرَ.

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى

أي: وحَصَلَتْ منه تِلك المُشاقَّةُ عن عَمْدٍ بعدَما ظهَر له الحقُّ واتَّضح.

وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: ومَن يتَّبعْ طريقًا غيرَ طريقِ المؤمنين في عَقائدِهم وأعمالِهم، ويَسلُكْ منهجًا غيرَ منهجِهم.

نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى

أي: إذا سلَك هذه الطَّريقَ نَتخلَّى عنه، ونتركُه إلى ما اختاره لنفْسِه، ونُحسِّنُه له في صدرِه استدراجًا له.

كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: 5].

وقال عزَّ وجلَّ: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ

أي: ونُدخِلْهُ نارَ جهنَّمَ ونُحرِقْه بها.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا

أي: وما أسوَأَها مِن مرجعٍ ومآلٍ يصيرُ إليه![194]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116)

---

(194) أفادت الآثارُ الاختلافَ في مَن نزلت فيهم الآية، وقد رجَّح ابنُ عطية (٣/٢٣) العمومَ، فقال: «قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق﴾ الآيةَ لفظٌ عامٌّ نزل بسبب طعمة بن أبيرق؛ لأنه ارتدَّ، وسار إلى مكة، فاندرج الإنحاء عليه في طيِّ هذا العموم المتناول لِمَن اتصف بهذه الصفات إلى يوم القيامة».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لِمَن أشرَك به ومات على شِرْكِه.

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

أي: وما دونَ الشِّرك من الذُّنوبِ والمعاصي فهو تحت المشيئةِ؛ إن شاء اللهُ غَفَرَه برحمتِه وحِكمتِه، وإنْ شاء عذَّبَ عليه بعَدلِه وحكمتِه.

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: ومَن يجعَلْ لله تعالى شريكًا، فقد سلَك غيرَ طريقِ الحقِّ، وانحرَف عن سواءِ السَّبيلِ، وبَعُدَ عن الصَّوابِ بُعدًا شديدًا.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117)

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا(195)

(195) اختُلِف في تفسير قوله: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا﴾ على خمسة أقوال: الأول: إن يدعون من دونه إلا اللات، والعزى، ومناة، فسمّاهُنَّ الله إناثًا بتسمية المشركين إياهُنَّ بتسمية الإناث.

والثاني: إن يدعون من دونه إلا مواتًا لا روح فيه.

والثالث: عنى بذلك أنّ المشركين كانوا يقولون: إنّ الملائكة بنات الله.

والرابع: إنّ أهل الأوثان كانوا يسمون أوثانهم: إناثًا، فأنزل الله ذلك كذلك.

والخامس: الإناث في هذا الموضع: الأوثان.

أي: ما يَدْعو هؤلاء المشرِكون مِن دونِ الله تعالى إلَّا أوثانًا وأصنامًا مسمَّياتٍ بأسماءِ الإناثِ؛ كاللَّات والعُزَّى ومَنَاةَ، والمؤنَّثُ دون المذكَّرِ في قوَّتِه ومرتبتِه ومقامِه؛ ممَّا يدلُّ على نقصِ المسمَّيات بتلك الأسماءِ، وفقْدِها لصفات الكمال، فكيف تُتَّخذُ آلهةً تُعبدُ؟!.

وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا(196)

أي: وما يعبُدُ هؤلاء الَّذين يعبُدون هذه الأوثانَ مِن دونِ الله تعالى– في حقيقةِ الأمر– إلَّا شيطانًا متمرِّدًا على الله سبحانه، هو الَّذي أمَرهم بذلك، وزيَّنه لهم فأطاعوه، مع أنَّه عدوُّهم الَّذي يريدُ إهلاكَهم، ويسعى في ذلك بكلِّ ما يقدِرُ عليه.

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118)

لَعَنَهُ اللَّهُ

أي: قد أَقصاه اللهُ تعالى وأبعَدَه وطرَدَه مِن رحمتِه.

كما قال تعالى: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [ص: 77–78].

ورَجَّح ابنُ جرير (٧/٤٩٠) القول الأول مســـتندًا إلى الأغلب في لغة العرب، فقال: «لأنّ الأظهر من معاني الإناث في كلام العرب ما عُرِف بالتأنيث دون غيره؛ فإذ كان ذلك كذلك فالواجب توجيه تأويله إلى الأشهر من معانيه».

(196) اختُلِف في المراد بالشيطان؛ فقال قوم: هو الشيطان المقترن بكل صنم.

وقال آخرون: المراد: إبليس.

ورجَّح ابنُ عطية (٢٤/٣) القول الثاني مستندًا إلى السياق، فقال: «وهذا هو الصواب؛ لأن سائر المقالة به تليق».

ووجَّهَ الأول بقوله: «فكأنه مُوَحَّد باللفظ، جمْع بالمعنى؛ لأن الواحد يدل على الجنس».

وكما أبعَدَه اللهُ تعالى من رحمتِه، يسعى في إبعاد العبادِ عن رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا أخبرَ اللهُ عن سعيِه في إغواءِ العباد، وتزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ؛ قال اللهُ تعالى:

وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا

أي: قال الشَّيطانُ لربِّه حين لَعَنَه: واللهِ لأتَّخذَنَّ مِن عبادِك جزءًا معلومًا مقدَّرًا، أجعَلُهم أولياءَ لي، أتولَّاهم ويتولَّوْنَني، فيكونون من حزبِي أصحابِ السَّعيرِ.

كما قال الله تعالى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص: 82، 83].

وقال أيضًا: إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119)

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ

أي: واللهِ لأَصُدَّنَّهم عن طريق الحقِّ إلى سُبُلِ الضَّلالِ، ضلال في العِلمِ، وضلال في العمل.

وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ

أي: واللهِ لأجعَلَنَّ في نفوسِهم من الأمانيِّ الَّتي أعِدُهم بها، ما يُزيغُهم عن توحيدِك وطاعتِك؛ كأن يُزيِّنَ لهم ما هم فيه من الضَّلالِ، مع تمنِّيهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وكأن يُمنِّيَهم بطولِ العمرِ مع أمرِهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ في التَّوبةِ حتَّى يَبغتَهم الموتُ.

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ

أي: واللهِ لآمُرَنَّهم بأن يُقطِّعوا آذانَ الأنعامِ من الإبلِ والبقرِ والغَنَم علامةً على أنَّها محرَّمةٌ –قيل: يُقطِّعونها نُسُكًا في عبادةِ الأوثانِ– وهذا يقتضي تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ، أو تحليلَ ما حرَّمه، ويلتحقُ بذلك مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ والأحكامِ الجائرةِ ما هو مِن أكبرِ الضَّلالِ.

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ[197]

---

(197) اخْتُلِفَ في المراد بتغيير خلق الله على أقوال: الأول: هو تغيير دين الله.

والثاني: إخصاء البهائم.

والثالث: الوشم.

ورجَّح ابنُ جرير القول الأول وانتَقَد تخصيص التغيير بالخصاء والوشم مستندًا إلى اللغة.

ورجَّح ابنُ عطية (٣/٢٦–٢٧) العموم، فقال: «ومَلاك تفسير هذه الآية: أنّ كل تغيير ضارٌّ فهو في الآية، وكلَّ تغيير نافعٌ فهو مباح».

أي: ولآمُرَنَّهم بتغييرِ خِلقتِهم الظَّاهرةِ بالوَشْمِ، والنَّمْصِ، والتَّفلُّجِ للحُسنِ، وغير ذلك، وتغيير خِلقتِهم الباطنة، فتتغيَّرُ فِطرتُهم الَّتي فُطِروا عليها من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ، ومِن اليقينِ إلى الشَّكِّ، ومِن قَبولِ الحقِّ والعملِ به إلى تركِه والإعراضِ عنه والتَّمرُّدِ عليه.

عن عبدِ اللهِ بن مسعود رضِي اللهُ عنه قالَ: ((لعنَ اللهُ الواشِمَاتِ والمُتَوشِّماتِ،[198] والمُتَنَمِّصَاتِ[199] والمُتَفَلِّجَاتِ للحُسْنِ،[200] المُغَيّراتِ خَلْقَ اللهِ، فبلغَ ذلكَ امرأةً من بني أسدٍ يُقالُ لها: أمُّ يعقوبَ، فجاءَت فقالت: إنَّهُ بلغَني أنَّكَ لعَنْتَ كيْتَ وكيْتَ، فقالَ: وما لِيَ لا ألعَنُ مَن لعنَ رسولُ اللهِ - ﷺ -، ومَنْ هوَ في كتابِ اللهِ، فقالت: لقدْ قرأتُ ما بينَ اللَّوحينِ، فمَا وجدْتُ فيه ما تقولُ، قالَ: لئنْ كنتِ قرَأتِيهِ لقد وجدْتِيهِ، أمَا قرأتِ: وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا،

---

(198) الوَشْم: أن يُغرَزَ الجِلدُ بإبرة، ثم يُحشَى بكُحل أو نيل، فيَزرقَّ أثرُه أو يخضرَّ.
وقد وَشَمَتْ تَشِمُ وَشْمًا فهي واشمةٌ.
والمستوشِمة والموتشِمة: التي يُفعَل بها ذلك.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (189/5).

(199) النَّمْص: نتفُ الشَّعر.
والنَّامِصَةُ: الَّتي تَنْتِف الشَّعَر مِن وجهها.
والمُتَنَمِّصَةُ: الَّتي تأمر مَن يَفْعل بِهَا ذَلِكَ.
يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (1060/3)، ((النهاية)) لابن الأثير (119/5).

(200) التفلُّج: التشقُّق، والفَلَج بالتحريك: فُرْجة ما بين الثنايا والرَّبَاعيات، والفرق: فُرجة بين الثنيتين.
و(المتفلّجات للحسن)، أي: النِّساء اللاتي يفعلن ذلك بأسنانهن؛ رغبةً في التحسين.
يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: 202)، ((النهاية)) لابن الأثير (468/3).

قالتْ: بلى، قالَ: فإنَّهُ قدْ نَهى عنهُ، قالت: فإنِّي أرى أهْلَكَ يفعلونهُ، قالَ: فاذْهَبي فانْظُرِي، فذَهَبتْ فَنظَرتْ، فلمْ ترَ مِن حاجَتِها شيئًا، فقالَ: لو كانَتْ كذَلِك مَا جَامَعَتْنا)).[201]

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ

أي: ومَن يجعَلِ الشَّيطانَ وليًّا لنفسِه ونصيرًا دون الله تعالى فيتَّبِعْه ويُطِعْه.

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا

أي: فقد هلَك في الدُّنيا والآخِرةِ هلاكًا ظاهرًا، يُبِينُ عن عطَبِه وهلاكِه، فيحصُلُ له الشَّقاءُ الأبديُّ، ويفُوتُه النَّعيمُ السَّرمديُّ.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)

يَعِدُهُمْ

أي: يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه بوعودٍ باطلةٍ لإضلالِهم؛ كأنْ يعِدَهم بأن يكونَ لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوءٍ، وكأن يعِدَهم بأنَّهم إذا أنفقوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ افتقَروا، وإن جاهَدوا في سبيل الله تعالى قُتِلوا.

(201) رواه البخاري (4886)، واللفظ له، ومسلم (2125).

وَيُمَنِّيهِمْ

أي: يُرجِّيهم ويَفتحُ أمامَهم الآمالَ الكاذبةَ، والأمانيَّ الباطلةَ؛ كأنْ يُمَنِّيَهم بالظَّفَرِ على أعدائِهم، وكأن يُمَنِّيَهم بأنَّهم هم الفائزونَ في الدُّنيا والآخرةِ.

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا

أي: وما يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه إلَّا باطلًا وأوهامًا خادعةً لا حقيقةَ لها.

فإنَّه إذا حَصْحَصَ الحقُّ وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عدوُّ الله: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ [إبراهيم: 22].

وكما قال للمُشركين ببدرٍ وقد زيَّن لهم أعمالَهم: لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ [الأنفال: 48]، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَن جِدَّ الأمرِ، ونزولَ عذابِ الله بحزبِه، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 48]، فصارَتْ عِداتُه إيَّاهم عند حاجتِهم إليه غرورًا، كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ [النور: 39].

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

أي: إنَّ هؤلاء الَّذين اتَّخذوا الشَّيطانَ وليًّا مِن دونِ الله تعالى، مصيرُهم الَّذي يَصِيرون إليه ومآلُهم ومستقَرُّهم يومَ حسابِهم: نارُ جهنَّمَ.

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا

أي: لا يَجِدون عن جَهنَّمَ ملجأً ولا مفرًّا، ولا خَلاصًا منها، بل هم خالِدون فيها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أي: إنَّ المؤمنين باللهِ تعالى وملائكتِه وكُتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه على الوجهِ الَّذي أُمِروا به عِلمًا وتصديقًا وإقرارًا، الَّذين يعمَلون الأعمالَ الصَّالحة مِن واجباتٍ ومستحبَّاتٍ على القلب، واللِّسانِ، وبقيَّةِ الجوارحِ، يَعملونها خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وعلى هَدْيِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى يومَ القيامةِ– جزاءً لهم– دارَ النَّعيمِ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ، تَجري من تحت أشجارِها وقُصورِها أنهارٌ متنوّعة.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

أي: ماكثين فيها أبدًا بلا زوالٍ ولا انتقالٍ.

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا

أي: هذا وعدٌ مِن الله تعالى واقعٌ لا محالةَ، لا كعِدَةِ الشَّيطانِ الكاذبةِ الَّتي وعَدَها أولياءَه.

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا

أي: لا أحدَ أصدَقُ مِن الله تعالى قولًا وخبرًا.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (123-126)

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123)

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126)

غريب الكلمات:

بِأَمَانِيِّكُمْ: الأمانيُّ: الأكاذيبُ، ومَا يتمنَّاه الإنسانُ ويَشتهيه أيضًا، والأُمْنِيَّة- وهي التِّلَاوةُ المُجرَّدة عن المعرفة- تَجري عند صاحبِها مَجرَى أمنيَّةٍ متمنَّاة على التَّخمينِ.

وَلِيًّا: أي: نصيرًا، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

نَقِيرًا: النَّقير: النُّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المُفضِي إلى النَّقب.

مِلَّةَ: المِلَّة: الدِّين، والطَّريقة، ويعبَّر بها عن أُصولِ الشَّرائع، مشتقَّة مِن أملَلْت (أي أملَيْت)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ، فإذا أُريد الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه قِيل: مِلَّة، وإذا أُريد باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين).

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا: أي: اتَّخذَه وليًّا يَنصُرُه على مَن أرادَه بِسُوءٍ، وخليل: فَعيل بمعنى الخُلَّة، وهي: الصَّداقة والمودَّة؛ إمَّا لأنَّها تتخلَّلُ النَّفسَ، أي: تتوسَّطُها، أو توحيد المحبَّةِ، وهي رُتبةٌ لا تقبَلُ المشارَكةَ، وأصل (خلل): دِقَّة أو فُرْجَة.

مُحِيطًا: أي: عالِمًا، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضِه المقصودِ به، وبإيجاده، وما يكون به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا لله تعالى.

تفسير الآيات:

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123)

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ[202] وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ

أي: لا يَحصُلُ لكم- أيُّها المسلِمون ولا لليهود والنَّصارى- النَّجاةُ والظَّفَرُ بمجرَّدِ تمنّي ذلك.

ومِن أمانيّ أهلِ الكتابِ الَّتي أخبرَ اللهُ تعالى عنها، قولُهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ [البقرة: 111].

(202) اختُلِف في المخاطب بقوله: ﴿ليس بأمانيكم﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: هم أهل الشرك من عبدة الأوثان.

والثاني: هم أهل الكتاب خاصة.

والثالث: هم أهل الإسلام.

ورجَّح ابنُ جرير القول الأول، وانتقَد البقية

ورجَّح ابنُ تيمية (٢/٣٤٣-٣٤٤ بتصرف) القول الأخير مستندًا إلى أحوال النزول، فقال: «[وهو] أشهر في النقل، وأظهر في الدليل؛ لأن السورة مدنية بالاتفاق، فالخطاب فيها مع المؤمنين كسائر السور المدنية».

مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ(203)

أي: إنَّ كلَّ مَن يعملُ منكم- أيُّها المسلمون أو مِن أهلِ الكتاب- سوءًا صغيرًا أو كبيرًا، فإنَّه يُجازى به، سواءٌ كان جزاءً قليلًا أم كثيرًا، دُنيويًّا، أم أُخرويًّا.

قال الله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7، 8].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه قال: ((لَمَّا نزلتْ: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ بلغتْ مِن المسلمين مَبلغًا شديدًا، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: قارِبوا وسدِّدوا؛ ففي كلِّ ما يصابُ به المسلمُ كفَّارةٌ، حتَّى النَّكبةِ يُنكَبُها، أو الشَّوكةِ يُشاكُها)).(204)

وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

أي: ولا يَجِد الَّذي يَعمل سوءًا أحدًا سوى الله تعالى يَلِي أمرَه، ويُحصِّل له ما يطلبُه، ولا يجِد ناصرًا سوى الله تعالى ينصُرُه ويدفَعُ عنه ما يحذَرُه.

---

(203) اختُلِف في تفسير قوله: ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: عنى بالسوء كل معصية لله.
والثاني: المراد: من يعمل سوءًا من أهل الكفر يجز به.
والثالث: معنى السوء في هذا الموضع: الشرك.
ورجَّح ابنُ جرير القول الأول.
(204) رواه مسلم (2574).

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

أي: ومَن يعمَلِ الأعمالَ الصَّالحة، قلبيَّةً كانت أو بدنيَّةً، مِن ذُكور العِبادِ وإناثهم، وهو مؤمنٌ بي وبرَسولي محمَّد.

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

أي: فإنَّ أصحاب هذه المنزلة العالية الَّذين جمَعوا بين الإيمانِ والعمل الصَّالح إنَّما يدخُلون الجنَّة بإذنِ الله تعالى، ويُنعَّمون فيها.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: يَدْخُلُونَ قِراءتان:

1- قِراءة (يُدْخَلُونَ) على البِناءِ لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّهم لا يَدخُلون الجنَّة حتَّى يُدخِلَهم اللهُ تعالى.[205]

---

(205) قرأ بها أبو بكر وأبو عمرو وابن كثير.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 219).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (318/1)، ((الكشف)) لمكي (397/1).

2- قراءة (يَدْخُلُونَ) بجَعْلِ الفِعل للدَّاخلين؛ لأنَّهم هم الدَّاخلون بأمرِ الله لهم.[206]

وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا

أي: ولا يَنقُصُ اللهُ تعالى هؤلاء الَّذين يعمَلون الصَّالحاتِ من ثوابِ عملِهم ولا مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ في ظَهر النَّواة؛ فكيف بما هو أعظمُ من ذلك وأكثرُ؟! فهو سبحانه إنَّما يُوفِّيهم أجورَهم كما وعَدَهم.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ

أي: لا أحدَ أصوبُ طريقًا وأصلحُ عملًا ممَّن أخلَص للهِ عزَّ وجلَّ، وانْقادَ له بالطَّاعةِ.[207]

---

(206) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 219).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/318).

((الكشف)) لمكي (1/397).

(207) أفادت الآثار الاختلاف في معنى الوجه على قولين: أحدهما: أنه الدين.

والآخر: العمل.

وذكر ابنُ تيمية (٢/٣٤٤) قولين آخرين، وهما: الإخلاص في العبادة، والخضوع والتواضع لله.

ثم قال مُوَجِّهًا: «قلت: قولُ مَن قال: خضـع وتواضـع لربه هو داخل في قول مَن قال: أخلص دينه أو عمله أو عبادته لله؛ فإنّ هذا إنما يكون إذا خضع له وتواضع له دون غيره، فإنّ العبادة والدين والعمل له لا يكون إلا مع الخضوع له والتواضع، وهو مستلزم لذلك، ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الإسلام لله وحده، فذكروا المعنيين الاستسلام، وأن يكون لله.

وَهُوَ مُحْسِنٌ

أي: وهو مع هذا الإخلاصِ في العملِ، متَّبعٌ شَرْعَ اللهِ تعالى فيه.

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

أي: واتَّبع دِينَ وشرْعَ إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، وعن التَّوجُّهِ للخَلْق مستقيمًا على التَّوحيدِ، مقبلًا بكُلِّيَّتِه على الخالقِ جلَّ وعلا.

كما قال تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 68].

وقال سبحانه: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 161].

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 123].

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

وقول مَن قال: خضع وتواضع لله.

يتضمن أيضًا أنّه أخلص عبادته ودينه لله، فإنّ ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره».

أي: واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ وليًّا قد وصَل إلى غايةِ ما يتقرَّبُ به العبادُ له، وانتهى إلى درجة الخُلَّةِ، الَّتي هي أرفعُ مقاماتِ المحبَّةِ الخالِصةِ لله تعالى.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يملِكُ وحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ وجميعَ ما في الأرضِ؛ فالجميعُ عبيدُه وخلْقُه، وهو المُتصرِّفُ فيهم، المُتفرِّدُ بتدبيرِهم.

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا

أي: لا تَخفى عليه خافيةٌ، ولا يغِيبُ عن عِلمِه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلمًا وقُدرةً، وسمعًا وبصرًا، وتدبيرًا وغيرَ ذلك.

سُورةُ النِّساءِ

الآية (127)

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127)

غريب الكلمات:

وَيَسْتَفْتُونَكَ: يَسألُونَك الفُتيا وبيانَ الحُكم؛ يُقال: استفتيتُ عن كذا، إذا سألتَ عن الحُكْمِ، وأفتى الفقيهُ في المسألةِ، إذا بَيَّن حُكمَها، والفُتيا والفَتوى: الجوابُ عمَّا يُشكِلُ من الأحكام، وأصل (فتي): تبيينُ حُكمٍ.

بِالْقِسْطِ: أي: بالعدلِ، وأصل القِسط يَدلُّ على مَعنيينِ مُتضادَّيْنِ: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقال: أَقْسَط: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ.

تفسير الآية:

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا **(127)**

سببُ النُّزول:

عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ، أنَّه سَأَلَ عائِشَةَ رضِي اللهُ عنها، عن قولِ اللهِ: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، قالتْ: يا ابنَ أُختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليّها تُشارِكه في مالِه، فيُعجبه مالُها وجمالُها، فيُريد وليُّها أنْ يتزوَّجَها بغيرِ أنْ يُقسِطَ في صَدَاقِها، فيُعطيها مِثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهوا أنْ يَنكحوهنَّ إلَّا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويَبْلُغوا بهنَّ أعْلَى سُنَّتِهنَّ مِن الصَّدَاق، وأُمروا أنْ يَنكحوا ما طابَ لهم مِن النِّساء، سواهنَّ، قال عُروةُ: قالتْ عائشةُ: ثمَّ إنَّ الناسَ استَفْتَوا رسولَ اللهِ – ﷺ – بعد هذه الآيةِ فيهنَّ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ" قالتْ: والَّذي ذَكَرَ اللهُ تعالَى أنَّه يُتْلَى عليكم في الكِتابِ: الآيةُ الأُولَى الَّتي قال اللهُ فيها: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، قالتْ عائِشَةُ: وقَوْلُ اللهِ في الآيةِ الأُخْرَى: وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، رَغْبةَ أحدِكم عَنِ اليَتِيمَةِ الَّتي تكونُ في حَجْرِه، حِينَ تكونُ

قَليلَةَ المالِ والجمالِ، فَنُهُوا أنْ يَنْكِحوا ما رَغِبوا في مالِها وجَمالِها مِنْ يَتامَى النِّساءِ إلَّا بِالقِسطِ؛ مِن أَجْلِ رَغْبَتِهِم عنهُنَّ.[208]

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ

أي: يسألُك أصحابُك– يا محمَّدُ– أنْ تُفتيَهم في أحكامِ النِّساءِ.

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ

قُلْ لهم– يا محمَّدُ–: اللهُ يفتيكم في النِّساء.

ثمَّ خصَّ سبحانه بعد التَّعميم، الوصيَّةَ بالضِّعاف من اليتامى والوِلدان؛ اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التَّفريط في حقوقِهم، فقال:

وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ[209]

---

(208) رواه البخاري (2494)، ومسلم (3018).

(209) اخْتُلِفَ في معنى قوله: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ على قولين: الأول: وترغبون عن نكاحهن.

والثاني: وترغبون في نكاحهن.

ورجَّح ابنُ جرير (٧/٥٤٤) القول الأول مستندًا إلى الدلالات العقلية، فقال: «لأنّ حبْسهم أموالهن عنهن مع عَضْلهم إياهن إنما كان ليرثوا أموالهنَّ دون زوجٍ إن تزوّجن، ولو كان الذين حبَسوا عنهن أموالهن إنما حبسوها عنهن رغبة في نكاحهن لم يكن للحبس عنهن وجهٌ معروف؛ لأنهم كانوا أولياءهن، ولم يكن يمنعهم من نكاحهن مانع فيكون به حاجة إلى حبس مالها عنها ليتّخذ حبسه عنها سببًا إلى إنكاحها نفسها منه».

أي: ويُفتيكم أيضًا بِما يُتلَى عليكم في القُرآنِ في شأنِ اليتامى مِن النِّساءِ اللَّاتي تحتَ ولايتِكم فتبخَسونهنَّ حقَّهنَّ وتَظلِمونهنَّ، بمَنْعِهنَّ مِن أخْذِ ميراثِهنَّ أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لتنتفِعوا بأموالِهنَّ خوفًا من استخراجِها من أيديكم إنْ تزوَّجْنَ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في حالةِ رَغبتِكم عنهنَّ، أو تَرغبون فيهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ ولكن تُعطونهنَّ مِن المهرِ دون ما يستحِقْقْنَ.

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتلى عليكم في القُرآنِ، في شأنِ المستضعَفين من الوِلدانِ الصِّغار، ومن ذلك وجوبُ إعطائِهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألا تستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعُدوانًا.

وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتْلَى عليكم في القُرآن، بأنْ أوجبَ عليكم العدلَ التَّامَّ مع اليتامَى، ومن ذلك إعطاؤُهم فرائضَهم على ما قَسَم اللهُ تعالى لهم في كتابِه، ومِن ذلك القيامُ عليهم بإلزامِهم بحقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده، والقيامُ عليهم في مصالحِهم الدُّنيويَّة.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا

أي: ومهما يكُنْ منكم– أيُّها المؤمنون– من عدلٍ في أموال اليتامى الَّتي أمَرَكم اللهُ تعالى أنْ تقوموا فيهم بالقِسطِ، والانتهاءِ إلى أمرِ الله في ذلك، وفي غيره– فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ به، ومُحصٍ ذلك كلَّه، وحافظٌ له، وسيجزيكم عليه أوفرَ الجزاءِ وأتمَّه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (128-130)

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128)

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)

غريب الكلمات:

بَعْلِهَا: بَعْلُ المرأةِ: زَوجُها، والبَعْل في الأصل: الصَّاحِبُ.

نُشُوزًا: أي: بُغضًا، والنُّشوز: بُغضُ المرأةِ للزَّوج، أو بُغضُ الزَّوجِ للمَرأة؛ يُقال: نشَزت عليه، أي: ارتفَعَتْ عليه، والنَّشْز: المرتَفِع من الأرض؛ فأصل النَّشْز: الارتفاعُ والعُلوُّ.

إِعْرَاضًا: الإعراض: هو أن تولِّيَ الشَّيء عُرْضَك، أي: جانبَك، ولا تُقبِلَ عليه.

وَأُحْضِرَتِ: أي: أُلزِمت، وجُعِلتْ حاضرةً له مطبوعةً عليه، وأصل (حضَر): إيرادُ الشَّيء، ووُرودُه ومشاهدتُه.

الشُّحَّ: وهو الإفراطُ في الحِرص، وأيضًا: بُخْلٌ مع حِرصٍ، ويُطلَقُ على الظُّلم، وأصل (شحح): المنْع.

كَالْمُعَلَّقَةِ: المُعَلَّقةُ هي الَّتي لا تكونُ أيِّمًا ولا ذاتَ بَعْلٍ، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، وأصله: أن يُناطَ الشَّيءُ بالشَّيء العالي.

تفسير الآيات:

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

(128)

سببُ النُّزول:

عن عائِشةَ رضِي اللهُ عنها في هذِه الآيةِ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا قَالَتْ: ((الرَّجلُ تَكونُ عنده المرأةُ ليس بِمُستَكْثِرٍ منها يُريدُ أنْ يُفارِقَها، فتقول: أَجْعَلُك مِن شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك)).[210]

وعن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه، قال: قالتْ عائشةُ رضِي اللهُ عنها: ((يا ابنَ أُختي، كان رسولُ اللهِ - ﷺ - لا يُفضِّلُ بعضَنا على بعضٍ في القَسْمِ مِن مُكْثِه عِندنا، وكان قلَّ يومٌ إلَّا وهو يَطوفُ علينا جميعًا، فيَدنو مِن كلِّ امرأةٍ مِن غيرِ مسيسٍ، حتى يَبلُغَ إلى التي هو يومُها فيَبيت عِندَها، ولقدْ قالتْ سَودةُ بِنتُ زَمْعةَ حين أسنَّتْ وفرِقَتْ أنْ يُفارِقَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رسولَ اللهِ، يَوْمي

(210) رواه البخاري (2450) واللفظ له، ومسلم (3021).

لعائشةَ، فقَبِلَ ذلك رسولُ الله – ﷺ – منها، قالتْ: نقول: في ذلِك أَنزلَ اللهُ تعالى وفي أشباهِها أُراهُ قال: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾)).[211]

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها قالتْ: ((كانَ رسولُ اللهِ – ﷺ – إذَا أرادَ سفرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نسَائِهِ، فأَيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُهَا خرجَ بِهَا معهُ، وكانَ يَقْسِمُ لكلِّ امرأةٍ منْهُنَّ يومَها وليلَتَها، غيرَ أنَّ سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ وهَبَتْ يَومَها وليلَتَها لعائِشَةَ زَوجِ النَّبِيِّ – ﷺ –؛ تَبْتَغِي بذلِكَ رِضَا رَسولِ اللهِ – ﷺ –)).[212]

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾

أي: إذا خشِيَتِ المرأةُ استعلاءً من زوجها عليها، ونفورًا منها، وانصرافًا عنها، وعدمَ رغبتِه فيها.

---

(211) رواه أبو داود (2135)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (31/24) (81)، والحاكم في ((المستدرك)) (2760)، والبيهقي (74/7) (13816).

قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2135): حسن صحيح.

وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (1629).

والحديث بدون ذكر قصة سودة جوَّد إسنادَه ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (368)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (187/2): إسناده صحيح حسن.

(212) رواه البخاري (2688) واللفظ له، ومسلم (1463).

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا

أي: فلا حَرَجَ ولا إثمَ عليهما في أن يتَّفِقا على ما يُصلِحُ الأمورَ بينهما؛ فلها أن تُسقِطَ حقَّها أو بعضَه؛ من نفقةٍ أو كسوة، أو مَبيت، أو غيرِ ذلك من الحقوقِ عليه، على أن تبقى مع زوجها، وله أن يقبَلَ ذلك منها؛ فلا حرجَ ولا إثم عليها في بَذْلِها ذلك له، ولا عليه أيضًا في قَبولِه منها.

وَالصُّلْحُ خَيْرٌ

أي: إنَّ صُلحَهما على ترْكِ بعضِ حَقِّها للزَّوج، وقَبول الزَّوجِ بذلك؛ استدامةً لعقدِ النِّكاح– خيرٌ من المفارَقة بالكُلِّيَّةِ.

وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ

أي: إنَّ النُّفوسَ قد جُبِلت على الإفراطِ في الحرصِ على أشيائِها وحقوقِها، وهذا مِمَّا يمنَعُ وقوعَ التَّصالُحِ والاتِّفاقِ؛ فعند النِّزاعِ وطلبِ المصالحة تكونُ الأنفسُ حريصةً جدًّا على ما لها من حُقوقٍ، كلُّ نفسٍ تُريد أنْ يكونَ الصُّلحُ في جانبها وفي مصلحتِها، وكأنَّ اللهَ يقول: دعُوا هذا الشُّحَّ الَّذي جُبِلَتْ عليه الأنفسُ، واطلُبوا الخيرَ في المصالَحةِ، والتَّسامُحِ عن بعض حقوقكم.(213)

---

(213) اختُلِف في تفسير قوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ على قولين: الأول: وأحضرت أنفُسُ النساء الشح على أنصبائهن من أنفُس أزواجهن، وأموالهم.

والثاني: وأحضرت نفسُ كل واحدٍ من الرجل والمرأة الشحَّ بحقه قِبَل صاحبه.

ورجَّح ابنُ جرير القول الأول، وانتقَد الثاني.

وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا

أي: وإنْ تُحسِنوا- أيُّها الأزواجُ- في أفعالِكم إلى نسائِكم إذا كرِهتموهنَّ بأن تتجشَّموا مشقَّةَ الصَّبرِ عليهنَّ، مع إيفائِهنَّ حقوقَهنَّ، وعِشرتِهنَّ بالمعروف، وتقسِموا لهنَّ أُسوةَ أمثالِهنَّ، وتُحسنوا أيضًا في عبادة الخالق عمومًا، وتُحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طُرقِ الإحسانِ، وتتَّقوا اللهَ تعالى في أزواجِكنَّ بتركِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجب عليكم من حقوقِهنَّ، وتتَّقوا اللهَ عمومًا، بفعلِ جميع المأمورات، وتركِ جميعِ المحظورات.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أي: فإنَّ اللهَ تعالى بما تَعمَلون في أمورِ نِسائِكم- أيُّها الأزواجُ- من الإحسانِ إليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروف، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجبُ لهنَّ، وغير ذلك ممَّا تعمَلونه، عالِمٌ بظاهرِه وباطنِه، لا يَخفَى عليه منه شيءٌ، يُحصيه، ويحفَظُه لكم، حتَّى يوفِّيَكم جزاءَ ذلك أوفرَ الجزاء.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ

أي: ولنْ تتمكَّنوا- أيُّها الأزواجُ- من إقامة العدلِ التَّامّ بين زوجاتِكم من جميع الجوانب، ولو كنتم حريصين على ذلك، فإنَّه وإن حصَل القَسمُ الصُّوريُّ بينهنَّ، فلا بدَّ من التَّفاوُتِ في المحبَّةِ والشَّهوةِ والجِماعِ.

فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ

أي: فإذا مِلْتُم إلى واحدةٍ منهنَّ، فلا تبالِغوا في الميل بالكُلِّيَّة، وتميلوا ميلًا كثيرًا، حتَّى يحمِلَكم ذلك على أن تجُوروا على صواحبِها في تركِ أداء الواجب لهنَّ مِن حقٍّ في القَسْمِ لهنَّ، والنَّفقةِ عليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروفِ، فتبقى كالمعلَّقةِ الَّتي ليست أيِّمًا ولا متزوِّجةً، فليست بالمطلَّقة الَّتي استراحَتْ ورزَقها الله تعالى غيره، ولا هي بالمتزوِّجةِ الَّتي تسعَدُ بالزَّواجِ كغيرها.

وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا

أي: وإنْ تُصلِحوا أعمالَكم- أيُّها النَّاس- فتعدِلوا في قَسْمِكم بين أزواجِكم وما فرَض الله لهنَّ عليكم من النَّفقة والعِشرة بالمعروف، فلا تجُوروا في ذلك، وتُصلِحوا أيضًا فيما بينكم وبين النَّاس، وتُصلِحوا أيضًا بين النَّاس فيما تنازعوا فيه، وتتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في الميل الَّذي نهاكم عنه- بأن تميلوا لإحدى الزَّوجاتِ على الأخرى، فتظلِموها حقَّها- وتتَّقوا الله تعالى في جميع أمورِكم وأحوالكم بفعلِ ما أمَر، واجتنابِ ما نهى عنه وزجَر.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ عليكم ما سلَف منكم مِن مَيْلِكم وجَوْرِكم على زَوجاتِكم، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِكم بذلك، ويستُرُ ويتجاوَزُ عمَّا صدَر منكم من الذُّنوب عمومًا، وكما عطَفْتُم على أزواجِكم ورحمتموهنَّ، فاللهُ تعالى يرحَمُكم، وهو رحيمٌ بكم؛ إذ قبِلَ توبتَكم، وتجاوَز عنكم.

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ

أي: إذا انفصَل الزَّوجانِ عن بَعضِهما بطَلاقٍ أو فسخٍ أو خُلعٍ أو غير ذلك، فإنَّ اللهَ تعالى يعوِّضُ الزَّوجَ برزقٍ واسعٍ أو بزوجةٍ هي خيرٌ له من زوجته، ويعوِّضُها برزقٍ واسعٍ أو بزوجٍ هو خيرٌ لها من زوجِها، وذلك مِن فضلِه وإحسانِه الواسعِ سبحانه.

وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى واسعٌ لهما في إغناء كلِّ واحدٍ من الزوجين وغيرهما مِن فضلِه، فهو سبحانه واسعُ الفضلِ عظيمُ المَنِّ، وهو ذو سَعَةٍ في جميع صفاتِه؛ كالرَّحمة، والمغفرةِ، والعِلم، والقدرة، وغير ذلك مِن صفاتِه العُلى، حكيمٌ في جميع أفعالِه وأقداره وشَرْعِه، ومن ذلك أنَّه يعطي بحكمةٍ، ويمنَعُ لحكمةٍ، ومن ذلك حكمتُه فيما قضى بين الزَّوجين من الافتراق وغيره.

سُورَةُ النِّساءِ

الآيات (131-134)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا **(131)**

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا **(132)**

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا **(133)**

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا **(134)**

تفسير الآيات:

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: وللهِ تعالى وحده مُلكُ جميع ما تَحويه السَّمواتُ السَّبعُ، والأَرَضون السَّبع، وهو الحاكمُ فيها، ومُدبِّرُها بجميع أنواع التَّدبير.

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ

أي: ولقد عهِدْنا عهدًا مؤكَّدًا إلى أهلِ الكتب السَّابقةِ، كاليهود والنَّصارى، وإليكم- أيُّها المسلِمون- بأنْ تتَّقوا اللهَ تعالى بطاعةِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه.

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنْ تتركوا تقوى اللهِ تعالى، وتُشرِكوا به، فإنَّكم لا تضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا، ولا تنقصون شيئًا من مُلكه، وله عبيدٌ خيرٌ منكم وأعظمُ وأكثرُ، مُطِيعون له خاضِعون لأمرِه، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده؛ من إعزازِ مَن أراد إعزازَه، وإذلالِ مَن أراد إذلالَه ومعاقبته، وغير ذلك من الأمور كلِّها؛ لأنَّ المُلكَ مُلكُه، والخَلْقَ خَلْقُه، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قِوامُهم وبقاؤُهم وفناؤُهم.

كما قال تعالى إخبارًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لقومه: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [إبراهيم: 8].

وقال جلَّ وعلا: فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [التغابن: 6].

وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا

أي: وهو الغنيُّ الَّذي له الجودُ الكامل، والإحسان الشَّامل، الصَّادر من خزائن رحمتِه، الَّتي لا ينقُصُها الإنفاقُ؛ فلا حاجةَ به إلى شيءٍ ولا لأحدٍ، ومِن تمامِ غناه كمالُ أوصافِه سبحانه، وهو المحمودُ على غِناهُ وجميعِ صفاتِه، وعلى جميع ما يُقدِّره ويشرَعُه، قد استحَقَّ منكم- أيُّها الخلقُ- الحمدَ على صنائعِه الحميدةِ إليكم، وآلائِه الجميلة الَّتي أنعَم بها عليكم، وهو الحامدُ لِمَن يستحقُّ الحمدَ مِن عباده.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132)

أي: ولله تعالى مُلكُ جميعِ ما تحويه السَّمواتُ والأرض، القيِّمُ بجَميعِه، الحافظُ والمدبِّرُ له بعلمِه وقدرتِه وحكمتِه، الرَّقيبُ الشَّهيدُ على كلِّ شيءٍ سبحانه.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ

أي: إنْ يشَأِ اللهُ تعالى يُذهِبْكم- أيُّها النَّاس- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا عصَيْتموه، ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيرِكم، هم أتْقَى وأطوعُ للهِ عزَّ وجلَّ منكم.

كما قال تعالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد: 38].

وقال تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [إبراهيم: 19-20].

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على إهلاكِكم وإفنائِكم، واستبدالِ آخرين بكم.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أي: مَن كانت هِمَّتُه وإرادتُه دنيَّةً غيرَ متجاوزةٍ ثوابَ الدُّنيا، وليس له إرادةٌ في الآخرة فإنَّه قد قصَر سعيَه ونظَرَه على ثواب الدُّنيا الَّتي لا يحصُل له منها سوى ما كتَبَ اللهُ له- فليعلَمْ أنَّ عند الله تعالى خيرَ الدُّنيا والآخرة، فإنَّه إذا سألَه مِن هذه وهذه أعطاه وأغناه، فلا يقتصِرَنَّ قاصرُ الهمَّةِ على السَّعيِ للدُّنيا فقط، بل ليطلُبْهما منه، ويَسْتَعِنْ به عليهما، مفتقِرًا إليه على الدَّوام.

كما قال تعالى: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [البقرة: 200– 202].

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى سامعٌ لكلِّ شيء، بصيرٌ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء سبحانه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (135–137)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا **(135)**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا **(136)**

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا **(137)**

غريب الكلمات:

قَوَّامِينَ: جمْع قوَّام، وهو مُبالغةٌ من قائِم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء وحِفظه.

الْهَوَى: أي: مَيْلَ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُ (هَوِيَ): الخُلوُّ والسُّقوط؛ ولذلك يُقال للآراءِ الزائفة: أهواءٌ.

تَلْوُوا: تَقْلِبوا الشَّهادةَ، وهو أنْ يلويَ الشَّاهدُ لِسانَه بالشَّهادة إلى غير الحقّ بالتَّحريفِ والزّيادة، والميلِ إلى أحدِ الخَصْمين، وأصلُ اللَّيّ: فتلُ الحبلِ، وإمالة الشَّيء كذلك.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

أي: ليكُنْ مِن أخلاقِكم وصفاتكم- أيُّها المؤمنون- القيامُ بالعدلِ في كلِّ أحوالكم، في حقوق اللهِ، وفي حقوقِ عباده.

شُهَدَاءَ لِلَّهِ

أي: ليكُنْ أداؤُها ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، فتشهدون بالقِسط لله عزَّ وجلَّ، لا يحمِلُكم على ذلك رياءٌ، ولا سُمعةٌ، ولا غيرُ ذلك؛ فحينئذ تكون صحيحةً عادلة حقًّا.

وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

أي: ولو كانت شَهادتُكم على أنفسِكم، أو على والدَيكم، أو أقربائكم، فقُوموا فيها بالعدل، وقولوا فيها الحقَّ، ولو عاد ضررُها عليكم؛ فإنَّ الحقَّ حاكمٌ على كلِّ أحد، ومُقدَّمٌ على كلِّ أحد.

إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا

أي: فلا تراعوا الغنيَّ لغناه، ولا الفقير لفقرِه شَفقةً عليه ورحمةً له فتجُوروا؛ فإنَّ أمرَهما إلى خالقِهما ومالكِهما؛ فهو سبحانه أَوْلى وأحقُّ بهما منكم، وأعلمُ بما فيه صلاحُهما.

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا

أي: فلا يَحملَنَّكم هوَى أنفُسِكم المعارضُ للحقِّ على ترْكِ العدل؛ فإنَّكم إنِ اتَّبعتم أهواءَكم عدَلْتُم عن الصَّواب، ووقَعتم في الجَوْرِ والظُّلم.

كما قال تعالى: وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [المائدة: 8].

وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا

أي: وإنْ تُحرِّفوا الشَّهادة وتُغيِّروها، أو تُعرضوا عنها بكتمانِها وتركِها.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَإِنْ تَلْوُوا قراءتان:

1- قراءة (تَلُوا) من الولاية، والمعنى: إنْ وُلِّيتم إقامةَ الشَّهادة أو وُلِّيتُم الأمرَ فتعدِلوا عنه.(214)

---

(214) قرأ بها ابن عامر وحمزة.

2- قراءة (تَلْوُوا) من لويتُ فلانًا حقَّه ليًّا، أي: دافَعْتَه وماطَلْتَه، والمعنى: وإنْ تَلْووا ألسنتكم عن شَهادةِ الحقّ، أو حكومةِ العَدْل.[215]

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أي: محيطًا بما تفعَلون، ويعلَمُ ما ظهَر وما بطَن مِن إقامتِكم الشَّهادةَ بالباطلِ بتَحريفِكم إيَّاها أو بكِتمانِكم لها وتركِكم إيَّاها، فيَحفظ ذلك عليكم ويُجازيكم به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

(136)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

أي: حقِّقوا- أيُّها المؤمنون- إيمانَكم بالله تعالى وبمحمَّدٍ - ﷺ -، وأكمِلوا ما نقَصَ لدَيكم منه، واثبُتوا واستمرُّوا عليه.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 220) ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 127)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 215)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (4/118-119).

(215) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 220).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 127)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 215)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (4/118-119).

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ [الحديد: 28].

وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

أي: وآمِنوا أيضًا بالقرآن.

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ

أي: وآمِنوا أيضًا بالكُتب السَّابقة الَّتي أنزَلها اللهُ تعالى.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: ومَن يكفُرْ بالله تعالى وملائكتِه وبما أنزله مِن كتبٍ وبمَن بعَثهم من الرُّسلِ وباليوم الآخِرِ، فقد خرَج عن الصِّراط المُستقيم، وانحرَف عن طريقِ الحقّ والهدى انحرافًا بعيدًا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا(216)

(216) عن عبد الله بن عباس، في قوله: ﴿ازدادوا كفرا﴾، قال: تمُّوا على كفرهم حتى ماتوا.
وجَّه ابنُ تيمية (٢/٣٥١) هذا القول بقوله: «قلت: وذلك لأنّ التائب راجِعٌ عن الكفر وغيرِه، ومَن لم يتب فإنّه مُسْتَمِرٌّ يزداد كفرًا بعد كفر، فقوله: ﴿ثم ازدادوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثُمَّ أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم ازدادوا، أي: زادوا كفرهم وما نقص.

أي: مَن تَكرَّر منه الكفرُ بعدَ الإيمان، فدَخَل في الإيمان ثمَّ رجع عنه، ثمَّ عاد فيه ثمَّ رجَع عنه، واستمرَّ على كفرِه وازداد منه.

لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليستُرَ عليهم كُفرَهم وذُنوبَهم ويَتجاوزَ عن عُقوبتِهم؛ فإنَّ مَن كان هذا حالَه فهو بعيدٌ من المغفرةِ لإتيانِه بأعظمِ مانعٍ يمنَعُه مِن حُصولها؛ فكُفرُه يكونُ طبعًا لا يزول حتَّى مماتِه.(217)

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا

أي: ولم يكُنِ اللهُ عزَّ وجلَّ ليُسدِّدَهم لإصابةِ طريق الحقِّ والهدى فيوفِّقَهم لها.

فهؤلاء لا تُقْبَل توبتهم، وهي التوبة عند حضـور الموت؛ لأنّ مَن تاب قبل حضـور الموت فقد تاب مِن قريب، ورجع عن كفره، فلم يزدد بل نقص، بخلاف المُصِرّ على الكفر والمعاصي إلى حين المعاينة فإنّه في ازدياد من ذلك، وما بقي له زمان محقق يقع لبعض كفره فضلًا عن هدمه».

(217) ذكر قومٌ أنّ المرتدَّ يُستتاب ثلاثًا؛ انتزاعًا من هذه الآية، وذهب آخرون إلى استتابته كلما ارتد.

ورَجَّح ابنُ جرير (٧/٦٠٠) القول الثاني فقال: «وفي قيام الحجة بأنّ المرتد يستتاب المرة الأولى الدليلُ الواضحُ على أنّ حُكم كُلِّ مرة ارتدَّ فيها عن الإسلام حُكْمُ المرةِ الأولى في أنّ توبته مقبولة، وأنّ إسلامه حَقَنَ له دَمَه؛ لأنّ العلة التي حَقَنَتْ دمَه في المرة الأولى إسلامُه، فغيرُ جائز أن توجد العِلَّةُ التي مِن أجلها كان دمُه محقونًا في الحالة الأولى ثُمَّ يكون دمُه مباحًا مع وجودها، إلّا أن يُفرَّق بين حكم المرة الأولى وسائر المرات غيرها ما يجب التسليمُ له مِن أصلٍ مُحْكَمٍ، فيخرج حكمُ القياس حينئذ».

سُورةُ النِّساءِ

(الآيات (138–143)

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138)

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139)

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)

غريب الكلمات:

الْعِزَّةَ: الغَلَبة، وهي حالةٌ مانعة للمُتَّصِفِ بها مِن أنْ يُغلَبَ، من قولهم: أرض عَزازٌ، أي: صُلْبة، وأصل عز: يدلُّ على شدَّة وقوة، وغَلَبة وقهر.

وَيُسْتَهْزَأُ: أي: يُسخَر منها، والاستهزَاءُ: ارتياد الهُزُؤِ، وإن كان قد يعبَّر به عن تعاطي الهُزْء، والهزؤ: اللَّعِب والسُّخريَّة، وأصل الهُزْء: مزحٌ في خفية، وقد يقال لِمَا هو كالمزح.

يَخُوضُوا: أي: يَتحدَّثوا ويَتفاوَضوا ويتداخَلَ كلامُهم؛ يُقال: تَخاوَضُوا في الحديثِ والأمرِ، والخوض: هو الشُّروع في الماءِ والمرورُ فيه؛ يُقال: خُضْتُ الماءَ وغيرَه، وأصل (خوض): توسُّط شيءٍ ودخول.

يَتَرَبَّصُونَ: يَنتظرون، والتَّربُّص: الانتظارُ والتَّمكُّث.

فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ: أي: نصْرٌ وتأييدٌ وظَفَرٌ وغنيمةٌ، وأصلُ الفتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ.

نَسْتَحْوِذْ: أي: نَغلِبْ ونَستولِ؛ يُقال: حاذَ الإبلَ يَحُوذها، أي: ساقَها سَوْقًا عنيفًا، وأصلُه: الخِفَّةُ والسُّرعةُ وانكماشٌ في الأمر.

كُسَالَى: أي: مُتثاقلين كالمُكرَه على الفِعل، والكَسلُ: التَّثاقُل عمَّا لا ينبغي التَّثاقُل عنه، وأصله: التَّثاقُل عن الشَّيء، والقعودُ عن إتمامِه أو عنه.

يُرَاؤُونَ: أي: يَفعلون الشَّيء ليراه النَّاس، وأصلُه من الرُّؤيةِ.

مُذَبْذَبِينَ: أي: مُتردّدين بين الإسلامِ والكُفر، أو مُضطرِبين مائِلين، وأصل الذَّبذبة: جَعْلُ الشَّيءِ مُضطربًا.

تفسير الآيات:

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138)

أي: أخبِرْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين أظهَروا الإسلامَ وأبطَنوا الكُفر بأقبحِ بِشارةٍ وأسوئِها، وهي أنَّ لهم عندَ اللهِ تعالى عذابًا مؤلِمًا موجِعًا.

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139)

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: هؤلاء المنافقونَ الذين صِفتُهم أنَّهم يجعَلون الكفَّارَ أولياءَ لهم يُحبُّونهم وينصُرونهم ويُعِينونهم لا عبادَ الله المؤمنين.

ثمَّ قال اللهُ تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه مِن موالاةِ الكافرينَ:

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ

أي: أيُّ شيءٍ حمَلهم على ذلك؟ أَيطْلُبون عندَ الكفَّار المنَعَةَ والقوَّة والغَلَبة باتِّخاذهم أولياءَ من دون المؤمنين؟

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا

أي: فليستِ العِزَّةُ عند الكفَّار، إنَّما العِزَّةُ والمَنَعةُ والنُّصرةُ والقوَّةُ من عند الله تعالى؛ فهو وحده القاهر لكلِّ شيء، الغالب لكلِّ شيء، ذو القَدْرِ العظيم، الَّذي لا يُماثِله شيءٌ، الَّذي يمتنع عليه كلُّ نقص وعيب، يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء؛ فالتمِسوا العِزَّة منه سبحانه، وانتظِموا في جملةِ عبادِه المؤمنينَ، واتخِذوهم أولياءَ؛ فإنَّ لهم النَّصرةَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويومَ يقوم الأشهادُ.

كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا [فاطر: 10].

وقال سبحانه: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ [المنافقون: 7، 8].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا

أي: قد بَيَّن اللهُ تعالى لكم في القُرآنِ- أيُّها المؤمنون- حُكمَه الشَّرعيَّ عند حضورِ مجالسِ الكفرِ والاستهانةِ بآياتِ اللهِ تعالى وأوامرِه ونواهيه.

والآيةُ الَّتي أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إليها هي قوله: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأنعام: 68].

فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

أي: لا تمكثُوا فيها إلَّا أنْ يأخُذَ المُتحدِّثون في حديثٍ آخَرَ غيرِ حديثِ الكُفْر والاستهزاء.

إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ

أي: إنِ ارتكبتُم هذا النَّهيَ بعد بُلوغِه إليكم، ورَضِيتم بالمُكثِ معهم في المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهان بها، وأقررتُموهم على ذلك، فقد شاركتُموهم إثمَ ذلك.

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى جامعُ الفَريقينِ من الكفَّارِ والمنافقين في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامة، فكما أشرَكوهم في الكُفر واجتمَعوا على عداوةِ المؤمنين والتَّخذيلِ عن دِينِ الله، كذلك جمَع اللهُ بينهم في الخلودِ في نار جهنَّمَ.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ

أي: إنَّ المنافِقين ينتظرون ما يحلُّ بكم- أيُّها المؤمنون- من خيرٍ أو شرٍّ.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ

أي: فإنْ فتَح الله تعالى عليكم فتحًا مِن عَدوِّكم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والغنيمةِ.

قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ

أي: قال لكم هؤلاء المنافقون: ألم نشهَدْ معكم قتالَ عدوِّكم؟ فأعطُونا إذًا نصيبَنا من الغنيمةِ.

وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ

أي: وإنْ كان لأعدائِكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم بإصابتِهم منكم في بَعضِ الأحيان.

قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

أي: ألم نساعِدْكم ونُحِطْ بكم إحاطةَ العنايةِ والنُّصرة، ونَحْمِكُم من المؤمنين، مِن أنْ ينالوكم بسوءٍ، وصرَفْناهم عنكم بتخذيلِهم، أو بالتَّجسُّسِ عليهم لإبلاغِكم أخبارَهم، أو بإلقاء الأراجيف والفِتَن بين جيوشهم لإضعاف بأسِهم، وبغير ذلك من وجوهِ المنع، حتَّى انتصرتم عليهم؟.

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: فإنَّ الله تعالى سيحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين، ويفصل بينهم بالقضاءِ الفصل يوم القيامة؛ وذلك بإدخالِ المؤمنين جنَّتَه، وإدخالِ المنافقين مع أوليائِهم الكفَّارِ نارَه.

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا

أي: لن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ في الدُّنيا مِن التَّسلُّط التَّامِّ على المؤمنين، واستئصالهم بالكُلِّيَّة، بل لا تَزالُ طائفةٌ من المؤمنين على الحقِّ منصورةً، لا يَضرُّهم مَن خذَلهم ولا مَن خالَفهم إلى يومِ القيامة، ولن يَجعلَ اللهُ تعالى للكفَّار حُجَّةً يَغلِبون بها المؤمنين يومَ القيامة، بل يُدخِل عِبادَه المؤمنين الجنَّةَ، ويُدخل الكفَّارَ وأولياءَهم المنافقين النَّارَ؛ فالعاقبة في الدُّنيا والآخرة للمؤمنين.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ

أي: إنَّ المنافقين يُخادِعون الله بإحرازِهم– بما أظهَروه من الإيمان وأبطَنوه من الكُفران– دماءَهم وأموالَهم؛ إذ يعتقدون لجَهلِهم وقلَّةِ عقلهم أنَّ أمرَهم كما راج عند النَّاس وجَرَتْ عليهم أحكامُ الشَّريعة ظاهرًا في الدُّنيا، يرُوجُ يوم القيامة عند اللهِ سبحانه وتعالى.

وَهُوَ خَادِعُهُمْ

أي: إنَّ الله تعالى خادِعُهم بما حَكَم فيهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائهم بما أظهروا بألسنتِهم مِن الإيمان، مع علمِه باستبطانِهم الكفرَ؛ وذلك استدراجًا منه لهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة فيُوردَهم نارَ جهنَّمَ.

وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى

أي: إذا قاموا لأداءِ الصَّلاةِ قاموا إليها وهم مُتثاقِلون مُتبرِّمون مِن فِعلها؛ لأنَّهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا رَغبةَ، وغيرُ مؤمنين بها، ولا موقِنين بمعادٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ.

كما قال تعالى: وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى [التوبة: 54].

ولَمَّا ذكَر الله جلَّ وعلا صِفةَ ظواهرِهم، أعقَبَ ذلك بذِكْرِ صفةِ بواطنِهم الفاسِدة، فقال:

يُرَاؤُونَ النَّاسَ

أي: إنَّما يُؤَدُّون الصَّلاةَ الَّتي يَقومون إليها كُسالى؛ ليراهم المؤمنون فيَحسَبوا أنَّهم منهم؛ وذلك بقاءً على أنفسهم، وحَذَرًا من المؤمنين عليها؛ كيلَا يُقتلوا أو تُسلَبَ أموالُهم، ولا إخلاصَ لهم لله تعالى.

وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: لا يذكُرون اللهَ تعالى في صلاتِهم بألسنتِهم، وجوارحِهم، وقلوبِهم، ولا يَخشَعون فيها، ولا يَدْرُون ما يقولون، بل هم في صلاتِهم ساهُون لاهونَ؛ وذلك لامتلاءِ قلوبِهم بالرِّياء.

عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقول: ((تلك صلاةُ المنافق، يجلسُ يَرقُبُ الشمسَ، حتَّى إذا كانتْ بين قَرْنَيِ الشَّيطانِ قام فنقَرها أربعًا، لا يذكُرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا)).(218)

(218) رواه مسلم (622).

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)﴾

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ

أي: إنَّ المنافقينَ مُتردِّدونَ مُتحيِّرونَ بين الإيمانِ والكُفر؛ فلا هُمْ مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرُهم مع المؤمنينَ، وبواطنُهم مع الكافرينَ، ومنهم مَن يَعتريه الشَّكُّ، فتارةً يميل إلى هؤلاء، وتارةً يميل إلى أولئك.

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((مَثَلُ المنافقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ بين الغنمَيْن، تَعيرُ إلى هذه مرَّةً، وإلى هذه مرَّةً))[219]، وفي روايةٍ: ((تكِرُّ في هذه مرَّةً، وفي هذه مرَّةً))[220].

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ تعالى عن طريقِ الهُدَى والحقِّ فلا يُوفِّقه له، فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- طريقًا لهدايته، ولا وسيلةً لتركِ غوايته.

(219) قولُه: ((تَعيرُ إلى هذه مرةً، وإلى هذِه مَرَّةً)): أي: تتردَّد وتذهب، والعائرة هي المتردِّدةُ الحائرةُ لا تَدْري لأيِّهما تَتَّبع. والرواية الأخرى (تَكِرُّ) بمعنى تعير أيضًا؛ يُقال: كرَّ على الشيء وإليه: عطَف عليه، وكرَّ عنه: ذهب.
يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (8/313- 314)، ((شرح النووي على مسلم)) (17/128).

(220) رواه مسلم (2784).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (144–147)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

غريب الكلمات:

أَوْلِيَاءَ: جمْع وليٍّ، وهو النَّصيرُ، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

سُلْطَانًا: أي: حُجَّة، وأصل السُّلطان: القوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا.

الدَّرْكِ: مَنزِلٌ من منازلِ أهلِ النَّار، فالنَّار دركاتٌ، أي: طبقاتٌ بعضُها دونَ بعضٍ، والدَّرك: أقْصَى قعرِ البحر، وأصل (درك): هو لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ ووصولُه إليه.

وَاعْتَصَمُوا: استمسَكوا وامتنَعوا به، والاعتصام: التَّمسُّك بالشَّيء، وأصل العِصمة: المنعُ، ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ، أي: منَعَه من الجوعِ، والعِصمةُ أيضًا الإمساكُ، والملازَمة.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: لا تَجعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لكم من غيرِ أَهلِ دِينكم مِن المؤمنين، فتُؤازِروهم وتُصاحِبوهم وتُسرُّوا إليهم بالمودَّةِ، وتُفشُوا أحوالَ المؤمنين الباطنةَ إليهم، وتَثِقوا بهم، وتَعتمِدوا عليهم.

كما قال تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ [آل عمران: 28].

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا

أي: هل تُريدون أن تجعَلوا لله تعالى عليكم حُجَّةً واضحةً باتِّخاذِكم الكافرين أولياءَ مِن دون المؤمنين، فتَستوجبوا منه ما استوجَبَه أهلُ النِّفاقِ باستحقاقِ العقوبة؟

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ

أي: إنَّ المُنافِقين في قَعرِ جهنَّمَ وأسفلِ طبقاتِها يومَ القيامة، جَزاءً على كُفرِهم الغليظِ.

وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا

أي: ولنْ تجِدَ لهؤلاء المنافقين– يا محمَّدُ– ناصرًا يَنصُرُهم مِن الله تعالى، فيُنقِذُهم مِن عذابِه، ويَدفَعُ عنهم أليمَ عقابِه.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

أي: إلَّا التَّائبين مِن نِفاقِهم، الَّذين رجَعوا للحقِّ وندِموا على سيِّئاتِهم.

وَأَصْلَحُوا

أي: وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ فعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ تعالى به، وانتهَوْا عمَّا نهاهم عنه، وأصلحوا ما أفسدوه.

وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ

أي: واعتصَموا بربِّهم في جَميعِ أمورِهم، والْتَجؤوا إليه في جَلْبِ مَنافعِهم ودَفْعِ المضارِّ عنهم.

وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ

أي: قَصَدوا وجهَ اللهِ تعالى بأعمالهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وسَلِمُوا من الرِّياءِ والنِّفاقِ.

فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

أي: فهؤلاء المُنافقون بعدَ تَوبتِهم وإصلاحِهم واعتِصامِهم بالله تعالى وإخلاصِهم له مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ، يَكونون في زُمرتِهم يومَ القيامة، ويَدخُلونَ معهم الجَنَّةَ.

وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: وسوفَ يُعطي اللهُ تعالى المؤمنين ثوابًا عظيمًا، لا يعلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ

أي: ما يصنَعُ اللهُ تعالى– أيُّها المنافِقون– بعذابِكم، إن شكَرْتموه على نِعَمِه، فقُمتُم بطاعتِه، وآمنتم حقًّا بما يجبُ عليكم الإيمانُ به؟ فإنَّه لا حاجةَ لله سبحانه في أن يُعذِّبَكم؛ إذ لا يَجتلِبُ إلى نفْسِه بعَذابِكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها ضرًّا.

وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى شاكرٌ لِمَن شكَر له، فيُثيبُهم على ما عمِلوا، أكثرَ ممَّا عمِلوا، عليمٌ بإيمانِ مَن آمَن قلبُه به، وعليمٌ بمن يستحقُّ الشُّكر مِن عبادِه، ويُجازيه على ذلك أوفرَ الجزاء.

سُورَةُ النِّساءِ

الآيات (148-152)

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا **(148)** إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا **(149)** إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا **(150)** أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا **(151)** وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا **(152)**

غريب الكلمات:

بِالسُّوءِ: السُّوء اسمٌ جامعٌ للآفات، ثم استُعمل في كلِّ ما يُستقبحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسان.

سَبِيلًا: فِعلًا وطريقًا، والسَّبِيلُ: الطَّريق الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): امْتِدَادِ شَيْءٍ.

مُهِينًا: مُذِلًّا، والهوان: الاستخفاف، أو أن يُذَلَّ الإنسانُ من جهة متسلِّط مستخِفٍّ به، وأصله يدلُّ على احتقارٍ وحقارة في الشيء.

تفسير الآيات:

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148)

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

أي: إنَّ الله تعالى يُبغض- أيُّها الناسُ- جَهْرَ أحدٍ منكم بالقول السيِّئ، كالشَّتمِ والقَذْف والسَّبِّ، ونحوِ ذلك.

إِلَّا مَنْ ظُلِمَ

أي: أمَّا مَن ظُلم؛ فلا حرَجَ عليه أن يُخبِرَ بما أُسيء به إليه، كأنْ يدعوَ على مَن ظلَمَه ويتشكَّى منه، أو أن يقول له: أنت ظلمتني، أو يقول للناس: إنه ظالم، من غير أن يَكذِبَ عليه، ولا يَزيد على مظلمتِه، ولا يَتعدَّى بشَتمِه غيرَ ظالِمِه.

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى سميعٌ لِمَا تجهرون به من سوءِ القولِ وغير ذلك من أقوالِكم، عليمٌ بما تُخفون منها، وعليمٌ بنيَّاتكم ومَصدرِ أقوالكم، ومُحْصٍ ذلك كلَّه عليكم، فيُجازي كلًّا منكم بحَسَبه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فاحْذروا أن تقولوا ما لا يَرضاه، أو أن تُخفوا في قلوبِكم ما لا يحبُّه.

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149)

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ

أي: إن تُظهروا – أيُّها الناسُ – جميلًا من القول أو الفِعل، أو تتركوا إظهارَه فتُخفوه.

أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ

أي: أو تَصْفَحوا عن إساءةِ مَن أساء إليكم بقولٍ أو فِعل.

فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا

أي: فإنَّ الله تعالى يَصفَح عن ذُنوب عبادِه مع قُدرتِه على عِقابهم عليها؛ فاعْفوا أنتم أيضًا– أيُّها الناسُ– عمَّن أتى إليكم ظُلمًا، ولا تَجهروا له بالسُّوء من القول، وإنْ قدَرتُم على الإساءةِ إليه، كما يَعفو عنكم ربُّكم مع قُدرتِه على عِقابِكم وأنتم تَعصونه، والجزاءُ من جِنس العملِ؛ فمَن عفَا للهِ سبحانه عفَا اللهُ تعالى عنه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ

أي: إنَّ الكافرين بالله تعالى وبرُسله عليهم السَّلام مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم.

وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ

أي: ويُريدون أن يُؤمنوا بالله تعالى، ويَكفُروا برُسُلِه الَّذين أرْسلَهم إلى خَلْقِه؛ فيُكذِّبوهُم.

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

أي: ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسُل، ونكفُر ببعضهم، كما فعلتِ اليهود؛ فكَفروا بعيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، وزَعَموا الإيمانَ بموسى عليه السَّلام. وكما فعَلتِ النَّصارى؛ فكفروا بمحمَّد ﷺ – وزَعَموا الإيمانَ بعيسى عليه السَّلام.

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا

أي: ويُريدون بإيمانهم ببعض الرُّسل دون بعضٍ سُلوكَ طريقٍ يُوصلهم إلى الله تعالى ويُنجّيهم من عذابِه.

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151)

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

أي: إنَّ كُفرَ هؤلاء الكفار محقَّقٌ لا محالة، وهم مُستحقُّونَ عذابَ الله تعالى حقًّا؛ فاستيقِنوا ذلك أيُّها المؤمنون، ولا يُشكِّكنَّكم في أمْرِهم انتحالُهم الكذبَ بدَعْوى أنَّهم يُقرُّون ببعض الرسل؛ فلو كانوا مؤمنين حقًّا بِمَن زعموا الإيمانَ بهم، لآمَنوا بغيرِهم من الرُّسل عليهم السَّلام.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ لهؤلاء الكفَّار وغيرهم من الكافِرين عذابًا مخزيًا ومُذلًّا لهم، كما تكبَّروا عن الإيمانِ الحقِّ بالله تعالى، واستهانوا بِمَن كفَروا به من الرُّسل عليهم السَّلام.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ (152)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

أي: إنَّ المؤمنينَ بالله تعالى حقًّا، وبجميعِ رُسلِه الكرام عليهم السَّلام، دون أن يُفرِّقوا بينهم بالإيمانِ ببعضهم والكُفرِ ببعضهم.

أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ

أي: إنَّ هؤلاءِ المؤمنين بالله تعالى ورُسُله عليهم السَّلام جميعًا، سوف يُعطيهم اللهُ عزَّ وجلَّ جزاءَهم وثوابَهم على إيمانهم به سبحانه وبجَميعِ رُسلِه عليهم السَّلام.

وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ لِمَن آمَن به وبجميعِ رُسله، فيَغفِر لهم السيِّئات، رحيمٌ بهم بتفضُّله عليهم بالهدايةِ إلى طريق الحقِّ وتقبُّل الحسَنات.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (153–162)

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153)

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160)

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ

الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)

غريب الكلمات:

جَهْرَةً: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل الجهر: إعلانُ الشيءِ وكشفُه، وعلوُّه.

الصَّاعِقَةُ: النَّار التي تَنزلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشَّديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلِك (الموت - العذاب - النار)، ومنه: صَعِق، إذا مات، وأصل (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوت.

الْبَيِّنَاتُ: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشف.

سُلْطَانًا: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القُوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا.

الطُّورَ: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وهو يُطلق على الجبَل الشَّاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المُنبِت، وأصل (طور): الامتدادُ في شيءٍ من مكانٍ أو زمان.

بِمِيثَاقِهِمْ: الميثاق: العقد المؤكَّد بيمينٍ وعهد، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): العقد والإحكام.

لَا تَعْدُوا: لا تَتعدَّوا وتُجاوزوا ما أُمرتُم به، وأصْل التَّعدِّي: التَّجاوزُ في الشَّيء، والتقدُّم لِمَا يَنبغي الاقتصار عليه.

غَلِيظًا: أَيْ: شَدِيدًا، وخَشنًا، والغِلظة ضد الرِّقَّة.

نَقْضِهِمْ: أي: نبْذِهم إيَّاه بعدَ القَبول به، وترْكِهم العملَ به، وأصل النَّقض ضِدُّ الإبرام: وهو فكُّ تركيبِ الشيء وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا؛ فنقض البناء: هدمُه، ونقض المُبرَم: حَلُّه.

غُلْفٌ: جمْع أغلف، أي: كأنَّها في غِلاف لا تَفهم، ولا تَعقِل شيئًا ممَّا يُقال، وأصل الغلف: الغشاوة، وغشيان شيءٍ لشيء.

طَبَعَ: ختَم عليها؛ فلا يَصل إليها هُدًى ولا نورٌ.

بُهْتَانًا: أي: ظُلمًا، ويُطلَق الْبُهْتَانُ على الكَذِبُ، وعلى كلِّ فِعل مُستبشَع يُتعاطى باليد والرِّجل، مِن تناوُل ما لا يجوز، والمشيِ إلى ما يَقبُح.

الْمَسِيحَ: هو عيسى عليه السَّلام؛ وسُمِّي عيسى بالمسيح؛ لأنَّه كان لا يَمسحُ بيدِه ذا عاهةٍ إلَّا برِئ.

صَلَبُوهُ: علَّقوه وشدُّوا صُلبَه على خَشَبٍ؛ ليَقتلوه.

شَهِيدًا: شاهدًا على مَن كَفَر به وكذَّبه، ولِمَن آمَن به وصَدَّقه، والشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حَصَل بمشاهدة بصيرة أو بصَر.

الرِّبَا: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ.

الرَّاسِخُونَ: الثَّابتون، جمْع: راسخ، ورُسوخُ الشَّيءِ في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه.

تفسير الآيات:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153)

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ

أي: يسألك أهلُ التوراة من اليهود يا محمَّد، على سبيل التعنُّت والعِنادِ أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملةً واحدة، مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ، كما كانت ألواحُ التَّوراة، يَشهَدُ لك بالصِّدق، ويأمُرهم باتباعك.

فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ

أي: لا يَعظُمنَّ عليك يا محمَّد، سؤالُهم ذلك، ولا تعجبنَّ منه؛ فإنَّه ليس بغريبٍ من أمرهم، بل سبَق لهم طلبُ ما هو أعظمُ من ذلك من موسى عليه السَّلام، الذي يَزعُمون أنَّهم يؤمنون به!

فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً

أي: فقالوا لموسى عليه السَّلام: نُريد رُؤيةَ الله تعالى عِيانًا نَنظُر إليه؛ كي نُصدِّقَك.

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً [البقرة: 55].

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

أي: عُوقبوا بالصَّعق؛ بسببِ عُدوانهم وعِنادهم فهَلَكوا، ثم أحياهم اللهُ.

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [البقرة: 55 – 56].

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ

أي: ثم اتَّخذ هؤلاء الذين سألوا موسى رؤيةَ ربِّهم عِيانًا، بعدَما أحياهم اللهُ تعالى من صَعقتِهم، اتخذوا العجلَ إلهًا يعبدونه، مِن بعدِ ما رأوا بأبصارهم الأدلَّةَ الواضحةَ، والمعجزاتِ الباهرةَ التي جرَت لموسى عليه السَّلام!

فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ

أي: فعَفَوْنا لعبدةِ العجل عن عِبادتهم إيَّاه. وقد جعَل الله تعالى توبتَهم: أن يَقتُل بعضُهم بعضًا.

كما قال سبحانه: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة: 54].

وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا

أي: وأَعطينا موسى عليه السَّلام حُجَّةً واضحة، تُبِين عن صِدقه ونبوَّته، وهي الآياتُ البيِّنات، والحُججُ الباهرات التي أُعطيها.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154)

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ

أي: حين امتنَعوا من العملِ بالتوراة التي عُهِد إليهم الالتزامُ بها عهدًا مؤكَّدًا، رفَعْنَا فوق رؤوسهم جبلًا لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهِدوا عليه، ويَعمَلوا به بقوَّة.

كما قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة: 63].

وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا

أي: وأمَرْناهم أن يَخضعوا لله سبحانه بالفِعل والقولِ عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يَضعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم.

وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ

أي: وقُلنا لهم: لا تَتجاوزوا في يوم السَّبت ما أُبيح لكم إلى ما حُرِّم عليكم.

كما قال تعالى: وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) [الأعراف: 163].

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

أي: وأَخذْنا عليهم عهدًا مؤكَّدًا شديدًا بأنْ يَعملوا بما أمرَهم اللهُ تعالى به، ويَنتهوا عمَّا نهاهم عنه.

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ

أي: فبسببِ نقضِهم عهودَهم، التي عاهدوا اللهَ تعالى أن يأخذوا بها، طَرَدْناهم وأبعدناهم من رحمتِنا.

كما قال تعالى: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً... [المائدة: 13].

وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ

أي: وبسبب كُفرهم بالأدلَّة والحُجج والمعجزاتِ، التي شاهدوها دالَّةً على الحقِّ بوضوحٍ.

وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

أي: وبسببِ قيامِهم بقَتْلِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام بغير سببٍ يَستحقُّون به القتل.

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ

أي: وبسببِ قولهم: قلوبُنا داخلةٌ في غِلاف وأَغطيةٍ، فلا نَعقِل بها.

كقوله تعالى: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ [فصلت: 5].

بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

أي: ليس الأمرُ كما زعَموا من أنَّ قلوبَهم غُلف؛ فقد كذَبوا في ذلك، وإنَّما ختَم الله تعالى على قلوبِهم؛ بسببِ كُفرهم.

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: إنَّهم آمنوا بشيءٍ يسيرٍ ممَّا وجب عليهم الإيمانُ به، لكنَّه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنَّه مغمورٌ بما كفروا به، كإيمانهم ببعضِ الأنبياء وكُفرهم ببعضهم.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)

أي: وبسبب كُفرهم وبسبب افترائِهم على مريمَ عليها السَّلام برَمْيِها بالوقوعِ في الزِّنا.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157)

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ

أي: وبسببِ دَعواهم قتْل عيسى عليه السَّلام.

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

أي: والحقُّ أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى عليه السَّلام، ولم يَصلِبوه كما يَدَّعون، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخرَ؛ فظنُّوه هو.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ

أي: إنَّ الذين اختلفوا من اليهود والنَّصارى في شأنِ عيسى عليه السَّلام- هل هو الذي قُتِل وصُلِب أم غيره- يُخالج نُفوسَهم الشكُّ، وتنتابهم الحَيرةُ من هذا الأمر.

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ[221]

---

(221) رَجَّح ابنُ تيمية (٣٥٦/٢) أنّ الآية تعم الطائفتين: اليهود والنصارى، ولم يذكر مستندًا.

أي: مِن غير أن يكونَ لهم عِلمٌ جازم بمَن قتلوه حقًّا؛ أهو عيسى عليه السَّلام أم غيره، وإنَّما غايةُ ما لديهم هو مجرَّدُ ظنونٍ لا تَرقى إلى درجةِ اليقين.

وَمَا قَتَلُوهُ[222] يَقِينًا

أي: وما قتَلوه متيقِّنين أنَّه عيسى عليه السَّلام.

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا من أنَّهم قتلوه وصلبوه، ولكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رفَعه إليه في السَّماء؛ فلم يَظفروا به.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا [آل عمران: 55].

---

(222) نقل ابنُ عطية (٣/٦٢-٦٣) اختلاف المفسرين في عود الضمير مِن ﴿قَتَلُوهُ﴾، فقال: «اختلف المتأوِّلون في عود الضمير من ﴿قَتَلُوهُ﴾، فقالت فرقة: هو عائد على الظن، كما تقول: قتلت هذا الأمر علمًا، فالمعنى: وما صحَّ ظنُّهم عندهم ولا تحقَّقوه يقينًا.

هذا قول ابن عباس، والسدي، وجماعة.

وقال قوم: الضمير عائد على عيسى ، أخبر أنهم لم يقتلوه يقينًا فيصح لهم الإصفاق، ويثبت نقل كافتهم».

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى ذو قدْرٍ عظيمٍ، منيع الجَناب، غالبٌ على أمره، قاهرٌ لأعدائه ومنتقِمٌ منهم، ذو حكمةٍ في تدبيره وقَضائه؛ فيضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به سبحانه، ومِن عِزَّته وحِكمته عزَّ وجلَّ: رفْعُه لعيسى عليه السَّلام، ومنعُ أعدائه من الوصول إليه.

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ[223]

أي: إنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكِتاب بعد نُزولِ عيسى عليه السَّلام في آخِر الزَّمان، عند اقترابِ السَّاعة، وظهورِ علاماتها الكِبار، إلَّا آمَن به قبلَ موته عليه السَّلام.

---

(223) اختُلِفَ في مرجع الهاء في قوله تعالى: ﴿إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾، وقوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ على أقوال: الأول: إلا ليؤمنَنَّ بعيسى قبل موت عيسى.

الثاني: إلا ليؤمنَنَّ بعيسى قبل موت الكتابيّ.

الثالث: إلا ليؤمنَنَّ بمحمد ﷺ قبل موت الكتابيّ.

وعَلَّق ابنُ كثير (٤/٣٤٥) على القول الثاني والثالث قائلًا: «فأمّا من فسَّر هذه الآية بأنّ المعنى: أن كل كتابيٍّ لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع، وذلك أنّ كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلًا به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيمانًا نافعًا له إذا كان قد شاهد المَلَك، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿ولَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتّى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ ولا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وهُمْ كُفّارٌ﴾ [النساء:١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا باللهِ وحْدَهُ وكَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

ومَن تأمل هذا جيّدًا وأمعن النظر اتَّضح له أنّ هذا وإن كان هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا».

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((والذي نَفْسي بيدِه، ليُوشِكنَّ أن يَنزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكمًا عدلًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدُّنيا وما فيها، ثم يقولُ أبو هريرةَ: واقرؤوا– إنْ شئتم –: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)).[224]

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

أي: ويوم القِيامة يكونُ عيسى عليه السَّلام شاهدًا على أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، الذين تعارَضتْ أقوالُهم فيه بتكذيبِ مَن كفَر به منهم، وتَصديق مَن آمَن به منهم، فيما أَتاهم به من عند الله، وبإبلاغِه رسالةَ ربِّه ومولاه، وشاهدًا على أعمالهم التي شاهدَها منهم قَبلَ رفْعِه إلى السَّماء، وبعد نُزوله إلى الأرض.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [المائدة: 116 – 118].

---

(224) رواه البخاري (3448) واللفظ له، ومسلم (155).

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا

(160)

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

أي: بسبب ظُلم اليهود– بما ارْتكبوه من الذُّنوب العَظيمة– حرَّم الله تعالى عليهم؛ عقوبةً لهم، عددًا من الطيِّبات التي أحلَّها لهم سبحانه من قبلُ.

كما قال تعالى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [الأنعام: 146].

وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا

أي: وبسببِ صدِّهم أنفُسَهم عن اتِّباع الحقِّ، وصدِّهم الناسَ أيضًا عن طريقِ الهُدى صدًّا كثيرًا، فقد قالوا على الله تعالى الباطِلَ، وبدَّلوا كتابَ الله، وحرَّفوا معانيَه عن وجوهِه، وكتَموا ما فيه– كأمْر مُحمَّد – ﷺ – وبيان صِفته للنَّاس– وقتَلوا خلقًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام.

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ

أي: وبسببِ تَناوُلِهم الرِّبا، والحال أنَّهم قد نُهوا عن أخْذه، فقامتْ عليهم الحُجَّةُ في ذلك.

وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

أي: وبسبب استيلائِهم على أموالِ الناسِ بغير حقٍّ.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي: وهيَّأْنا للكفَّارِ من هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا.

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ

أي: ليس كلُّ اليهود على تِلك الأوصاف السيِّئة؛ فالذين ثبَت العِلمُ النافع في قلوبِهم، ورسَخَ الإيقانُ في أفئدتهم، والمؤمنون بالله تعالى وجميعِ كُتبِه ورُسلِه عليهم السَّلام.

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

أي: يُؤمِنون بالقُرآنِ الذي أُنزل إليك يا محمَّدُ، وبالكُتُب السابقة التي أُنزلتْ على الأنبياء عليهم السَّلام من قَبْلك.

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ

أي: والذين يُؤدُّون الصلاةَ على وجه الاستقامة والتَّمام، فيأتون بها تامَّةَ الشروط، مستوفيةَ الأركان والواجبات، ويُكمِّلونها بالمستحبَّات.

وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

أي: والذين يُعطون زكاةَ أموالهم أهلَها المستحقِّين لها.

وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي: والذين يُؤمنون باللهِ تعالى، ويُؤمنون بالبَعثِ بعد الموت، والجزاءِ على الأعمالِ؛ خيرِها وشرِّها.

أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: أولئك الذين هذه صِفتُهم- ممن جمعوا بين العِلم والإيمانِ والعملِ الصالح- سنُعطيهم جزاءً وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (163–166)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا

(163)

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

(164)

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

(165)

لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)

غريب الكلمات:

زَبُورًا: الزَّبور هو الكتاب المنزَّل على داود عليه السَّلام، وهو في الأصل: كلُّ كتابٍ ذو حِكمة، من الزَّبر، وهو الكِتابة والقِراءة، وقيل: مِن زَبَرَه، إذا دَفَعه.

حُجَّةٌ: دَلالة مبيِّنة للمَحجَّة، وبُرهان وسُلطان.

تفسير الآيات:

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا

(163)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ

أي: إنَّا أعلمناك– يا محمدُ– بشرعِنا، كما أعلمنا أيضًا نوحًا ومَن جاء بعدَه مِن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ

أي: وأعلمنا بشرعنا أيضا كلًّا مِن إبراهيمَ وإسماعيلَ، وإسحاقَ ويعقوبَ والأنبياء من ذرية يعقوب، وعيسى، وأيُّوبَ ويونسَ وهارون وسليمانَ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا

أي: وأَعْطينا داودَ عليه السَّلام كتابًا يُسمَّى بالزَّبور.

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

(164)

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

أي: وأَوْحينا إلى رُسلٍ قد أتينا على ذِكرهم لك في القُرآن من قبلِ نُزولِ هذه الآية.

وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ(225)

أي: وأَوْحينا أيضًا إلى رُسلٍ آخرين لم نَأتِ على ذِكرهم لك في القُرآن.

وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

أي: وخاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ بكلامِه موسى عليه السَّلام دون واسطةٍ، بكلامٍ واضح بحرف وصوت، سمعه منه موسى عليه السلام.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

(165)

---

(225) ذكر ابنُ عطية (٣/٦٨) أنّ قوله تعالى: ﴿ورُسُـلًا لَمْ نَقْصُـصْـهُمْ عَلَيْكَ﴾: «يقتضـي كثرة الأنبياء دون تحديد بعدد، وقد قال تعالى: ﴿وإنْ مِن أُمَّةٍ إلّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وقُرُونًا بَيْنَ ذلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨]».
ثم انتَقَد الروايات الواردة في ذكر عدد الأنبياء قائلًا: «وما يذكر مِن عدد الأنبياء فغير صـــحيح، والله أعلم بعِدَّتِهم –صـــلّى الله عليهم–».

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ

أي: أَرسلتُهم رسلًا إلى عِبادي مبشِّرين مَن أطاعني وآمَن برُسلي بالسَّعادةِ الدنيويَّة والأُخرويَّة، ومُحذِّرين مَن عصاني وكذَّب رُسلي بشقاوةِ الدَّارين.

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

أي: لئلَّا يَبقَى لمعتذرٍ عُذرٌ؛ فلا يحتجُّ مَن كفر بالله تعالى وضلَّ عن سبيله بأنَّ الرِّسالة لم تبلغه.

كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى [طه: 134].

وقال سبحانه: وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [القصص: 47].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((ولا أَحدَ أحبُّ إليه العذرُ من اللهِ؛ ومن أجْلِ ذلك بعَثَ المبشِّرين والمنذرين...)).(226)

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((وليسَ أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من اللهِ؛ مِن أجْلِ ذلك أَنزلَ الكتابَ، وأرسل الرُّسلَ)).(227)

---

(226) رواه البخاري (7416) واللفظ له، ومسلم (1499).
(227) رواه مسلم (2760).

وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى ذُو عزَّة، ومِن عِزَّته: قَهرُه وانتقامُه ممَّن كفَر به وعصاه بَعدَ بلوغِ رِسالتَه إليه، وهو ذو حِكمةٍ سبحانه فيَضع كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائق به، ومِن حِكمته عزَّ وجلَّ: أنْ أَرْسل إلى عِبادِه الرُّسلَ، وأَنزل عليهم الكتُبَ.

لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (166)

لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ

أي: وإنْ كفَرَ بك مَن كفَر يا محمَّد، فالله تعالى يَشهَدُ لك بأنَّه أَنزل عليك القرآنَ العظيم.

أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ

أي: إنَّ إنزالَ الله تعالى للقرآنِ صادرٌ عن عِلم؛ فيعلم بماذا نزَلَ وكَيف نزَل، وعلى مَن نزَل، ويعلم حالةَ الذي أَنزله عليه، وكذلك نزَلَ القرآنُ مشتملًا على عُلومٍ إلهيَّة، وأحكامٍ شرعيَّة، وأخبارٍ غَيبيَّة، ممَّا هو مِن عِلم الله تعالى الذي أراد أن يُطلع العِبادَ عليه.

وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ

أي: ويَشهد لك بصِدقِ رِسالتك، وصِحَّة ما أُنزل عليك، ملائكةُ الله جلَّ وعلا؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُ مَن كذَّبك.

وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا

أي: وحَسْبُك بالله شاهدًا على صِدقك دون مَن سواه مِن خَلْقِه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (167–170)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا **(167)**

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا **(168)**

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا **(169)**

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا **(170)**

غريب الكلمات:

صَدُّوا: أَعْرَضوا وعدَلوا، ويُطلق الصدُّ أيضًا على الانصرافِ عن الشَّيءِ، والامتناع عنه، وأصْل (صد): الصَّرْف والمنْع.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ

أي: إنَّ الكفَّار الذين أعرضوا عن اتّباع الحقّ، وسَعَوْا في منْع الناس من اتّباعه.

قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: قد انحرَفوا عن طريق الحقّ، وبَعُدوا منه بعدًا عظيمًا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا

أي: إنَّ الكفَّارَ الظالمين لأنفسِهم بالكُفر، وبالصدِّ عن سبيلِه، ومخالفةِ أوامرِه، وارتِكابِ نواهيه.

لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليسترَ عليهم ذُنوبَهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بها.

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا

أي: ولم يكُنِ الله تعالى ليوفِّقَهم لسلوك طريق الحقّ الذي يَصِلُون به إلى الجنة.

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (169)

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

أي: لكنَّ اللهَ تعالى يَهديهم لسلوك طريق الباطِل، الذي يَصِلون به إلى جهنَّمَ، فيمكثون فيها بلا نهايةٍ ولا انقطاع.

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا

أي: إنَّ تخليدَ هؤلاء الكفَّار في جهنَّمَ أمرٌ هيِّنٌ على الله تعالى، الذي لا يَصعُب عليه شيءٌ سبحانه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ

أي: يَا أيُّها الناسُ إنَّ ما أتاكم به محمَّدٌ - ﷺ - من الله تعالى فهو حقٌّ، وبَعْثَته عليه الصَّلاة والسَّلام حقٌّ.

فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ

أي: فآمِنوا بما جاءكم به محمَّد - ﷺ - واتَّبعوه، فإنَّ الإيمان به خير لكم في الدُّنيا والآخرة من الكُفر به.

كما قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أي: وإنْ كفرتُم بالرسول - ﷺ - وبما جاء به، فاعْلَموا أنَّ الله تعالى غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّر بكُفركم؛ إذ يملك جميعَ ما في السَّموات وما في الأرض.

كما قال تعالى: وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [إبراهيم: 8].

وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى عليمٌ بما أنتم صائرون إليه من الإيمان أو الكفر، عليمٌ بمَن يستحقُّ الهدايةَ منكم فيَهديه، وبمَن يستحقُّ الضلالة منكم فيُضِلُّه، حكيمٌ في جميع أقواله وأفعالِه وشَرْعه وقدَره، فيضع سبحانه كلَّ شيءٍ في موضعِه اللائق به.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (171-175)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)

غريب الكلمات:

لَا تَغْلُوا: لا تُجاوزوا الحدَّ، وترتفِعوا عن الحقِّ، أو لا تَزيدوا ولا تُفرِطوا فيه، وأصل الغُلوِّ: الإفراط ومجاوزة الحدِّ، والزِّيادة.

وَكَلِمَتُهُ: سُمِّي عيسى عليه السَّلام (كلِمة)؛ لكونه موجدًا بالكلمة (كن)؛ كما في قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59].

أَلْقَاهَا: أمَر بها، أو أَعْلَمَ بها، وأصْلُ الإلقاء: طرْح الشيءِ حيث تَلْقاه.

يَسْتَنْكِفَ: يأنف، مِن: نكف الدَّمعَ، إذا مَسَحه عن خدِّه بإصبعيه أنفةً من أن يُرى أثَرُ البكاء عليه، وأصلُ نكف: يدلُّ على قطْعِ شيءٍ وتنحيته.

فَسَيَحْشُرُهُمْ: يَبعثُهم ويَجمُعهم، والحشر: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجهم عنه إلى الحربِ ونحوها، وأصلُ (حشر): السَّوْق، والبَعْث والانبعاث.

وَلِيًّا: أصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

نَصِيرًا: ناصرًا، وعونًا، وأصل نصر: يدلُّ على إتيان خيرٍ، وإيتائِه.

بُرْهَانٌ: حُجَّةٌ ودَلالةٌ واضحة، وأصله: وضوحُ الشَّيء.

وَاعْتَصَمُوا: استَمسَكوا وامتنعوا به، وأصلُ العِصمة: المنْع- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه من الجوع-، والإمساك، والملازمة.

وَفَضْلٍ: أي: عطاءٍ زائِد؛ فأصلُ الفضل الزِّيادة، وكلُّ عَطيَّة لا تلزم مَن يُعطي، يُقال لها: فضل، والإفضال: الإحسان.

تفسير الآيات:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (171)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ

أي: يا أهلَ الإنجيل من النَّصارى لا تتجاوزوا الحقِّ في دِينكم فتُفْرِطُوا فيه؛ فإنَّهم قد تجاوزوا حدَّ التصديق بعيسى عليه السَّلام، حتى رفَعوه عن مقام النبوَّة والرِّسالة إلى مقام الربوبيَّة، الذي لا يَليقُ بغير الله عزَّ وجلَّ.

وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ

أي: لا تَفتروا على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تَجعلوا له صاحبةً وولدًا.

قال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [التوبة: 31].

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ

أي: ما المسيحُ– أيُّها النصارى الغالُون في دِينهم– ابنٌ لله تعالى كما تَزْعُمون، ولكنَّه عيسى ابنُ مريم, لا نَسبَ له غير ذلك، فهو عبدٌ من عباد الله تعالى، وخَلْقٌ من خلْقه، ورسولٌ من رُسله.

كما قال الله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ [المائدة: 75].

وعن عُمرَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ –، قال: ((لا تُطْروني[228]، كما أطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه)).[229]

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ رجلًا قالَ: يا مُحَمَّدُ، يا سيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، وخَيرَنا وابنَ خيرِنا، فَقالَ رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((يا أيُّها الناسُ، عليكُم بقولِكُم، ولا يَستَهْوينَّكمُ[230] الشَّيطانُ، أنَا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله، عبدُ اللهِ ورسولُه، واللهِ ما أُحبُّ أنْ ترفعوني فوقَ منزلَتي الَّتي أنزلَني اللهُ عزَّ وجلَّ)).[231]

---

(228) لا تُطرُوني: أي: لا تُجاوزا الحدَّ في مَدْحي، ولا تكذبوا فيه.
ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (123/3)، ((لسان العرب)) لابن منظور (6/15).

(229) رواه البخاري (3445).

(230) يَستَهْويَنَّكمُ الشَّيطانُ: يَذهبَنَّ بهواكِم وعُقولِكم، أو يُحيِّرنَّكم، أو يُزيّنن لكم هَواه فيُغويكم ويُضلِّكم.
ينظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (329/40).

(231) رواه أحمد (12573)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (1309)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (10006)، وابن حبان (6240) من حديث أنس بن مالك.
صحح إسناده على شرط مسلم، ابن عبد الهادي في ((الصارم المنكي)) (459)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (611/1)، وصحح الحديث الألباني في ((غاية المرام)) (127)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (132).

وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

أي: خَلَقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريلُ عليه السَّلام إلى مريم .

كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59].

وَرُوحٌ مِنْهُ(232)

أي: إنَّ عيسى عليه السَّلام رُوحٌ مِن خَلْق الله سبحانه؛ فقد أَرسل اللهُ تعالى جبريلَ عليه السَّلام، فنَفَخ في فَرْج مريمَ عليها السَّلام، فحمَلتْ بإذن الله عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 91].

وقال سبحانه: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ [التحريم: 12].

---

(232) رجَّح ابنُ كثير (٣٨٩/٤) مستندًا إلى النظائر أنّ معنى: ﴿ورُوحٌ مِنهُ﴾: «أنّه مخلوق مِن روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود:٦٤]، وفي قوله: ﴿وطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، وكما ورد في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربي في داره»، أضافها إليه إضافة تشريف لها، وهذا كله من قبيلٍ واحد، ونمط واحد».

عن عُبادَةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((مَن شَهِدَ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجَنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، أَدْخَله اللهُ الجنةَ على ما كان من العملِ)).

وفي روايةٍ: ((أدخله اللهُ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثَّمانيةِ شاء)).[233]

فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ

أي: فآمِنوا بالله تعالى الواحدِ الأحد، الذي لا صاحبةَ له ولا ولدَ، وآمِنوا برُسله وبما جاؤوكم به من عند الله عزَّ وجلَّ.

وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ

أي: ولا تقولوا: الأرباب ثلاثة، فتجعلوا عيسى وأمَّه شَريكينِ لله سبحانه وتعالى.

كما قال تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ الآية [المائدة: 17، 72].

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ [المائدة: 73].

وقال سبحانه: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ الآية [المائدة: 116].

---

(233) رواه البخاري (3435)، ومسلم (28) واللفظ له.

انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ

أي: انتَهوا عن قولِ ذلِك واعتقادِه، فإنَّ الانتهاء عن ذلك خيرٌ لكم.

إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ

أي: ما الله سبحانه بثالثِ ثلاثةٍ، ولكن الله تعالى هو المنفردُ بالألوهيَّة، الذي لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له؛ فلا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ.

سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ

أي: تنزَّه وتقدَّس الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عن أن يكونَ له ولدٌ.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنَّ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض مُلكه وخَلقُه وعَبيدُه؛ فكيف يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟!.

كما قال سبحانه: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام: 101].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: 88 – 95].

وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا

أي: وحسْبُ الخلق كلِّهم اللهُ تعالى وحده، فهو القائمُ بشؤون كلِّ شيء، والحافظ لكلِّ شيء والمدبِّر له، فلا يُحتاج معه إلى غيرِه سبحانه من ولدٍ، أو صاحبةٍ، أو غيرهما.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172)

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ

أي: لن يأنفَ ويمتنعَ عيسى عليه السَّلام عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ.

وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

أي: ولن يأنفَ ويمتنع أيضًا من الإقرارِ لله تعالى بالعبوديَّة له وحده، ملائكتُه المقرَّبون.

وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

أي: ومَن يأنفْ ويمتنعْ عن عِبادة ربِّه، ويَترفَّعْ عنها ويتعالَ عليها.

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا

أي: فسيبعثُ الله سبحانه يومَ القيامة المستنكفين والمستكبرين عن عِبادته، فيجمعهم جَمِيعًا عنده، فيفصل بينهم بحُكمه العَدْل.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

(173)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أي: فأمَّا الذين جمَعوا بين الإيمان المأمور به وعَملِ الأعمال الصالحات من واجباتٍ ومُستحبَّات.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ

أي: فيؤتيهم من الثَّواب على قدْرِ إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، جزاءً وافيًا كاملًا.

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

أي: ويَزيدهم على ما لهم من الأجور والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة، زيادةً من فضله وإحسانِه، وسَعَةِ كرَمه ورحمتِه سبحانه.

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا

أي: وأمَّا الذين أنِفوا وامتنعوا عن عبادةِ الله تعالى، وترفَّعوا عنها، وتعالَوْا عليها.

فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي: فسيُعذِّبهم الله تعالى عذابًا موجِعًا لهم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: 60].

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

أي: ولا يَجِدون أحدًا من الخَلْق يتولَّاهم فيحصُل لهم ما يَطلُبون، ولا مَن يَنصرُهم فيدفعُ عنهم ما يَحذرون.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ

أي: يا أيُّها الناسُ قد جاءتْكم من الله تعالى حُججٌ قاطعةٌ للعُذر، وأدلَّةٌ واضحةٌ مزيلة للشُّبهات، تُبيِّن الحقَّ وضدَّه.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا

أي: وأنزلْنا إليكم ضياءً واضحًا، هو القرآن الذي أنزله اللهُ تعالى على محمَّدٍ - ﷺ -، يُبيِّن لكم طريقَ الحقِّ الهادي إلى ما فيه الفوزُ الأبديُّ لكم، والنجاةُ من عذاب الله تعالى إنْ سلكتموها، واستنرتم بضَوئه.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ

أي: فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، المعتمدون عليه في جميعِ أمورِهم.

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

أي: فسيتغمَّدهم الله تعالى برحمةٍ خاصَّة، فيُوفِّقهم للخيرات، ويَجزل لهم المثوبات، ويَدفع عنهم المكروهات، ويُدخلهم الجنَّة، ويَزيدهم ثوابًا، ورَفعًا في درجاتهم، من فَضْله عليهم، وإحسانه سبحانه إليهم.

وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

أي: يُوفّقهم ويُسدِّدهم لسلوك طريق مَن أنعم الله تعالى عليه من أهل طاعتِه، ولاقتفاء آثارِهم، واتِّباع دِينهم، فيوفّقهم للعِلم النَّافع، والعمل الصالح.

سُورةُ النِّساءِ

الآية (176)

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(176)

غريب الكلمات:

يَسْتَفْتُونَكَ: يَسألُونَك عن بيانِ الحُكم، ويَطلُبون الفتوى، والفُتيا والفتوى هي الجوابُ عمَّا يُشكِل من الأحكام، وأصل (فتي): تَبيين حُكم.

الْكَلَالَةِ: هو الرَّجُل يموت ولا ولدَ له ولا والدَ، مصدرٌ من تَكلَّله النَّسَب، أي: أحاط به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا مات ولم يُخلِّفْهما، فقد مات عن ذَهاب طَرفَيْه، فسُمِّي كلالةً؛ لذَهاب طرفيه المحيطينِ به.

هَلَكَ: ماتَ، وأصل (هَلَكَ): يدلُّ على كَسرٍ وسُقوطٍ؛ ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ.

حَظِّ: نصيب مقدَّر، وأصل حظ: النَّصِيبُ والجَدُّ.

تَضِلُّوا: تَعدِلُوا عن الطريقِ المستقيم، وأصلُ الضلال: خِلافُ الهُدى، وضَياعُ الشيءِ وذَهابُه في غيرِ حقِّه.

تفسير الآية:

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(176)

عن البَراءِ رضي اللهُ عنه قال: (آخِرُ سورةٍ نزلَتْ: بَراءةٌ، وآخِرُ آيةٍ نزلَتْ: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ).[234]

وعن عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((إنِّي لا أَدَعُ بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلَالَة، ما راجعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – في شيءٍ ما راجَعْتُه في الكَلَالَة، وما أَغْلَظَ لي في شيءٍ ما أَغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعِه في صدري، فقال: يا عمرُ، ألَا تَكْفيك آيةُ الصَّيْفِ التي في آخِرِ سورةِ النِّساء؟ وإنِّي إنْ أَعشْ أَقْضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القُرآنَ ومَن لا يقرأُ القرآنَ)).[235]

(234) رواه البخاري (4605).
(235) رواه مسلم (567).

سبب النُّزول:

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه، قال: ((مرضتُ فأتاني رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ وأبو بكرٍ يُعوداني ماشيينِ، فأُغمي عليَّ، فتوضَّأ ثم صبَّ عليَّ من وَضوئِه فأَفقتُ، قلت: يا رسولَ الله، كيف أَقضي في مالي؟ فلمْ يردَّ عليَّ شيئًا حتى نزلتْ آيةُ الميراث: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ)).[236]

يَسْتَفْتُونَكَ

أي: يَطلُب الصحابةُ منك- يا محمَّدُ- إخبارَهم عن الحُكم الشرعيِّ للكَلالة.

قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ

أي: قُلْ لهم- يا محمَّد-: الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُخبركم عن حُكم الكَلالة، أي: عمَّن مات وليس له ولدٌ- ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرِثُه.

إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ

أي: إذا مات إنسانٌ وليس له ولدٌ- ذكرٌ أو أُنثى- ولا والدٌ، وله أختٌ شقيقةٌ أو لأبٍ، فإنَّها ترِثُ نِصفَ متروكات أخيها، مِن نقود وعَقار وأثاثٍ، وغير ذلك.

(236) رواه البخاري (6723)، ومسلم (1616) واللفظ له.

وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ

أي: إنَّ الأخَ الشَّقيقَ أو لأبٍ يرِثُ جميعَ ممتلكاتِ أُخته إذا ماتتْ ولم يكن لها ولدٌ، ولا والد يَرِثها، فإنْ فُرِضَ أنَّ معه مَن له فرض–كزوجٍ، أو أمٍّ، أو أخٍ من أمٍّ–، صُرِفَ إليه فَرْضُه، وصُرِفَ الباقي إلى الأخِ.

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((أَلْحِقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقِيَ فهو لأَوْلى رَجُلٍ ذَكَرٍ)).(237)

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ

أي: فإنْ كان لِمَن يموت كلالةً، أُختان شقيقتان أو لأبيه، فلهما ثُلُثَا ما ترَك أخوهما، وكذا ما زاد على الأُختين، فله حُكمهما.

وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ

أي: وإنْ كان للميّت إخوةٌ من الذكور والإناث، فنصيبُ الذَّكر منهم من التركة مِثلُ نصيب اثنتين من أَخواتِه، وذلك إذا كان الميِّت يُورَث كلالةً، وكان إخوته وأخواته شقيقات أو لأبيه.

(237) رواه البخاري (6732)، ومسلم (1615).

يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا

أي: يبيِّن الله تعالى لكم أحكامَه، ومنها قِسمة مواريثكم، وحُكم الكلالة فيها؛ كيلَا تضلُّوا في أمْر المواريث وقِسمتها، فتجوروا عن الحقِّ، وتُخطئوا الصواب.

وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

أي: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بجميع الأشياء، وما فيه المصلحةُ لعِباده، ومن ذلك: قِسمة مواريثِهم وما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من أقرباء المتوفَّى، ويعلم أيضًا حاجتَهم إلى العِلم والبيان.

تم بحمد الله تعالى المجلد الثالث

ويليه المجلد الرابع، وأوله تفسير سورة المائدة

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المُغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا